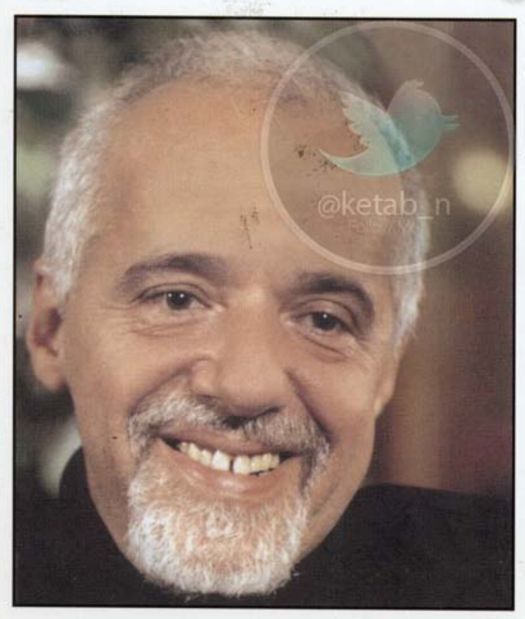
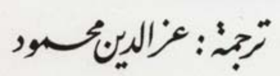


جان إيرياس

باولو كويلهو

اعترافات مُسافر حاج







جان إيرياس

باولو كويلهو
«اعترافات مسافر حاج»

ترجمة: عزالدين محمود

باولو كويلهو «اعترافات مسافر حاج»

• جان إيرياس
• باولو كويلهو «اعترافات مسافر حاج»
• ترجمة: عزالدين محمود

• الطبعة الأولى 2007
• موافقة وزارة الإعلام رقم 96970
• الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيـــــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب:

PAULO COELHO
CONFESSIONS OF A PILGRIM

باولو كويلهو

باولو كويلهو هو واحد من أفضل الكتاب رواجاً في العالم. ولد في ضاحية بوتا فوكو قرب ريو دي جانيرو في الرابع والعشرين من آب لعام 1947 تحت اسم فيركو. ولد في اليوم نفسه من الشهر نفسه وبالاسم الأول نفسه «فيركو» لمثله الأعلى في الأدب خورخي لويس بورخيس، وهو يشعر بالفخر لذلك رغم أنه جاء متأخراً عنه بسنوات عدة. وعندما كان لم يزل يافعاً، وأول ما بدأ قرض الشعر، استقل الحافلة من ريو دي جانيرو وسار طوال ثمان وأربعين ساعة متواصلة من بيونس أيرس لكي يلتقي بورخيس شخصياً. وحين وصل أمامه، وبعد صعوبات جمة وقف أمامه واجماً. نظر إليه وفكر قائلاً لنفسه: «المُثل لا يتكلمون». ثم كرَ راجعاً إلى الريو.

لا ينكر كويلهو بأن هناك الكثير من بورخيس في كتاباته، بدأ من «الخيميائي»، وهو الكتاب الذي جلب له شهرة عالمية واسعة. لا شك أن الكاتب الأرجنتيني اللامع هو من غرس فكرة احتراف الكتابة في ذهن الصبي ابن المهندس بيدرو كوسيما كويلهو دي سوزا، حين أراد له هذا الأب أن يكون محامياً، والذي أودعه مصحاً عقلياً فيما بعد لعصيانه له بهذا الشأن.

والحقيقة أن الصبي كويلهو الذي جاء إلى العالم عبر ولادة عسيرة دفعت أمه ليجيا أراريب كويلهو، التي كانت متدينة بعمق، لأن تعمده في العيادة حيث ولد. كان دائماً يحلم بمهنة فنية، الأمر الذي كان يُنظر إليه بازدراء في أوساط الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها،

وربما لهذا السبب تعود المشاكل التي عانى منها في المدرسة. كان يحب أن يقرأ، ليس بورخيس فحسب بل هنري ميلر أيضاً، ومن هنا تنامى ولعه بالمسرح. ولدى ملاحظة والديه افتقاره إلى التقدم الأكاديمي، أرسلوه إلى مدرسة الجزويت الصارمة، كلية دي سانت أغناسيو، في ريو دي جانيرو حيث تعلم الانضباط في الحياة، لكنه أيضاً فقد إيمانه الديني، إلا الشيء الذي لم يفقده، على العموم، هو حبه للأدب، بل إنه في الحقيقة أحرز جائزته الأولى في الشعر في تلك المدرسة.

كان كويلهو دائماً غير مهادن، وباحثاً عن الجديد مما دفعه إلى تجريب كل ما صادفه من أمور جيدة أو سيئة في مسار حياته. وحين انتشرت حركات العصابات والهيبيين في حمى الستينات، وقع كاتب المستقبل في حبّ ماركس وإنجلز وتشي غيفارا. شارك في الانتخابات والمظاهرات، واستغرق في الحركات التقدمية، وكان جزءاً مما يسمى بجيل السلام والحب.

وكان أن بدأ كويلهو آنذاك يشهد أزمته في الإيمان فانطلق في البحث عن تجارب روحانية جديدة، فلجأ إلى المخدرات ومسببات الهلوسة والملل والسحر وهو يجوب أمريكا اللاتينية بمجملها على خطى كارلوس كاستيندا.

وفي النهاية راعى والده وسجل في كليةِ الحقوق في جامعة ريو دي جانيرو. لكنه سرعان ما تخلى عن ذلك ليعمل لحلمه الجديد في المسرح. وبالنقود التي حصّلها من عمله كممثل، وبعد أن فرَّ من المصح العقلي، ذهب إلى الولايات المتحدة، حيث ساعده أصحابه الهيبيين حين نفدت منه النقود.

كانت الكتابة لم تزل شغفه الأول، لذا بدأ العمل في الصحافة ووجد ضالته في مجلة كانت تدعى «2001». استمرت المجلة فقط لإصدارين، لكن كان لها أهمية فائقة بالنسبة له إذ نتيجة أحد مقالاته فيها أصبح على صلة بالمنتج الموسيقي راؤول سايكساس

الذي اشترك معه فيما بعد ككاتب أغان، وكانت تلك لحظات مجده. كان المغني سايكساس يعمل في بلدان عديدة، وبدأ كويلهو يكسب الكثير من النقود لقاء الأغاني التي كان يكتبها لدرجة أنه اشترى خمسة بيوت سكنية كما أنه كتب أيضا في جريدة «الكلوبو» في الريو، حتى نشر في عام 1974 كتابه الأول عن المسرح في التربية.

كانت تلك السنوات أيضاً هي التي شهد فيها كويلهو أكثر تجاربه حدة مع السحر الأسود. مستلهماً أليستر كراولي. حيث كانت أقسى وأصعب تجاربه في الحياة، والتي يتحدث عنها بعمق في هذا الكتاب. وحين نجح في تحرير نفسه من سلاسل السحر الأسود التي كانت تجره إلى حافة الهاوية، كان عليه أن يمر بتجربة أخرى من تجارب الحياة المريرة. فقد اختُطف وعُذب من قبل جماعة الأمن العسكري خلال مرحلة الحكم الديكتاتوري في البرازيل.

بمعجزة فرّ من معسكر التعذيب والاعتقال، وبالكاد نجا بحياته. فقرر عندئذ أن يضع حداً لجنون المخدرات والسحر الأسود وأن يستقر في حياة طبيعية، مشتغلاً مع عدة شركات لتسجيل الأغاني. لكن في العام 1976 تحركت بداخله لوثة الكتابة ثانية، وانتقل إلى بريطانيا كمراسل لعدة مجلات برازيلية وقرر أن يكتب قصة حياته، التي قضى سنةً يشتغل عليها. وقبل أن يعود إلى البرازيل، على أية حال، ترك المخطوطة بالمصادفة وراءه في محل عام في لندن، لتبقى سيرة حياته دون أن تنشر.

بعد ثلاث زيجات فاشلة تزوج كريستينا أوتسيكا في العام 1981، وهي رسامة لم تزل تشاركه أعظم نجاحات حياته ككاتب ذي شهرة عالمية. ومازالا ينعمان بزواج سعيد، لكن شغفه في الترحال بحثاً عن مهامه الشخصية، لم يخمد. فانطلقا بالنقود التي كان قد كسبها يجوبان العالم لمدة ستة أشهر حيث في ألمانيا، وفي معسكر اعتقال من معسكرات النازية، مر بتجربة روحية عميقة وحادة كانت منطلقاً لتحوّل آخر في حياته، ليعيده ثانية إلى

المعتقدات الكاثوليكية لوالديه. وكان حينها قد قضى خمسة وخمسين يوماً، مع مرشده الروحي، يقطعان مشياً السبعمئة كيلومتر على الطريق القديم إلى سانتياغو دي كومبوستيلا، على خطى حجاج القرون الوسطى.

دفعته تجربة الحج إلى سانتياغو لأن ينشر ما أعتُبر أول عمل أدبي له، وهو مذكرات مجوسي (أعاد عنونته فيما بعد ليصبح «رحلة حج») وبعد هذا الكتاب جاءت كتبه الأخرى، من «الخيميائي» وحتى كتابه الأخير «فيرونيكا تقرر الموت» لتضعه واحداً بين الكتّاب العشرة الأكثر رواجاً في العالم، كاتباً يثير الجدل والمشاعر الحادة، ويمضي مبتسماً واثقاً متابعاً مسيرته في إيقاظ الحس الضائع تجاه الغموض والسحر عند الرجال والنساء في بداية هذه الألفية الجديدة، متغلباً على الرتابة والعجز في أحضان مجتمع مُمَكْنَك مُضجِر.

يقول كويلهو غالباً بأن لديه من المال ما يكفيه، لتتقمص روحه في أجيالٍ ثلاثة. إنه يكسب الكثير لدرجة أنه خصص أربعمئة ألف دولار سنوياً من حقوقه في التأليف لمؤسسة تحمل اسمه وتديرها زوجته كريستينا، وتستخدم أموال المؤسسة للعناية بالأطفال المنبوذين في أسوأ أحياء الفقراء في الريو، وللعناية بالفقراء والمحتاجين المتقدمين في السن، ولتشجيع ترجمة روائع الأدب البرازيلي إلى اللغات الأخرى، وعلى البحث في الأصول الأحفورية لبلده الحبيب ـ البرازيل ـ والتي يعتبرها أكثر البلدان سحراً في العالم، لأنه لا يوجد فرق في البرازيل، كما يقول، بين المقدس والدنيوي ولا أحد يخجل من الاعتقاد بالأرواح.

الحوارات

جرت هذه الحوارات مع باولو كويلهو في ريو دي جانيرو في بيته المطل على شاطئ كوباكابانا الرائع، في بداية تموز من العام 1998 في ذروة بطولة كأس العالم لكرة القدم المقامة في فرنسا، حيث كانت حواراتنا فقط تقاطع الكاتب، وهو يتابع المباريات التي كان يغطي أخبارها لوكالات الأنباء الفرنسية.

وخلال هذه الحوارات الطويلة بسط باولو كويلهو لنا روحه وأفصح لأول مرة عن لحظات مؤلمة في ماضيه، كتلك الأوقات التي قضاها في صحارى المخدرات والسحر الأسود، والعبادات الشيطانية، والمصح العقلي والسجن والتعذيب. وفي نهاية الجلسات أكد رغبته بألاّ يعود للحديث عن حياته ثانية طوال عشرين سنة قادمة.

مرافقتي الكاتبة والشاعرة البرازيلية روزينا موراي شاركت في هذه السجالات. أجريناها بداية أوقات بعد الظهر، بعد أن يكون كويلهو قد أخذ مشواره الصباحي على الشاطئ بُعيد استيقاظه كل يوم، وباعتباره يكتب في الليل فهو يذهب إلى النوم عند الفجر لينام في الصباح ويقضي فترة بعد الظهر في لقاء الناس، ومن ثم استعراض مراسلاته المكثفة من رسائل وفاكسات وإميلات ومكالمات هاتفية ترده من أنحاء العالم كافة.

وبسبب ذلك كانت حواراتنا غالباً ما تقطع بالتبليغ عن رسائل واردة. وأحياناً كنا نسمع هذه الرسائل على جهاز الرد الآلي. كان كويلهو يصغي للرسالة، فينهض للرد عليها، أو يؤجل الأمر، وفقاً لما يقتضيه الحال. اعتذر مرة وهو يقول لنا: «عفواً، لأن بوريس يلتسين بصدد إرسال فاكس يدعوني به إلى موسكو».

وأراد بعد ظهر أحد الأيام أن يفتح رزمة ذلك اليوم السميكة من الرسائل معنا ويحدثنا عنها، فهو في الغالب يتلقى رسائل من غرباء، وأحياناً تكون الرسالة مؤلفة من عدة صفحات، تخبره عما يشعر أصحابها عندما يقرؤون كتبه، كما يتلقى أكثر الأسئلة والاعترافات تبايناً وغرابة من منطلق كونه العرافة الخيّر. وفي ذلك اليوم ومن ضمن عشرات الرسائل الواردة، كان هنالك رسالة واردة من وزير القوات المسلحة البرازيلي، أخبره فيها بأنه قد قرأ كتابه «دليل إلى فارس النور». علق كويلهو قائلاً: «هذا أمر غير عادي فالشخصيات الهامة عادة لا تكلف نفسها عبء الكتابة، رغم أنني حين أقابلهم يخبرونني بأنهم قرؤوا كتبي، شيمون بيريز مثلاً قال لي ذلك في سويسرا خلال مؤتمر دافوس حيث اجتمع رواد الاقتصاد العالمي، وحيث كنت مدعواً لتوجيه كلمة ذلك العام».

وفي معرض الحديث عن ذلك اللقاء في دافوس، حيث كان مدعواً من البرازيل فقط كويلهو ورئيس الجمهورية فرناندو إنريكه كاردوسو.

يقول الكاتب إن ألاعيب السحر الحقيقية يؤديها الاقتصاديون ورجال المال في أيامنا هذه وليس السحرة المحترفون البائسون.

إن المشهد على البحر في كوباكابانا يتلون بأطياف اللون الأزرق عند تحول الغروب إلى مساء، مما يعطي كويلهو معيناً لاينضب من الصور عن البحر في الرد على تساؤلاتنا، وهو دائماً يجيب بالإسبانية، اللغة التي يحبها ويتكلمها بطلاقة. إن مؤلف الخيميائي ليس رجل أنصاف الحلول، بل هو الرجل الذي يمضي

إلى النهايات. الرجل الشغوف، المعتاد على ما يطلق عليه «الصراع الفاضل» إنه الرجل الذي لا اعتراض له على جدال والصريح إلى حد لا يصدق، رغم أنه ليس واثقاً بشكل مطلق من أي شيء. الرجل الذي يعرف كيف يصغي والقادر على الاعتراف بأنه قد يكون على خطأ.

في أحد الأيام بعد الظهر حدثت مقاطعة دامت ساعة من الزمن لأن ممثلاً عن ناشره في البرازيل وصل مع مصور مختص لأخذ مجموعة من الصور بمناسبة نشر روايته «فيرونيكا تقرر الموت»، وأراد منا أن نبقى من أجل جلسة التصوير. أُخذت له صور في الوضعيات الممكنة بما في ذلك وضعه حافي القدمين وهو يجلس مصالباً قدميه على مقعد كمبيوتره الخاص. وبالنظر إلى الحرفية العالية للمصور كان واضحاً أن الصور ستكون أفضل صور سبق أن أخذت له. علق المحرر قائلاً: «ماذا سنفعل ببقية الصور؟»، وأجاب كويلهو: «يمكنك إرسالها إلى جرائد المقاطعات». ردت مرافقتي روزينا قائلة بانفعال «باولو، إنك تفعل ما يفعله معنا العالم المتقدم، إذ يرسل إلينا نفاياته»، ورد كويلهو دون أي تردد «أنت على حق ياروزينا»، وطلب بألا تستخدم الصور القديمة مؤكداً بأن الصور الجديدة سترسل إلى الضواحي أيضاً.

وبعد بضعة أيام أخبرت ليوناردو بوف، عالم اللاهوت، عن الحدث ونحن في بيته في غابة إيتافا، قرب بتروبوليس. وكان بوف دائماً يدافع عن كويلهو ضد منتقديه، لأنه يعتقد بأن كتب كويلهو توقظ الروح وحب الأسرار في عالم مستهتر بارد. ولدى سماعه بحادثة الصور، علق بوف قائلاً: «إنني أقدر دائماً الناس الذين لايخشون الاعتراف بأخطائهم فذلك يتطلب قوة في الشخصية».

خلال الأيام الأخيرة جرت الحوارات في الليل. كان كويلهو يشعر بالانتعاش والنشاط وهو الذي اعتاد أن يبدأ العمل حين يهم معظم الناس بالنوم. لقد كان أكثر حيوية واستعداداً للحوار. وكنا نتوقف فقط عندما يتغلب الإنهاك على الآخرين معنا. ولو عاد الأمر

له لتابعنا طوال الليل. دقيقة واحدة فقط كان على الكاتب خلالها أن يتوقف، إنها لحظة منتصف الليل. إنها لحظة طقسية بالنسبة له مثلها مثل الساعة السادسة مساءً حيث تغرب الشمس. في هذه اللحظات يطلب كويلهو بضع ثوان من الصمت ملتمساً دقيقة للصلاة.

أحياناً كان آخرون يشاركوننا في تلك الأحاديث الليلية والتي كانت أكثر حميمية وأكثر اعترافاً. زوجته كريستينا برهافتها ودماثتها المعهودة، كانت دائماً تسأل إن كان بوسعها البقاء لتسمع الحوار. مرة قال لها كويلهو: «اصغي بانتباه فسوف تسمعين أشياء لم يسبق لأحد حتى أنت سماعها من قبل، فقد قررت الآن أن أعرّي روحي، ليتمكن كل شخص أن يعرف من كنت في الماضي ومن أكون فلا يبتدع عني أحد تصورات زائفة بعد الآن».

في الليل كنا نقيم حواراتنا في غرفة المعيشة، في الجانب الآخر من المنزل وكان على المنضدة أطباق من المربى وجبنة تاباس، ذلك النمط الإسباني المصحوب بخمرة الضواحي الإيطالية الذي يضفي جواً تاماً من الثقة المتبادلة خاصة وأن لا أحد من خارج الجو يقطع علينا خصوصية الجلسة، لأن الناس والهاتف والكمبيوترات تكون قد أوقفت في تلك الساعة. كان المنزل مثقلاً بصمت يفتقر إليه أثناء النهار بسبب سعي العالم الحثيث وراء أكثر كتّابه شعبية.

شارك في إحدى هذه المناقشات الليلية ثلاث تلميذات إسبانيات شابات هن الأختان باولا وآنا وصديقتهما ماريا. تعمل إحداهن في شركة دولية متمركزة في ريو دي جانيرو وكن يدرسن في مدريد وقد جئن في العطلة لرؤية أهلهن. كنت قد قابلتهن في المطار عند مجيئي من مدريد. وعندما سمعن أنني سوف أعد كتاباً مع المؤلف باولو كويلهو أشرقت وجوههن وأرتني كل واحدة منهن أي كتاب له

كانت تقرأ «برايدا»، «الجبل الخامس» و«على ضفة نهر بييدرا جلست وبكيت» وقرأت في أعينهن أن اللقاء مع كويلهو هو الحلم الذي على وشك التحقق.

فسر كويلهو برهافة حسه تجاه بعض العلامات هذا اللقاء مع الفتيات الثلاث، وهن يقرأن كتبه في طريقهن إلى ريو دي جانيرو، كعلامة فأل طيب للمهمة التي نحن بصددها. لقاء الكاتب مع الشابات الثلاث لم يكن محفزاً فحسب بل كان حيوياً، جريئاً وصادقاً، وشمل اللقاء أيضاً الحضور الاستثنائي لماورو ساليز المفكر ومنفذ الإعلانات والشاعر والشخصية البالغة التقدير في البرازيل والذي يعتبره كويلهو بمقام الأب الروحي. ويلتقي الاثنان عادة في رأس السنة من كل عام مصطحباً كلٌ منهما زوجته إلى معتزل كروتو في لور دس. حضر ساليز لقاء كويلهو مع الشابات الثلاث، وشاركهن الجلسة مدوناً الملاحظات ومشاركاً في الحوار كندٍ للجميع.

إن كويلهو الكاتب والمعلم مخلص جداً لبعض الطقوس ولا يخفي حقيقته، لذا فإنه في الليلة التي قرر فيها أن يأتي على ذكر تجارب ماضيه المؤلمة مع السحر الأسود والطقوس الشيطانية، أطفأ الأنوار في المنزل وأضاء الغرفة بالشموع قائلاً: «أفضّل الحديث عن هذه القضايا بهذه الطريقة». وأخبرنا عن كل شيء دون الحاجة مني لتوجيه الأسئلة، فقد كان كمن يتحدث لنفسه مسترجعاً جروحاً قديمة في روحه.

واحدة من أكثر اللحظات العاطفية حدة حدثت عندما كان يفضي لنا بالتجربة الروحية التي مر بها في داتشو، والتي غيرت مجرى حياته بشكل حاد، حيث انفجر بالدموع. وبعد بضع لحظات من الصمت، ولكي يخفف من وطأة الموضوع قال: «لعلي أسرفت في الشراب قليلاً». أما اللحظة الأكثر بهجة فكانت عندما التقطت زوجته كريستينا ريشة بيضاء من تحت المنضدة وسلمتها لزوجها قائلة: «انظر باولو ماذا وجدت تحت المنضدة». ووضعت الريشة فوق

المنضدة. أشرق وجه كويلهو عندها فرحاً، أمسك بيد زوجته وقال بتأثر عميق: «شكراً لك يا كريستينا» كان ظهور ريشة بيضاء بجانبه بالمصادفة هو علامة تعني له الولادة الوشيكة لكتاب جديد. وكنا عند تلك اللحظة على وشك الوصول إلى خاتمة هذا الكتاب.

أراد منا أن ننهي حواراتنا في المكان نفسه حيث بدأنا، في غرفة نومه مقابل شاطئ كوباكابانا في ضوء الشمس اللطيف من شتاء الريو. سألته إن كان يعتبر نفسه معلّماً علاوة على كونه كاتباً، فأجاب: «أجل أنا معلم، لكن هذا هو شأن كل من يعرف كيف يقرأ اللغة الخفية للأشياء في سعيه للبحث عن صيرورته».

حاولت في هذا الكتاب أن أستبقي الأسلوب غير الرسمي لهذه الحوارات الودية مع الكاتب. حوارات كان لها أحياناً لحظات جدل لاهوتي حاد، وأحياناً كانت اعترافية في الجو الحميمي الذي وصلنا إليه. وفي إشارة ثقة لم يشأ كويلهو أن يراجع النص تاركاً لي كامل المسؤولية في إنجازه. وهكذا فإن أية هفوة يتضمنها النص هي مسؤوليتي بشكل كامل.

إن شكري الخالص هو لماورو ساليز، الشخص الذي يعرف باولو كويلهو أكثر من أي شخص آخر. إن الدعم المناقبي الواسع الذي قدمه بسخاء كان عوناً كبيراً لي على فهم أعمق للشخصية المركبة والغنية للكاتب البرازيلي.

وأود أن أؤكد لقراء كويلهو القدامى والجدد بأنهم كانوا طوال الوقت موضع الاهتمام الأساسي للكاتب، فهو يبقيهم ماثلين في ذهنه في كل مرة يطلق رأياً أو يفصح عن وجهة غير معروفة في حياته الغنية العامرة بالتجارب، لذلك فهم جمهور الحضور الموثوق لهذا الكتاب.

1

العلامات

«العلامات هي أبجدية يطورها المرء
للتخاطب مع روح العالم».

إن باولو كويلهو هو أكثر من كاتب، الأمر الذي لا يفهمه العديد من النقاد الأدبيين عنه. إنه شخص ترميزي متعدد الأوجه. إن كتبه هي أكثر من مجرد قصص، ولهذا تطلق العنان لعواطف متناقضة وأواصر لا تنفصل عراها. وينجم عن هذا أيضاً أن علاقاته مع قرّائه ليست على نمط العلاقات التقليدية بين الكاتب وقرائه. لقد شَهدتُ برهاناً أولياً على هذا في المركز الثقافي البرازيلي في ريو دي جانيرو. كان كويلهو بصدد قراءة مقاطع من «الجبل الخامس» كجزء من سلسلة قراءات. وكان يمكن للجمهور - وكانوا بالآلاف - أن يتوجهوا إليه بأسئلتهم. إن الذي جرى، ودون تخطيط مسبق له هو أن ذلك الحدث الثقافي تحول عن غير قصد إلى حلقة علاج نفسي جماعي. كان مُراداً للأسئلة أن تُسلّم مكتوبة، لكن هذه الخطة فشلت، إذ وقف الناس ليتكلموا إليه مباشرة معترفين علانية كيف أن كتبه قد غيرت مجرى حياتهم. كان الحضور يودّ معرفة كل شيء عنه. وكانوا يعانقونه عندما يتقدمون من أجل توقيع كتاب، الأمر الذي استمر لعدة ساعات.

حياة باولو كويلهو تتركز الآن بشكل أساسي على كونه كاتباً، وهو الهدف الذي سعى إليه طوال حياته ومضى به في النهاية إلى أبعد مما كان يتوقع. لكن كويلهو كاتب يحب أن ينغمس في الحياة، يحدق فيها، يقرأ الأبجدية السرّية للكون، والعلامات التي تُرسل إلينا على شكل رسائل مشفّرة.

بدأ تواصلنا في ريو دي جانيرو بواحدة من هذه العلامات. كان لقاؤنا الأول قد تأجل حتى الساعة الثانية من بعد الظهر. وكان هذا اللقاء يُخطط له طوال ستة أشهر. عندما وصلت إلى منزله أخبرني البواب بأنه لم يرجع بعد من مشواره الصباحي على الشاطئ. وهو مشوار اعتاد القيام به يومياً ليتناول الحليب مع الكاكاو، ويسلم على الناس الذين - لدى معرفته - يجيئون إليه من أجل دردشة حديث. جلست أنتظره في بارٍ مجاور لمنزله. وصل بعد تأخر نصف ساعة مبتسماً لكن قلقاً. وقبل أن أدير شريط التسجيل، اندفع ليخبرني بما حدث معه للتو، لأنه اعتبر ذلك واحدة من تلك العلامات التي تجبره على التأمل في الحياة. كانت الحادثة قد تركت لديه انطباعاً عميقاً، وقد استخدمه كمادة لواحدة من زوايا الأحد التي كان يكتبها في جريدة ريو دي جانيرو «الكلوبو» تحت عنوان: «رجل مستلق على الأرض»، ودارت على النحو التالي:

«كان رجل في الخمسينات من عمره مستلقياً على الرصيف قرب شاطئ كوباكابانا. مررت به، ألقيت نظرة سريعة، ثم تابعت باتجاه الصالة التي كنت أقصدها كل يوم لتناول شراب الحليب مع الكاكاو.

ولأنني من الرّيو فقد سبق أن شاهدت المئات وربما آلاف الرجال والنساء والأطفال مستلقين على الأرض. وكشخص واسع الأسفار، فقد سبق أن رأيت المشهد ذاته في كل بلد زرته من سويسرا الثرية حتى رومانيا البائسة. وقد شاهدت ذلك في كل فصول السنة: في الشتاءات المتجمدة في مدريد ونيويورك أو باريس، حيث كان هؤلاء يقطنون قرب الهواء الدافئ المتصاعد من مداخل المترو والأنفاق، وعلى الأرض التي تتقد حراً في لبنان بين أبنية دمرتها الحرب. أناس يفترشون الأرض، سكارى، مكشوفون، منهمكون، مشاهد ليست جديدة في حياتنا.

أنهيت شرابي من الحليب والكاكاو وكان عليّ أن أرجع

مباشرة، إذ كنت على موعد مع جان إيرياس من جريدة «ألباييس» الإسبانية. في طريق العودة رأيت الرجل مازال مستلقياً هناك في الشمس وكل الناس يمرون به كما فعلت يلقون نظرة ويتابعون طريقهم.

حدث، ودون أن ألاحظ ذلك، أن روحي قد أصبحت متعبة من رؤية هذا المشهد لمرات عديدة. وعندما مررت بالرجل للمرة الثانية، فإن شيئاً أقوى في داخلي دفعني لأن أنحني عليه وأحاول مساعدته.

لم يستجب الرجل. أدرت رأسه جانباً ورأيت الدم قرب صدغيه، ثمة شيء خطير إذن. مسحت الدم بقميصي فبدا أن الضرر لم يكن شديداً.

وبدأ الرجل في تلك اللحظة يتمتم ببضع كلمات: «قل لهم ألا يضربوني». حسناً هو إذن على قيد الحياة، وعليّ أن أرفعه عن الأرض وأستدعي الشرطة.

استوقفت أول رجل مرّ بالطريق وطلبت منه أن يساعدني في نقل الرجل إلى الظل بين الرصيف ورمل الشاطئ. رمى الرجل ما كان في يديه وهرع ليساعدني. لا بد أن روحه هو الآخر قد ملّت رؤية المشهد ذاته.

وعندما نقلنا الرجل إلى الظل توجهت إلى المنزل. كنت أعلم أن هناك مركزاً للشرطة بالجوار وأن بوسعي أن أطلب المساعدة من هناك، لكن قبل أن أصل إلى المركز صادفت ضابطين من الشرطة في الطريق «هناك رجل مصاب في مكان كذا وكذا» قلت لهما: «لقد نقلته إلى الظل. عليكما أن تحضرا سيارة إسعاف». أخبرني الشرطيان بأنهما سيعالجان الأمر. وهكذا فقد قمت بواجبي. عمل طيب لهذا النهار، والمشكلة الآن في أيدي أناس آخرين وسيهتمون

بها. فكرت بأن الصحافي الإسباني ربما سيكون قد وصل إلى المنزل.

ولم أكن قد تجاوزت خطوات عشر حين صادفني رجل غريب حدثني بلكنة برتغالية بالكاد تُفهم قال: «كنت قد أخبرت الشرطة عن الرجل، لكنهم قالوا لي أنها ليست من اختصاصهم إن لم تكن قضية سرقة».

لم أدعِ الرجل يتم كلامه. عدت راجعاً إلى الشرطيين وأنا مقتنع بأنهما قد عرفاني كشخص يكتب في الجرائد ويظهر على التلفاز. عدت إليهما مدفوعاً بالانطباع الزائف بأن النجاح يمكن أن يحل مشاكل عديدة. «هل أنت في موقع سلطة؟» سألني أحدهما لدى ملاحظته أنني أطلب المساعدة بطريقة صارمة. لم يكن لديه أدنى فكرة عمّن أكون. «لا، لست في السلطة». أجبت قائلاً: «لكن دعونا الآن نؤمن الرعاية المطلوبة للحالة التي بين أيدينا».

كنت ألبس ثياباً رثة: بنطالاً من الجينز المستهلك وقميصاً ملطخاً بالعرق وبدم الرجل. كنت بالنسبة لهما رجلاً عادياً من العامة لا أملك أية سلطة غير سأمي من رؤية الناس ممددين على الأرض، ولسنوات من عمري دون أن أكون قادراً على فعل شيء لهم.

غيّر ذلك كل شيء فجأة، إذ أتى الوقت الذي وجدت نفسي فيه متجاوزاً كل خوف. تأتي اللحظة التي ترى عيناك فيها الأشياء فجأة بطريقة مختلفة، ويفهم الناس بأنك تتحدث بشكل جديّ. اصطحبني الشرطيان وذهبا يطلبان بالهاتف سيارة إسعاف.

وفي طريق عودتي إلى المنزل فكرت بالعِبر الثلاث المستقاة من هذه التجربة:

أولاً: يستطيع كل منا أن يضع حداً لأمر سيءٍ ما حين يكون مايزال محتفظاً بنزاهته.

ثانياً: سيكون هناك دائماً شخص ما ليقول لك «حسناً، ها قد بدأت، فتابع الأمر حتى النهاية».

وأخيراً: فإن كلٌ منا لديه سلطات عندما يكون واثقاً ثقة مطلقة بما يقوم به.

س ـ مسألة العلامات، كهذه التي عشتها للتو على الشاطئ قبل أن تلتقي بنا. كيف تميَّز هذه العلامات، وكيف ترتبط بحياتنا، هذا موضوع متكرر في كتبك. وكيف لك أن تعلم متى تكون العلامة حقيقية؟ فمن السهل أن نقرأ علامات في كل شيء...

ج ـ أنت على حق، لأننا بمحاولة قراءة العلامات في كل شيء يمكن أن ننتهي إلى حالة من جنون الارتياب. انظر! فأنا الآن مثلاً أرى وردة مطرزة على حقيبة يد روزينا، وهناك بجانب الكمبيوتر لدي صورة للقديسة تيريزا من ليسيكس ومعها وردة. يمكنني الآن أن أرى في ذلك علامة واضحة لمباركة القديسة تيريزا لما نحن فيه. لكن قد تدفع بنفسك إلى الجنون، لو رأيت قطعة من شوكولا المجرة «GALAXY BAR» وظننت بأن عليك التفكير بالمجرات السماوية. الأمر ليس كذلك.

ـ إذن، ما هي العلامة؟

ـ العلامات هي لغة. إنها الأبجدية التي يطورها المرء للتحدث مع روح العالم أو روح الكون، أو روح الله. سمّها ما شئت. وكأية أبجدية، فهي شخصية، وتتعلمها من خلال ارتكاب الأخطاء. وهذا ما يبعدك عن عولمة المسعى الروحيّ.

ـ ما الذي تعنيه بعولمة المسعى الروحيّ؟

ـ حسناً، وفقاً لطريقة تفكيري أرى في المئة سنة القادمة إن نزعة الإنسانية تسير باتجاه الانعطاف إلى البحث في الروحانيات. إنني أرى أن الناس قد أصبحوا أكثر انفتاحاً على هذا الموضوع

مما كانوا عليه في القرن الماضي. لقد بدأنا نتبين أن مقولة «الدين أفيون الشعوب» لم تصمد، وخاصة وأن أولئك الذين طلعوا بها لم يجربوا هذا الأفيون.

إن ما يحدث هو أن الناس عندما يبدؤون الانخراط في الدين فهم إنما يخوضون في مياه مجهولة. ونحن إذ نجد أنفسنا نغوص في بحار غير مألوفة، يأخذ بنا الخوف وفي اللحظة نفسها نتمسك بأقرب شخص إلينا من أجل المساعدة. ونحتاج جميعاً لإقامة احتكاك بالآخرين والتآلف مع الروح الجماعية التي تحكمهم.

لكننا في الوقت ذاته نحتاج لأن نقف على أرجلنا نحن، ونمشي بأقدامنا نحن تماماً كما تمشي في طريق الحج إلى «سنتياغو». فأنت تبدأ من فراغ، غير مدرك لما قد تجده، رغم أنك تريد أن تعثر على أدلة لتتصالح مع نفسك وصيرورتك. وهذه الأدلة تأتينا عن طريق أبجدية أكثر غنئ تتيح لنا أن نعرف بالحدس ما ينبغي وما لا ينبغي أن نفعله.

ـ لكن ألا تظن بأن هناك خطراً في أننا قد نرى العلامات التي تناسبنا أو العلامات التي قد تأخذ بنا بعيداً عن المسار الحقيقي؟ كيف تصل إلى هذا اليقين بأن العلامات صادقة؟

ـ لا. إن ما يحدث هو أننا في البداية قلما نصدق أي شيء، وفي مرحلة ثانية نعتقد بأننا على خطأ، وفي مرحلة ثالثة يبدو لنا كل شيء علامة، وفقط في النهاية وعندما تعبر علامة ما مسار حياتنا مرة بعد أخرى، ودون أن نتقصدها، عندئذٍ ندرك بأننا نواجه لغة تمضي إلى ما وراء الواقع الملموس.

ـ هل لك أن تعطينا مثالاً شخصياً لشيء حدث لك من فترة قريبة وفسرته على أنه علامة؟

ـ أخبرتك سابقاً بأن لدي صورة القديسة تيريزا من ليسيكس هناك قرب الكمبيوتر. قد يبدو لك هذا غريباً، لكن تبجيلي للقديسة

الفرنسية، والتي ماتت وهي طفلة تقريباً، قد جاء نتيجة للعملية التي وصفتها لك للتو. لم يكن يعنيني ما يتعلق بها إطلاقاً في البداية. لكن بالتدريج بدأت تظهر في حياتي. قرأت لها كتاباً، وأول ردة فعل لديّ كانت الشفقة: فقد بدت لي فتاة هستيرية بائسة.

ـ لنستطرد دقيقة في هذا الموضوع. إن الكتاب الأول بالفرنسية عن كتابات القديسين العظام للكنيسة أثار فضيحة. كانت الخلاصة بأنه لو لم يتبع أصحاب هذه الشخصيات الخارقة المسار الديني ويُبجّلون باعتبارهم قديسين، لكانوا تحولوا إما إلى مجرمين مشهورين أو زناة مشهورين. إن التفسير الذي أعطاه الخبير بالكتابة كان إن هؤلاء يمتلكون المحفزات القوية في شخصياتهم والتي لو لم يسموا بها في مجال الدين لكانوا ربما تحولوا إلى كبار القتلة أو الفاسقين.

ـ لا شك في ذلك. وهذا لا ينطبق فقط على القديسين. يقولون بأن أفضل الجراحين لا بد أن يمتلكون في داخلهم قدراً كبيراً من السادية المكبوتة، وإلا لما استطاعوا أن يجروا العمليات الجراحية على النحو الجيد. تماماً كما يقولون عن الطبيب النفسي الجيد الذي لا بد أن يكون لديه مسّ من جنون.

ـ وماذا عن الكتّاب؟

يضحك كويلهو ويقول: «أعتقد أننا نحن الكتّاب أيضاً لدينا شيءٌ من الحس الإجرامي في داخلنا، وخاصة أولئك الذين يكتبون عن الغموض وروايات الجرائم».

ـ لِنعُدْ ثانية إلى قديستك تيريزا. كيف كانت بداية كل ذلك؟

ـ كانت البداية في العام الماضي، قبل أن ألتقي بك في مدريد ببضع أسابيع. كنت عائداً من ألمانيا، طُلب إليّ أن أكون عرّاباً لصبي، وبدأ القس الذي قام بالتعميد يحدثني عن القديسة تيريزا

أثناء تناولنا للطعام وأعطاني أحد كتبها. تركت الكتاب في الفندق، فأنت تعرف ولابد كم هو مزعج أن تسافر حاملاً كتباً، وخاصة إذا كانت الكتب لا تعنيك. لكن قبل أن أغادر طلبت من القس أن يباركني لأنني على وشك القيام برحلة سياحة طويلة. فأخذني إلى زاوية في الفندق وباركني. لكنه ركع بعد ذلك وقال: «الآن باركني أنت». أعرف أن القساوسة هم من يباركون الناس وليس العكس، لكنه أصّر. وهكذا لم أكن مستاءً، فباركته.

من هنا بدأ كل شيء. قبل معرض الكتاب، وكنت قد ألقيت بالكتاب الذي أعطاني إياه القس دون أن أقرأه، جاءني شخص وقال: «لدي رسالة لك من القديسة تيريزا». دعني أخبرك بالمناسبة، أنني قد وصلت حداً في حياتي أصدق فيه كل شيء. فإن قال لي شخصُ ما «هيا، لنشاهد الخيول وهي تطير» لذهبت. إن أول حس غريزي عندي هو أن أتبع الكاذب حتى العتبة، رغم أنني لا بد أن أقرَّ بأنني لا أحب الكاذبين. لكنني قد رأيت في حياتي العديد من المعجزات، صدقت ذلك الرجل الغريب عندما جاء يخبرني بأنه يحمل رسالة من القديسة تيريزا.

ـ لكن لا بد أنه كان في الأمر أكثر من ذلك بالنسبة لك لتدرك أن هذه القديسة سيكون لها شأن في حياتك.

ـ بالطبع، لأنني منذ تلك اللحظة بدأت أتبين أشياء ما سبق أن شككت بها. مثلاً أخبرني أبي ـ أبي نفسه الذي وضعني في المصح العقلي عندما كنت شاباً ـ أخبرني أن أمي لطالما كانت تكرس نفسها لهذه القديسة. والآن ثمة فيلم يعدُّ عن أسفاري. إنه إنتاج فرنسي كندي أمريكي مشترك. وفي اليابان قال لي المصور، وهذا موضوع لم أذكره لأحد بعد: «إنني أُعدّ فيلماً عن القديسة تيريزا، فهي القديسة التي أتوجه إليها بالعرفان. فهل لك أن تحدثني عنها؟ أعرف أنك لا تؤمن بالقديسة تيريزا ولكن...»، «وماذا تقصد بأنني لا أؤمن

بها» قلت هذه هي العلامات. إنني أقص لك هذه الحكاية لأنك في البداية تنطلق من النكران وأخيراً، وعندما تستمر العلامات بالظهور، فإنها تعبر عن ذاتها بلغة شخصية جداً لا يمكنك أن تُخطئها.

ـ لكن ماذا يحدث إذا كنت مخطئاً واتبعت مسار علامة زائفة؟ ألا يمكن لهذا أن يدّمر حياتك؟

ـ إنها قضية حساسة ومهمة. بالنسبة لي لا يكمُن الخطر في احتمال ارتكاب خطأ واتباع علامة يتبين فيما بعد أنها زائفة. إن المخاطر الكبرى في المسعى الروحي بالنسبة لي هي في المشعوذين والأسياد والمعصومين: وهو ما أشرتُ إليه من قبل بعولمة الحس الروحي. فعندما يأتي شخص ما ليقول لك: الله هو كذا وكذا، وإلهي أعظم من إلهك. بهذا الشكل تندلع الحروب. والطريقة الوحيدة لتفادي ذلك هي أن نفهم بأن المسعى الروحي هو مسؤولية شخصية لايمكنك أن تنقلها أو أن تعهد بها إلى الآخرين. من الأفضل أن ترتكب خطأ في اتباع العلامات التي يخبرك ضميرك أنها ترشدك من أن تدع الآخرين يقررون مصيرك. ويجب ألا يفهم هذا على أنه نقد للدين الذي أعتبره جانباً هاماً جداً من الحياة البشرية.

ـ وماذا يعني لك الدين؟

ـ إنني أنظر إلى الدين كمجموعة من الناس وجدت لنفسها أسلوباً جماعياً في العبادة وأقول العبادة وليس الطاعة. فهما أمران مختلفان جداً. يمكن لهذه الجماعة من الناس أن تعبد بوذا أو الله أو الرب أو أبو المسيح لا يهم. المهم هو أننا لحظة ارتباطنا بالغامض نشعر بالمزيد من التوحد والانفتاح على الحياة. كما نتبين بأننا لسنا وحيدين في العالم، وأننا لا نعيش في عزلة. هذا هو الدين بالنسبة لي وليس مجموعة من القواعد والأوامر المفروضة من الآخرين.

ـ لكن إن لم أكن مخطئاً، فقد قبلت عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي عدت إليها بعد فترة من الإلحاد.

ـ إن مناقشة العقيدة أمرٌ قد يطول كثيراً، فأنت تقبل بعقيدة لأنك تريد القبول بها، وليس لأنها مفروضة عليك. عندما كنت صبياً قلت دون أي قدر من الفهم، شأني شأن كل شخص آخر، بأن مريم قد حملت بلا دنس، وبأن المسيح هو الله وأن الله هو الثالوث، وفيما بعد درست الأيمان من اللاهوت. لاهوت الانعتاق بكل نظرياته. إنها أشكال تتغير وترتقي. أنا في الخمسين من عمري والعقائد عمرها قرون. وفقاً لـ «يونغ» فإن العقائد الشديدة السخف في مظهرها تشتمل على الأوضح والأكثر سحراً وإلهاماً بين تجليات التفكير الإنساني، لكونها تقبع وراء التفكير الواعي. والآن وبغض النظر عما تظهر عليه من سخف، فأنا أتقبل العقيدة بحرية ومن داخل قلبي. ليس لأنها مفروضة عليّ، وليس لأنني أشعر بأنني مرغم على ذلك كما في الماضي، بل لأنني أحاول أن أكون متواضعاً أمام السر الإلهي. ففي العمق تمتلك كل الأديان عقائدها والتي هي نماذج للأسرار الأكثر عمقاً. هذا يبدو لي جميلاً، لأنه ما من سبب يجعل ما لا أفهمه عقلياً غير حقيقي. فالسر موجود.

ـ المشكلة هي أن الأديان تحاول فرض عقائدها عبر الخوف من العقاب الأبدي.

ـ عشت هذا في طفولتي. ولهذا تخليت عن الدين وأصبحت ملحداً. كنت مقتنعاً بأن الكاثوليكية هي الأسوأ في العالم. كانت مجرد ملّة أخرى. ولهذا كان يجب عليّ أن أقوم برحلة بهذا الطول قبل أن أعود إليها، وأنا هنا لا لأقول بأن الكاثوليكية هي الأفضل من بقية الأديان، لكنها موجودة في جذوري الثقافية، في دمي. فالأمر بالنسبة لي إذن هو مسألة شخصية واختيار حر. كان بالإمكان أن أختار الإسلام أو البوذية أو لا شيء، لكنني أحسست بأنني محتاج في حياتي لشيء أكثر من الإلحاد، واخترت الكاثوليكية

كطريقة للتواصل مع السري جنباً إلى جنب مع الناس الذين يشاركوني هذا الاعتقاد. وهذا لا علاقة له بالقس الذي يقدم القداس، فالعقيدة شيء أعمق من الطقوس، والبحث في الأسرار هو البحث عن حرية عظيمة.

ـ لكن ألا تجد ذلك إشكالياً؟ فتلك العقائد التي تقبلها كطريقة للارتباط القدسي هي أيضاً صدرت عن مؤسسات أوجدت محاكم التفتيش التي طُبقت ضد من لم يقبلوا بتلك العقائد؟

ـ نعم. ومن كنيسة ما تزال تنكر على المرأة حقها في المشاركة الكاملة في الحياة الكنسية.

ـ مؤسسة لطالما أساءت استخدام السلطة وكبلت بالأغلال العديد من الضمائر الحية.

ـ في أمريكا اللاتينية سببت آلاماً أكثر بكثير، وفي إسبانيا أيضاً أليس كذلك؟

ـ ومع كل ذلك، ألا تجد في الأمر إشكالات...

ـ لا، لأنني أعرف كيف أميز بين جوهر الدين ومواقف التابعين لهذا الدين، الذين قد يكونون صالحين أو أشراراً، والذين يسيئون إلى الدين. إنني أرى الدين كمجموعة من البشر تشكل جسداً حياً يتطور، ويشتمل على كل جوانب البؤس والتسامي.

ـ إذا كنت قد فهمتك على النحو الصحيح فإن ما تثمّنه في الدين هو الغموض وحسُ المشاركة بين المؤمنين.

ـ نعم. أنا مهتم بالناس الذين يؤمنون بذلك السر، وليس بالذين يحتفون به، فقد لا يستحق هؤلاء التبجيل، لأن السر أعمق ممن يحتفون به. في أمثولة السامري الطيب، يُعيب السيد المسيح على اللاوي العبراني سلوكه حين يمر بالرجل المصاب دون أن يتوقف. واللاوي كان نموذج الرجل المتدين في ذلك الوقت. وبالمقابل، فإن المسيح يثني على السامري، الذي يساعد ذلك الرجل المصاب، وكان السامريون أكثر أبناء عصرهم كفراً.

ـ هل تعتقد بأن كل مسعى روحي يتطلب كنيسة معترفاً بها؟

ـ لا. أبداً. على العكس. عليك أن تكون حذراً جداً عندما تنضم إلى كنيسة، لكي لا تدعهم ينتزعون منك ما هو مسؤوليتك الخاصة. ما أعتقده هو أن الدين نفسه، وليس ما تسخِّر الأديان من أجله، ليس متناقضاً مع المسعى الروحي الشخصي للفرد. المهم هو أن تخلق حيّزاً واسعاً خالياً داخل نفسك، أن تتخلص من كل ما هو غير ضروري، وأن تعرف كيف تعيش ما هو جوهري، وبذا تكون دائماً على المسار الصحيح.

أذكر في الفترة الهيبية من حياتي، كانت غرفنا محشوّة بأشياء من كل نوع: ملصقات، تسجيلات، كتب ومجلات. لم تكن توجد أية مساحات فارغة في أي مكان. لقد حررت نفسي من كل ذلك. أنا أحتفظ الآن فقط بقليل من الأشياء الرمزية. حتى كتبي أضعها في مكان مستور، لأنني لا أحب أن أستعرض ما أقرأه أو ما قد قرأته.

إنني مهتم جداً بالقيمة التي توليها للفراغ. هناك قصيدة جميلة للشاعر لاوتسي تقول:

نضع ثلاثين قضيباً داخل إطار ونسميه عجلة.

لكنه في الحيّز حيث لا شيء يوجد

تكمن فائدة العجلة.

ندير الصلصال لنصنع أصيصاً.

وفي الحيّز فقط حيث لا شيء يوجد

تكمن فائدة الأصيص.

نخرق في الجدران أبواباً ونوافذ لنصنع بيتاً.

وفي هذه الفراغات حيث لا شيء يوجد
تكمن فائدة البيت.
لذا، مثلما ننتفع بما هو موجود، علينا
أن نميّز نفع ما لا يوجد.

قصيدة جميلة حقاً. أنا أحاول الآن، حقيقة، أن أبسّط حياتي إلى أقصى درجة ممكنة. أحاول أن أقلصها إلى الأساسيات حتى عندما أسافر آخذ معي الضروريات الكلية فقط، ولذا أشعر بالتخفيف من الأعباء والحرية.

يقول بوذا: «سهلٌ جداً على الضعيف أن يعتزم البساطة وعلى الفقير أن ينبذ الثروة». أنا لم أقطع عهداً على التزام البساطة، لكن من ناحية أخرى، طالما أنني أُكثر من الترحال، فإنني أكتشف شيئاً فشيئاً كم هي الحياة سهلة وكم هو قليل ما نحتاجه لنعيش سعادةً، في الحقيقة إنني آخذ حقيبة يد صغيرة عندما أسافر. وقد تبنيت أن متاع الحد الأدنى هذا يكفي لرحلاتي الطويلة تماماً كما يكفي لرحلاتي القصيرة. لا يستطيع امرؤ أن يشعر أنه ممتلئ بذاته ما لم يكن قادراً على تفريغ ذاته من الداخل، هذا ما تقوله لنا كل المذاهب الباطنية العظيمة في كل الأديان العظيمة.

ـ إنك تؤكد على أن الإنسان يجب أن يتبع مساراً روحياً، مهما يكن هذا المسار لأنه لا يستطيع أن يكون سعيداً تماماً بالأشياء المادية فقط مهما بلغت فائدتها، لكن ألا تعتقد أن الخوف أحياناً هو ما يقود الناس للجوء إلى الروحانيات؟

ـ لا، لماذا؟ في كل حقبة من الزمن كان الناس يفتشون عن المجهول، عمّا هو غير واضح أو مادي ملموس. لقد بحث الناس بآلاف الطرق، مرتكبين الأخطاء أحياناً، بشكل منتظم أو متقطع، لكن أفضل الرجال والنساء كانوا دائماً رحالة بحث عن المجهول.

ـ وبالتحديد لأن مجال ما اكتشفه الإنسان يتزايد باضطراد، فهم يميلون إلى البحث عما تبقى مجهولاً مهما كان ذلك، هل هذا هو الأمر؟

ـ بالضبط، إن ما يحدث هو أننا أحياناً نعيش أسرى زيف اليوتوبيات: اليوتوبيا الماركسية حاولت أن تغير كل شيء عن طريق تغيير بنية المجتمعات والتخلص من الرأسمالية، ولم تنجح في الأمر. الفرويدية هي يوتوبيا أخرى تدعم فكرة شفاء الروح بالعودة إلى الماضي. اليوتوبيا الثالثة هي يوتوبيا المحافظين ومقاومة التجديد، التي تحاول أن تحل كل إشكال بترك الأمور على ما هي عليه، جمود لا يتحرك فيه شيء إلا في الحد الأدنى الذي يحفظ بقاء الأشياء كما هي. والآن فإن كل يوتوبيات القرن العشرين هذه قد فشلت، على الأقل في القسم الأعظم منها.

ـ وما البديل؟

ـ هذا السعي الهائل، السير باتجاه مكان ما غير معروف بعد، بحر هائج محفوف بالمخاطر والأحابيل، بالمشعوذين والأسياد الذين يريدون أن يفرضوا علينا رؤيتهم للأشياء وللعالم.

قلت سابقاً أن الناس أحياناً يتجهون إلى السعي الروحاني مدفوعين بالخوف، ولكن الناس، مدفوعين بالخوف أيضاً، يبقون جالسين على الشاطئ دون محاولة فعل أي شيء. إن الإنسانية على مفترق طرق، في جانب منه يوجد اتجاه المحافظين المألوف بصيغته المتبلورة الواضحة المعالم، بنظمه الشرعية، بوطأته وبمؤسسته الدينية كنظام مشروع للوعظ والإرشاد. وفي الجانب الآخر هناك الغابة المظلمة «المجهول» التجديد والحضارة الحقيقية الخلاقة والبحث عن مسائل قد يكون ما زال لها حلول، وتقبل الحياة باعتبارها مغامرة للروح.

ـ هناك واحد من نقادك يزعم بأنه في هذا القرن والألفية الجديدة لا أحد سيكون بحاجة إلى كتبك إطلاقاً.

ـ لعلمك أن نهاية قرن لا تغير شيئاً بالنسبة لي، إنها مجرد تقليد. وسرعان ما سنتوقف عن الحديث عن الألفية، لأننا جميعاً قد رأينا كيف أن لا شيء قد تغير وأن كل شيء ما يزال كما كان. أولئك الذين ينتقدونني ربما يتوقعون أن شيئا ما خاصاً في طريقه لأن يحدث، بينما أكون واثقاً أن لا شيء من هذا سيحدث. المشاكل التي كانت تواجهنا منتصف تلك الليلة البعيدة مازلنا نواجهها في اليوم الأول من الألفية الجديدة، الكون يتابع مسيرته والناس لم تزل لديهم المخاوف نفسها والآمال والرغبات نفسها ليستمروا في البحث عن شيء ما يطفئ ظمأهم من أجل اللامحدود الذي لم يسبق أن فارقهم طوال كل هذه القرون والذي هو الدافع لهذا البحث عن المجهول.

(عند هذه اللحظة من الحوار، تعبر حوامة السماء فوق الشاطئ وهي تسحب خلفها إعلاناً عملاقاً لمحطة المترو الجديدة في ريو دي جانيرو والذي وصل بعد انتظار خمسة عشر عاماً، إلى مسافة خمسين متراً في النهاية من شاطئ كوباكابانا السحري. يشرح كويلهو كيف طلبوا منه رعاية الإعلان بالسماح لهم باستخدام عبارة له، لكنه رفض لأن ذلك كان سيعني شعبية للسياسيين).

ـ لنرجع إلى موضوع المسعى الروحاني، هل حقاً أنك تنظر إليه باعتباره مغامرة عظيمة؟

ـ إنه المغامرة الأعظم، الشيء الأكثر إثارة لدينا. في عام الـ 1492 في غرناطة ـ المدينة التي أجدها سحرية بامتياز ـ كل معطيات المنطق كانت تدفع بتلك البلدة باتجاه أفريقيا، فغرناطة قد أعيد الاستيلاء عليها، وقد طردوا أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس، لكن رجلاً كان موجوداً عند استسلام آخر عربي قال: «وماذا في أفريقيا؟ لقد عرفناها تماماً، أريد مالاً لأذهب إلى الأنديز» «الأنديز!؟ ماذا تعني يا رجل، المنطق أن نتابع إلى أفريقيا» لهذا لا أحب كثيراً اتباع المنطق. إنني أفضل فلسفة اختلاف المنظور التي غالباً ما تنتصر على المنطق والبرهان، والحقيقة أن ذلك الرجل

كريستوف كولومبوس كان هناك ذلك العام ولم يغادر المدينة حتى العام التالي، كما لم يغادرها في العام السابق. لقد أبحر في العام نفسه الذي أعيد فيه الاستيلاء على غرناطة، في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني من العام نفسه 1492 وصل كولومبوس إلى أمريكا ومعه كل تدفق الطاقة الإسبانية، والمنطقي كان هو أن يواصل باتجاه أفريقيا، لكنه غيَّر مساره باتجاه أمريكا.

- بورك ذلك، فبفضله صار ما صار.

- ربما لا نستطيع نحن أن نعرف ذلك ولكن تاريخ إسبانيا كان لا بد سيكون مختلفاً، فحقيقة الأمر أن رجلاً وليس نظاماً سياسياً أو منطقاً عسكرياً، بل مجرد مغامر واسع التفكير كان قادراً أن يغير مسار كل شيء كان يتوقعه رجال السياسة آنذاك.

هذه هي الأشياء التي تغير العالم، والآن، الأشياء نفسها مازالت تحدث على مختلف الأصعدة، وبالطبع أصبح أكثر صعوبة الآن على شخص واحد أن يغير وجهة العالم. لكن حين تتضافر جهود كل أولئك المغامرين الذين ما زالوا يوقنون بالبحث عن المجهول، ومعهم أولئك الذين يدعون أنفسهم تنجرف مع تلك الطاقة الروحية، دون أن يشعروا بوطأة المنطق الديكارتي الصارم، فسينتهون إلى إيجاد كتلة حاسمة قادرة على تغيير الأشياء. إن مغامرات روحية أكثر مما يعتقد معظم الناس توجد الآن. إنهم يجوبون بحاراً مجهولة وهم الذين، في النهاية، ودون معرفة كيف، سيغيرون فجأة رياح التاريخ.

هل يمكن أن نميز هذه المغامرات الروحية وسط الحشد من الراضين بخبزهم اليومي؟ نعم، لأن عيون هؤلاء المغامرين تشع ببريق الحماس. لقد كتبت كتاباً بعنوان «دليل إلى فارس النور» وهو كتاب عن أناس عاديين ما زالوا يؤمنون بالمجهول. هُمْ معلمون وما هم بمعلمين. والحقيقة هي أننا الآن جميعاً متعلمون ومعلمون مرات عديدة في اليوم الواحد. مثل ذلك الغريب الذي ينبهني

إلى موقف الشرطة من ذلك الرجل المصاب على شاطئ كوباكابانا. لقد كان معلمي لأنه جعلني أعرف أن باستطاعتي أن أفعل لأنني برازيلي. نحن جميعاً معلمون، فرسان للنور. والمغامرون الروحيون الجدد الذين يعرف أحدهم الآخر لأنهم جميعاً يمتلكون النواقص والأوهام نفسها والإحساس بالذنب الذي لدى البشر جميعاً، لكنهم في الوقت نفسه يمتلكون شيئاً آخر وهو هذا البريق في أعينهم. إنهم لا يشعرون بأنفسهم إنهم مختلفون أو مميزون.

ـ إنها جريمة مضادة للانهزامية والوحدة التي يحتاج إليها في الغالب الإنسان المعاصر، الذي يظن أنه لم تعد هناك فسحة لما هو جديد في المغامرات العادية.

ـ نعم، لأنهم يعرفون بأنهم ليسوا وحيدين. أعتقد أن أحد أسباب نجاح كتبي، الأمر الذي يجد العديدون صعوبة في فهمه يكمن في أنها تساعد هؤلاء المغامرين الروحيين في معرفة أنفسهم. إن كتبي مليئة بالعلامات. رغم أنني لا أكتب مباشرة عنها، ربما مرة واحدة في فقرة من الخيميائي، لكن كل شخص يفهم بالضبط ماأتحدث عنه.

ـ وما سبب ذلك؟

ـ لأننا جميعاً وسط التيار ذاته، والكاتب فقط هو الرديف الإضافي في هذه المغامرة. أية مستجدات تحتوي عليها كتبي؟ لاشيء. ما الذي أشارك فيه قرائي؟ إنها حياتي وتجربتي. وهكذا تجد قارئاً من اليابان، وهو يمتلك ثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتي، يخبرني قائلاً: «إنني أعرف هذا، بالطبع ليست المعرفة على مستوى الوعي، لكنني أشعر بأنك تتحدث عني». فيما يخص روايتي: «فيرونيكا تقرر الموت» والتي تلامس مواضع الجنون والانتحار، أعددت عشر نسخ من المخطوطة وأعطيتها لأناس مختلفين ليقرؤوها، ولدهشتي الكبيرة فقد تبينت بأنهم جميعاً وعلى المستوى الفردي مروا بمس من الجنون أو رغبة بالانتحار في أسرهم. تلقيت

رسالة فاكس من إنجلترا تقول: «استلمت كتابك، أحببته، وأظن أن المرة الوحيدة في حياتي التي أحسست بأنني بعيدة فيها عن الله كانت عندما حاولت أن أقتل نفسي، لكنني نجوت». كانت موقعة باسم إميليا. إن إميليا هذه هي امرأة كانت تعمل معي طوال عشرين عاماً، ولم تكن لدي أدنى فكرة إطلاقاً بأنها سبق أن حاولت الانتحار.

ـ وبكلمات أخرى، فإن الكاتب هو محفّز للتجارب عند الآخرين.

ـ أجل، لكنه محفّز وليس عامل تحويل. إن دور المحفز هو بالتأكيد أن لا يختلط مع العناصر بل ليسمح لهذه العناصر أن تتجلى. والناس يكتشفون الأشياء من خلال متابعة مسيرتهم. إذ تجد الشخص الذي يدرس القانون، ويكتشف فيما بعد أن ما يتمتع به هو العمل الزراعي. لقد وصلتني آلاف الرسائل من أناس يودون تغيير مهنهم ليكرسوا أنفسهم للعمل في الحديقة. يقول البعض بأن أسرهم تعتقد بأن من الأفضل لهم هو أن يكونوا مهندسين ولكن ما يهتمون به هو أن يكونوا قادرين على العمل في الحديقة، في الهواء الطلق وعلى احتكاك مع الطبيعة.

ـ كل هذا جميل، لكن ألم يخطر لك إطلاقاً بأن شخصاً ما قد يفشل لكونه يريد اتباع رسالتك؟

ـ أجل. أنا نفسي.

ـ لعل هذه مزحة.

ـ حسناً، لنضع المزاح جانباً. في الحقيقة لا أبث رسائل لأي كان. في كتبي أقص فقط ما الذي حدث لي في حياتي. إنني أقول بأن هذا حدث لي ولا أضيف بأن على القارئ أن يفعل الشيء ذاته. لا. بل إنا أتحدث عن مأساتي وأخطائي وكيف تجاوزتها، ولا أقول بأن هذا هو الحل لكل شخص، لأن كل تجربة حياة مختلفة وشخصية، ففي الحقيقة لو وضعنا كل البشر على كوكبنا في نسق لما وجدنا اثنين متطابقين.

أنا لا أؤمن بالرسائل الجماعية، بل أؤمن بعنصر التحفيز المهيّج، فعلى سبيل المثال أحاول أن أوضح من خلال تجربتي الخاصة بأن الفشل أمر ليس كالهزيمة. فقد يفشل حتى من لم يحاولوا أن يخوضوا معركتهم وقد يهزم أولئك القادرون على الصراع، وهذه الهزيمة ليست عاراً، بل يمكن أن تكون نقطة انطلاق من أجل انتصارات جديدة. وكما تَعِدْ شخصية جوسارو ماكو بشكل دقيق في كتابك «الحب الممكن» ليس هنالك هزيمة حاسمة أو نصر حاسم، لأن هزيمة اليوم قد تكون انتصار الغد.

ـ إنك تعلن نفسك مؤمناً، فما هو الله بالنسبة إليك؟

ـ إنه تجربة في الإيمان، وليس أكثر. لأنني أعتبر تحديد الله مصيدة، فقد سئلت هذا السؤال خلال أحد المؤتمرات فقلت: «لا أعرف. فالله لا يعني الشيء ذاته بالنسبة لي ولك» فضجت القاعة بالتصفيق. إن هذا ما يشعر به الناس، فليس هنالك إله يتفق عليه الجميع لأن المسألة أمر شخصي.

ـ يكرر ليوناردو بوف دائماً بأن الله حالة «شغف عظيم».

ـ بهذا المعنى يكون الله ذاته بالنسبة للجميع، لأننا جميعاً قادرون أن نتفهم ونجلّ حالة الشغف العظيم.

ـ ومن هو الملحد بالنسبة لطريقة تفكيرك هذه؟

ـ إن مسألة الاعتقاد أو عدم الاعتقاد الشكلي بالله لا تغير في الأمر شيئاً بالنسبة لي. فأنا أعرف ملحدين يعيشون حياتهم على نحو أفضل بآلاف المرات من العديد ممن يعتبرون أنفسهم مؤمنين. لأن المؤمن أحياناً ينجرّ إلى تحويل نفسه حكماً على من حوله منطلقاً من الحقيقة البسيطة في كونه مؤمناً، فالملحد بالنسبة لي، هو شخص يستجيب لله عبر الأفعال فقط. وكما قال القديس جيمس الرسول: إن ما يسمح لنا أن نميز أنفسنا كأبناء الله هو أفعالنا

وليس مناصبنا الدينية «أرني أفعالك وأنا أخبرك أي مؤمن أنت»، هذا ما قاله.

ومن جهة أخرى، فإن من يعتبرون أنفسهم مؤمنين ليس عليهم الاعتراف بأن هذا الإيمان هو هش دائماً، فأنا أعتقد اليوم على سبيل المثال أن إيماني راسخ وفي الليلة نفسها قد يتلاشى هذا اليقين، فالإيمان حالة ليست على ثبات دائم.

- إن الكاتب الصقلي ليوناردو شاشا يقول دائماً أنه يؤمن وهو على الرصيف، وما أن يعبر الشارع حتى يتوقف عن هذا الإيمان.

- بالضبط. الفارق الوحيد هو أن المؤمن لديه اعتقاد راسخ بوجود شيء ما وراء الطبيعة، رغم أنه في الغالب لا يشعر بالدرجة نفسها من الإيمان.

- في إحدى حواراتنا هذه قلت بأنك عندما تتصل مع مركز الطاقة فإنك تشعر بالبهجة، ماذا تعني تلك البهجة؟

- ليست هي بالشيء البسيط. لقد بحثت طويلاً في السادية والمازوخية ووجدت أن البهجة أمر بالغ التعقيد، لأنها أحياناً تتأتى من الألم. أنا لا أستخدم الاستعارات عادة، بورخيس يقول بوجود استعارات أربع أما أنا فأستخدم واحدة فقط: «البهجة بالنسبة لي هي حرب فاضلة» وهذا أمر مختلف جداً عن السعادة. فأنا لا أرد السعادة إلى البهجة، فالفكرة التي لدي عن السعادة مضجرة جداً: إنها فترات بعض الظهر من أيام الآحاد التي لا يحدث فيها أي شيء. إن كتابي «دليلك إلى فارس النور» يتحدث عن الصراع والمنازلة، عن الحماس لخوض المعركة من أجل شيء نؤمن به. نربح أحياناً ونخسر أحياناً أخرى. لكن لا يهم، ما يهم هو مواصلة الصراع من أجل تحقيق شيء ما. هذه بالنسبة لي هي بهجة الحياة. لنقل إذن أن البهجة هي كل ما تفعله بحماس في حياتك، وهذا قد يشمل المعاناة

والألم، ولكن ذلك لا يلغي البهجة العميقة لكونك تعلم أنك تصارع من أجل شيء تحبه.

ـ ومع ذلك فإن الناس جميعاً يبحثون عن سعادة دون ألم.

ـ أعتقد بأنها مصيدة. السعادة هي سؤال لا جواب له، كأن تسأل من أكون؟ إنها أسئلة عديمة الجدوى. ومع ذلك فإن البشرية قد قضت آلاف السنين في البحث عن هذه السعادة المتخيلة الجوفاء. السعادة بالنسبة لي مسألة مجردة. دعني أقُلْ لك الحقيقة، أنا لا أشعر إطلاقاً بالسعادة.

ـ ولا حتى عندما تنشر كتاباً جديداً ويحقق إقبالاً في المبيعات كالفطائر الساخنة؟

ـ لا. قد أرتعش، لكنها لحظة توتر وتحدٍ تهزني لأنها ثمرة لمعركة خضتها مع النفس. لكنها ليست السعادة. ستكون سعادة لو أستطيع القول: عظيم، لقد نشرت كتاباً بشكل ناجح. وأنا الآن كاتب مرموق. أستطيع الآن أن أنام قرير العين. لكن الحقيقة ليست كذلك. أنا شخص مقتنع بنجاحي وإخفاقي بمعارفي الظافرة والخاسرة وبهزائمي. لكنني دائماً فرح، فرح مصارع الثيران. في الحقيقة أنا أعشق مصارعة الثيران رغم أنها الشيء الأكثر افتقاراً إلى السياسة في العالم.

ـ أنا لا أحبها.

ـ حسناً. أنا أحبها لأنها لحظة المواجهة مع الحياة والموت. لا مجال للفلسفة هنا، لأن أحد الطرفين الثور أو المصارع سيموت، ولهذا يقول المتحمسون بأن إحدى السمات التي يجب توافرها في الطرفين هي الزهو. عند الثور وعند المصارع بالمثل. إن ثوراً ليس مزهواً بنفسه لا يصلح للحلبة.

ـ لكن في الغالب من يموت هو الثور لا المصارع.

ـ صحيح. لكن المصارع يموت أحياناً. إنه يعرف جيداً بأنه

يجازف بحياته في كل مرة يذهب إلى الحلبة، ولهذا فهو عادة يصلي للعذراء أن تبدأ المعركة. وبالنسبة لي، عندما يصدر لي كتاب يشبه الأمر إلقاء نفسي في الحلبة. وأنا راضٍ رغم معرفتي بالمخاطرة. راضٍ لأنني أقبل التحدي الجديد. وأنا أُصارع للفوز، فقد ذهبت إلى الحلبة مع علمي بأنني قد أهزم. قد يصلبوني لكنني أشعر بالزهو لتحصيلي ما انطلقت في العمل عليه، وهو ولادة كتاب جديد.

والحياة بالنسبة لي صراع ثيران. وعلي مواجهة ثور مسؤوليتي في كل لحظة من لحظات الحياة ولا أعلم إطلاقاً إن كنت سأنجح أم لا. وكل هذا يمنحني الزهو، وليس السعادة.

ـ ما هو البؤس أو عدم السعادة في نظرك إذن؟ ومتى تكون غير سعيد؟

ـ أشعر بالبؤس في لحظات الجبن، عندما أبحث عن مَخرَج بالغ الأريحية. المفارقة هي أنني أشعر بالبؤس عندما أبحث عن أريحية السعادة.

ـ قلت سابقاً أنك تعتبر نفسك شخصاً مولعاً بدفع الأمور إلى أقصاها. في هذه الحالة، لن تحب التآلف الناجم عن سلام متحقق، إذا كان ما تفضله هو بهجة الصراع.

ـ بالضبط. أنا لم أبحث إطلاقاً عن الانسجام في حياتي. بل أعتقد أن الحياة تنتهي لحظة أتوقف عن الصراع وأقول «لقد وصلت». ستكون تلك سعادة لا أحبها ولا أبحث عنها. اسمع يا جان: لقد شعرت بهذه الحالة مرتين أو ثلاثاً في حياتي؛ لنقل، حالة السعادة، أو البطالة في نهاية طريق أو هدف، لكنها حالة لم تدم طويلاً، لأن الإله الطيب سرعان ما دفع بي لأعود إلى الحركة ثانية.

أظن بأن الناس يمكن تقسيمهم إلى فريقين: فريق ينشد السلام الروحي، وفريق آخر هم فرسان النور الذين، كما يقول القديس بول، يحبون مواصلة الصراع دون الاتكاء على أمجادهم. إن فارس النور

كمصارع الثيران الذي لا يستطيع تصور العيش دون أن يكون فوق الحلبة لأطول مدة ممكنة. وحياة الكاتب أيضاً هي نوع من التحدي، لكنه دائماً في الطليعة، معرض للإهانة بقدر ما هو موضع احتفاء وتكريم.

ـ إذا كان عليك أن تشرح لمجموعة من الشباب من هو باولو كويلهو، فكيف تصف نفسك؟

ـ رحالة حج يقطع درباً لا نهاية لها، وكالرحالة الذي يعلم بوجود كنز، ويرى هذا الكنز، مستهدياً بالعلامات كما يفعل الراعي الشاب في «الخيميائي». المهم هو الوصول إلى الكنز بالنسبة له، لكن عندما يصل يتبين أنه لم يعد الرجل الذي كان. لقد تغير. لقد أصبح شخصاً آخر. إنه المسار والبحث الذي يعيد صياغتك ويغيرك. وأنا أواصل البحث.

2

مستشفى الأمراض العقلية
السجن والتعذيب

«إن أسوأ ما اكتشفته في المصح هو أنني كنت أستطيع أن أختار الجنون وأحيا حياة هادئة دون عمل».

«السجن كان التجربة الأولى للكراهية والقسوة والعقم التام. لقد كان أسوأ بآلاف المرات من مستشفى الأمراض العقلية».

لم تكن مرحلة الشباب من عمر كاتب المستقبل سهلة، كانت غنية بالتجارب المختلفة، وبعضها كان بالغ القسوة، كإدخاله إلى مستشفى الأمراض العقلية ومعاناة السجن فيما بعد، حيث عُذب على يد جماعة من العسكريين خلال فترة الحكم الديكتاتوري في البرازيل.

كان دائماً الصبي والشاب المتمرد، القائد دوماً للتجربة والولد البار لحركة الشباب في الـ «68»، فترة الانفتاح والجنون. كان في حالة بحث متواصل عن شيء يمتلئ به من الداخل، دون أن يسمح لنفسه أن ينقاد إلى الأعراف الأسرية أو الاجتماعية. كان دائماً المعتد بنفسه غير المهادن رغم كونه قادراً على الاعتراف بأخطائه عندما يرتكبها، والقادر أيضاً على التراجع عن مغالاته. وكما يعترف في هذه الحوارات فلم يسبق له أن شعر بالكراهية أو الضغينة تجاه أهله الذين أودعوه المصح العقلي ثلاث مرات متتالية وهو لم يزل طفلاً صغيراً عملياً، إذ كانوا مقتنعين بأنهم يفعلون ذلك لمصلحته.

س ـ كيف كانت طفولتك؟ هل لك أخوة أو أخوات؟

ج ـ لي أخت واحدة تعمل مهندسة كيميائية. كنت الأكبر والأكثر تمرداً بين أخوتي. وبدأت أفهم حقيقة الحياة التي مفادها أنك مهما فعلت، إذا كنت الأخ الأكبر فستكون الملام دائماً لكل ما يحدث حولك. أنت الضحية دائماً. لقد ضايقني ذلك كثيراً في البداية، إذ كانت هنالك

بالطبع، أخطاء ليست من صنعي. وذات مرة قلت لنفسي: حسناً، إذا كانت هذه هي الحال، فسأقوم بكل شيء أود القيام به. هكذا كان تمردي على الظلم.

- ما هي أول ذكريات طفولتك؟

- كانت طفولة غريبة، أحتفظ بالقليل من الذكريات الواضحة. عشنا في بوتافوكو. نموذج المنطقة المجاورة لريو دي جانيرو، هنا، حيث عشت طوال حياتي. سأخبرك بشيء لن تصدقه وأنا نفسي لم أكن قادراً إطلاقا على فهمه. حتى أنني سألت بعض الأطباء عنه إذا كان ممكناً وإن كان قد حدث لأطفال آخرين. إنني أتذكر بوضوح ملامح جدتي منذ لحظة ولادتي. اذكر أنها كانت موجودة، أذكر أنني فتحت عيني وقلت لنفسي «تلك هي جدتي» وكان هذا وأنا طفل حديث الولادة.

- وأي ذكريات لديك عن والدك؟

- أبي كان مهندساً من عائلة تقليدية جداً. وأمي درست المتاحف في الجامعة. أبي لم يزل على قيد الحياة، وهو ذو شخصية مهيمنة مما أثر كثيراً على أمي.

- هل كنت تذهب إلى القداس؟ أكانت عائلتك كاثوليكية؟

- أجل. أذكر أنهم كانوا يأخذونني إلى الكنيسة كل أحد، لكن في السنوات الأخيرة في المدرسة مع الجزويت، كان علينا أن نذهب إلى الكنيسة أيام الجُمَع أيضاً. كانت تربيتي رسمية جداً تقوم على الشكليات. لا أعرف كيف يُنظر إلى الجزويت الآن، لكن في تلك الأيام كانت مدارس الجزويت محافظة جداً وصارمة. أمي كانت لديها أزمة دينية، كانت على صلة مع اتجاه لاهوتي أكثر انفتاحاً وأقل تقليدية. ليس اتجاهاً متحرراً تماماً، لكنه قريب جداً من ذلك مما أتاح لها أن تكون أكثر تفتحاً، وبالتالي بدأت عندها التساؤلات حول إيمانها. كانت قد التقت بعض المتدينين المنفتحي الذهن،

وبعض علماء الآثار ومن ثم بدأت تنظر إلى المسائل الدينية من زاوية مختلفة أقر صرامة وأقل تقليدية. كان هذا في فترة لم أكن فيها مقرباً من أسرتي.

- الجزويت أكثر تقدماً حالياً، وخاصة في العالم الثالث.

- لم يكونوا هكذا في ذلك الوقت. كانوا جيش المسيح. لقد كونوا عندي أرضية صلبة لقضية المبادئ، لكنهم أيضاً خلقوا عندي رعباً من الدين الذي انتهيت الآن إلى استبعاده عن نفسي. وبسبب ذلك، ورداً على التربية الصارمة المنغلقة، فقد تركت المدرسة بأسرع ما استطعت لان أدائي المدرسي كان سيئاً. وبدأت البحث في أكثر الحركات الطلابية تقدماً، وكانت من الملحدين. ثم بدأت أنسجم مع كتابات ماركس وإنجلز وهيغل وما إلى ذلك.

- وكنت عملياً عدت إلى الكاثوليكية.

- عندما استعدت اهتمامي بالمسعى الروحي، كنت آنئذٍ مقتنعاً أن آخر مكان سوف أمضي للنظر فيه هو الكنيسة الكاثوليكية لأنني كنت أحمل في نفسي رعباً منها. لقد مللتها وكنت مقتنعاً بشكل كامل بأنها ليست الطريق إلى ما أريد، وبأن الإله الذي يدعون إليه هو إله من الاتجاه اليميني، إله لا جانب أنثوي فيه. إله قاسٍ عديم الرحمة وبلا حنو أو أسرار. وفي الوقت نفسه بدأت أجرب كل الأديان والطوائف الأخرى وبخاصة الديانات الشرقية جربتها جميعاً من كريشنا إلى البوذية. ثم بدأت أذهب إلى القداس بانتظام ثانية بعد أن قمت برحلة حج إلى القديس سانتياغو.

- كنت قلقاً.

- تماماً. وبعد ذلك عدت إلى الإلحاد، بعد تجربة رهيبة مع السحر الأسود. سأخبرك عن ذلك فيما بعد.

- ماذا درست في الجامعة؟

- درست الحقوق. لكن فقط لأنني كنت مرغماً على ذلك، ولم

أكمل. أبقيت تمردي تحت السيطرة بشكل تام، حتى الانتهاء من المدرسة الثانوية والتقدم لامتحان القبول في الجامعة. كنت مقموعاً من قبل أهلي والمجتمع والجو العام، لكن ما أن خرج قطاري عن السكة حتى تفجر الوضع بشكل كامل. حدث هذا عندما بدأت دراستي الجامعية، لكن قبل ذلك وصلت إلى حد لم أستطع معه التقدم إطلاقاً بدراستي، فقد بقيت ثلاث سنوات في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية ولم أتجاوزها. وما استطعت التخرج من الثانوية إلا بعد أن دفعت أسرتي أخيراً لاجتياز الامتحان، واجتزته بهذه الطريقة.

- ماذا كان رد فعل أسرتك عندما ثرت بهذا الشكل؟

- عندما خرجت عن إرادتهم للمرة الأولى أدخلني أهلي إلى مستشفى الأمراض العقلية كرجل مجنون.

- كيف كان يمكن لرجل عاقل أن يودع مستشفى الأمراض العقلية؟

- كان ممكناً. على العموم أهلي دبروا الأمر. لقد أودعوني المصح ثلاث مرات لأنني كنت أهرب في كل مرة. وطالما أن ذلك المصح لم يزل موجوداً، فقد حاولت مؤخراً أن أتبين المبررات التي استخدموها لاستبقائي محتجزاً مع المجانين. وقد أدهشتني الغرامة التي يدفعها المرء على حوافز لديه. ورد في التقرير إن أدائي في الدراسة يزداد سوءاً، وتظن أمي بأن لدي مشاكل جنسية، وإن نضجي لا يواكب عمري. وعندما كنت أريد شيئاً كنت أحاول الحصول عليه بأية وسيلة ممكنة، والذي يوضح بشكل متزايد وجود مواقف راديكالية حدّية لدي.

- ما الذي أحسست به في داخلك؟

- دعني أقل لك إنني كنت في السابعة عشرة من عمري. والشيء الوحيد الذي كنت أريده هو أن أكتب. وكنت قد باشرت العمل كمراسل لجريدة وقد أنهيت لتوي قراءة الأعمال الكاملة لأوسكار

وايلد. كنت مثالياً في الصميم، وفكرت في أعماقي أن من يريد أن يكون كاتباً فإن الشيء الوحيد الصحيح الذي يترتب عليه هو أن يمر بكافة التجارب بما في ذلك المصح العقلي الذي كان قدر العديد من الكتاب والفنانين بدءاً بفان غوغ. لقد اعتبرت ذلك جزءاً من أسطورتي الشخصية وجزءاً من توقي للمغامرة. لقد كتبت شعراً في المصح، لكنني انتهيت إلى الهرب لأنني كنت مدركاً تماماً بأنني لست مجنوناً. فما أردته هو أن أعيش كل تجربة حتى ذروتها، وأن أفعل كل ما أحب. يعتقد البعض أنني أودعت بسبب المخدرات. وهذا لم يكن صحيحاً إطلاقاً. فأنا لم أكن قد جربت المخدرات آنذاك. إن تجربتي مع المخدرات بدأت بعد ذلك بكثير، عندما كنت في العشرين تقريباً.

ـ وماذا تعلمت من كونك وسط المجانين دون أن تكون مجنوناً؟

ـ أود أن أكون صادقاً معك. إنني أعتقد أن الخطر الكبير ليس في الجنون ذاته، بل اعتياد الجنون. إن ما اكتشفته خلال الوقت الذي قضيته في المصح هو أنه كان باستطاعتي أن أختار الجنون، وأقضي كل حياتي دون عمل، أن لا أقوم بأي جهد مدعياً أنني مجنون. كانت تلك رغبة شديدة الإغراء. إن قسماً كبيراً من تجربتي في ذلك المكان يمكن أن تجدها في روايتي «فيرونيكا تقرر الموت».

إن تجربة المصح العقلي كشفت بوضوح عما يلي: في اليوم الثالث كنت أقول: حسناً ها أنذا أعتاد على هذا. إنه ليس أمر بالغ السوء، بل حتى أنني مرتاح وفي مأمن من ويلات العالم الخارجي، كان المصح بمثابة رحم الأمومة الذي يمنحك الطمأنينة.

ـ وكيف تعايشت مع نزلاء المصح؟

ـ المجانين؟ لقد بدا لي الجميع طبيعيين. لديهم لحظات من الحنق الشديد، مثلما نفعل أنا وأنت في حياتنا الاعتيادية. كان هنالك في الحقيقة قلة من المصابين بانفصام الشخصية ممن فقدوا

التواصل مع الواقع، لكنهم لم يزيدوا عن ثلاث أو أربع. كنت أتحدث إلى الآخرين، وناقشنا الفلسفة، والكتب وكل شيء. كان لدينا تلفاز، وكان بوسعنا الاستماع إلى الموسيقى. تمتعنا بالكثير من اللهو.

ـ وماذا عن الصدمات الكهربائية؟

ـ هذه حالة كريهة، لكنك لا تحس بها طويلاً. كانت موجعة، مرعبة عندما يضعونها على أعضائك التناسلية أثناء التعذيب من قِبل رجال الأمن العسكري، وخاصة عندما احتجزت بعد ذلك بسنوات. كان الأمر مؤلماً، مذلاً ومخزياً. كانت شيئاً مريعاً.

ـ في المرة الأولى التي أودعت فيها المصح، أخرجوك نظراً لحسن سلوكك. لكن في المرة الثانية، وفقاً للتقارير الطبية فقد هربت من المصح. كيف دبرت أمر هروبك؟

ـ كنت محتجزاً في الطابق التاسع، ولم أكن أستطيع الخروج. لقد اعتبروني مجنوناً خطراً. في حين كان يسمح لبعض النزلاء بالخروج. عرضوني للكثير من العلاجات والصدمات الكهربائية، وأُقفل علي في ذلك المكان لمدة شهرين تقريباً دون رؤية الشمس، وهذا كان يدفعني للجنون حقاً. كان يوجد مصعد ومرافق يأخذني في الصعود والنزول. وذات يوم دخلت المصعد معه ومع أناس آخرين. نزلنا وخرجنا من المصعد، وبشكل لا يصدق، وجدت نفسي أجلس بمحاذاة الباب، حراً. بدت كأنها قصة من قصص كافكا.

ـ إنه أمر بالغ الرمزية، فقد كنت سجيناً وأنت في الواقع لست كذلك.

ـ إنها رمزية مرعبة. هناك قصة لكافكا تحكي عن شخص يأتي إلى باب قلعة ويسأل «هل لي أن أدخل؟» لكن الحارس لم يجب بشيء. وفي أواخر حياته يعود الرجل إلى الحارس ليسأل لماذا لم تسمح لي بالدخول، فيجيب الحارس وكان قد أصبح عجوزاً هو الآخر «أنا لم أقل لك لا تدخل. أنت سألتني وأنا لم أكن أستطيع

الكلام، فلماذا لم تدخل؟» إن الشيء ذاته حدث لي في المصح. نزلت في المصعد على وضعي، دون تخطيط وبلباس نومي، وبالطبع لم أرجع لآخذ معي أي شيء. لم يكن لدي نقود، لا شيء. ذهبت مشياً إلى بيت صديق لي، الذي قدم لي غيتاراً وقليلاً من النقود، وعندما غادرت المنزل قلت لنفسي «والآن ماذا ستفعل؟» وانطلقت أنتقل وأعمل.

ـ ألم تتصل بأسرتك؟

ـ لم أتصل بأسرتي طوال شهرين، حتى أصبحت في هيئة مزرية ولم يكن لدي نقود تكفي ثمناً لطعامي. عندها اتصلت، وبالطبع طلبوا مني أن آتي إلى المنزل بأسرع ما أستطيع. لم يكن هناك مشكلة فلم يكن في نيتهم أن يعزلوني ثانية. أرسلوا لي نقوداً لأنني كنت في مكان بعيد، وانتهى بي الأمر إلى العودة. ومر عام على هذا الحال ليقولوا ثانية «باولو مجنون فهو يريد الآن أن يعمل في المسرح» لأن شغفي الجديد، بالإضافة إلى كوني كاتباً، كان أن أعمل للمسرح. وأودعوني المصح للمرة الثالثة، وهربت مرة أخرى. لكن في هذه المرة كانوا قد أوصوا مرافق المصعد ألا يدعني أهرب، فهربت في هذه المرة مستغلاً مراجعة طبيب الأسنان. لأن الطبيب المسؤول عن حالتي توصل إلى استنتاج رائع بأن ضرس العقل عندي بدأ بالظهور وهو الذي يجعلني صعب المراس على هذا النحو، إذ يسبب لي ألماً حاداً، وبرأيه أنني لم أكن أفهم أن الألم الذي يسببه ضرسي هو ما يجعلني عدوانياً مع الجميع. وفي طريق العودة من عيادة الطبيب هربت.

ومرة أخرى خرجت متنقلاً، وعدت إلى أسرتي لأنني كنت محطماً تماماً. وعندما وصلت قلت «الآن أنا مجنون حقاً» لأنني كنت مقتنعاً آنذاك أنني لم أكن سوياً وبأنني لا أرغب في الفرار ثانية. ومضى علي أسبوعان وأنا في حالة ذهول لا يصدر عني أية ردة فعل.

ـ لا شك أن ذلك لم يكن سهلاً على أسرتك أيضاً.

ـ الحقيقة أن هذا لم يخطر لي آنذاك، فكل ما كنت أفكر فيه هو نفسي. فهمت ذلك فقط أخيراً. لكن المفارقة التي حدثت لي غيرت حياتي بشكل جوهري. ففي أحد الأيام، أذكر أنني كنت في غرفتي ولدي مقعدي وسريري، ملابسي وكل الأشياء التي أحبها. أغلقت الباب وقلت لنفسي «لا أستطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو» لأنني كنت قد فقدت عملي في الجريدة، كما فقدت أصدقائي، وكان علي أن أتخلى عن المسرح. وهكذا فكرت أن أهلي ربما يكونون على حق إذ ربما كنت مجنوناً. ولأول مرة بدأت أتصرف بحماقة حقيقية. أغلقت باب غرفة نومي وبدأت أدمر الغرفة برمتها، كتبي التي أحببتها جداً، مجموعتي من شرلوك هولمز وهنري ميلر، وأشرطة التسجيل وكل بقية من بقايا ماضيَّ. مزقت كل شيء نتفاً. سمعني أهلي وأنا أدمر كل شيء وما كنت لأتوقف. فأسرعوا لاستدعاء الطبيب الذي عالجني في المصح، لكنه لم يكن موجوداً. استدعوا طبيباً آخر، والذي أذكره جيداً، إذ كان رجل بلا أنف، أنه شخصية غريبة الأطوار، طبيب نفسي يدعى فجاردو. عندما وصل فتح الباب وواجه كل ذلك الدمار. ظننت أنهم سينقلونني مباشرة إلى المصح ثانية، ولكن لدهشتي العظيمة سمعته يسألني بهدوء وهو يبتسم «ما الذي يحدث هنا؟» وأجبت «ألا ترى؟ لقد دمرت كل شيء». ورد الطبيب دون رفة جفن «حسناً فعلت. الآن وقد مزقت كل شيء نتفاً عليك أن تبدأ حياة جديدة. لقد فعلت بالضبط ما تحتاج إلى فعله لا أكثر ولا أقل. لقد دمرت ماضياً سلبياً لتشيد على أنقاضه مستقبلاً إيجابياً». «ما الذي تقوله؟» صحت دون أن أصحو من الصدمة وأنا أسمع طبيباً نفسياً يخبرني بأنني أحسنت صنعاً بتدميري غرفتي برمتها وكل الأشياء العزيزة عندي. وعاد الطبيب يخبرني مجدداً «لقد فعلت الشيء الوحيد الذي كنت بحاجة إلى أن تفعله. تخلص من كوابيس الماضي، الآن يمكنك بدء حياة جديدة».

ـ وكيف كانت ردة فعل والديك؟

ـ كانوا متفهمين جداً ووافقوا على ما قاله الطبيب النفسي

الغريب. قالوا لي: «الآن أنت على ما يرام، وسوف تبدأ بداية جديدة، انتهى الأمر. دعنا نجمع كل ما حطمته ونلقي به بعيداً». إن ذلك الطبيب قد أنقذني يا جان، لأنني كنت قد وصلت إلى حافة الجنون الحقيقي والأسوأ أنني قبلت الأمر وأسلمت نفسي له.

ـ هل بقيت على اتصال مع ذلك الطبيب النفسي؟

ـ في ذلك اليوم، وبينما كان يغادر، قال لي: «سأشرف أنا الآن على وضعك». وذهبت لرؤيته خمس عشرة أو عشرين مرة إلى أن قال لي في أحد الأيام: «الآن عليك أن تقف على قدميك دون مساعدة، فأنت قد تعافيت عملياً. إنك مندفع بعض الشيء لكننا جميعاً كذلك». قال ذلك حين لاحظ اندفاع تمردي بشدة. قلت لنفسي: لا يهم إن كنت مندفعاً قليلاً، لأننا جميعاً نحتاج أن نواجه حماقاتنا. إن ما علي أن أفعله الآن هو أن أعيش التجارب حتى نهاياتها، وأن أفعل كل ما يمتعني دون أن أحرم نفسي من شيء.

لقد فقدت كل شيء: الجريدة، الأصدقاء، المسرح وحتى صديقتي التي كانت في ريعان الشباب وتركتني عندما أودعوني المصح، إذ لم يسمح لها بالدخول ولم يسمح لي بالخروج.

ـ هل شعرت بالكراهية أو المرارة تجاه والديك لإيداعهم لك في المصح العقلي دون أن تكون مجنوناً؟

ـ لا، إطلاقاً. هم كانوا مقتنعين بأنني أكرههم، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. لقد فعلوا ما فعلوه من منطق الحب، الحب الخاطئ، الحب اليائس الطاغي. لكن كل ما تم قولاً وفعلاً كان من منطلق حبهم لي. فهم لم يضعوني في المصح لأنهم يكرهونني، بل لأنهم أرادوا مساعدتي في بناء حياتي. إن مقياساً يائساً أحمق أثر بهم أكثر مما أثر بي. لكن في الوقت نفسه سمحت لي التجربة أن أتحقق من ذلك الصراع الطيب وأن أواجه نفسي.

ـ كيف كانت ردة فعلك عندما اكتشفت، من فترة ليست بعيدة، الأسباب الحقيقية عند والديك لإيداعك في المصح؟

ـ المرة الوحيدة التي انتابتني فيها لحظة ومرارة كانت في الحقيقة منذ أسابيع قليلة مضت، عندما قرأت التقرير الذي كتبوه في المصح عن أسباب دخولي. لقد شعرت بالحنق الشديد لأن الأمر كله كان بالغ السخف، ولم أتمكن حتى من تصديقه. لكن الذي تحمل وطأة ذلك الحنق كان الناشر الانكليزي لكتبي الذي أفرغت كل غضبي في وجهه دون أن يفهم شيئاً. كنت أردد «كيف يمكن للمرء تحمل الإقامة في هذا الجحر الذي تسمونه فندقاً!» كما اتصلت محتجاً، لأنهم عندما ذهبت إلى دبلن لتوقيع كتب أدخلوني في برنامج تلفزيوني لم أحبه. أجابني الشخص الذي على الطرف الآخر من الخط قائلاً: «لم أنت على هذه الحال؟» بعدها ذهبت إلى حديقة قرب الفندق لأستعيد هدوئي. كانت تلك المرة الأولى التي يصدر عني فيها ردة فعل غاضبة بشأن حادثة المصح. لكنني بصدق لا أحمل أية مرارة تجاه والدي بخصوص ذلك، لقد وعدت بأن لا أتحدث عن تلك التجربة المؤلمة طالما هما على قيد الحياة، وأنا الآن افعل ذلك لأن أمي لم تعد على قيد الحياة وأبي أصبح طاعناً في السن. لكنه لم يزل محتفظا بصفائه ووعيه الكامل وقد اتبع تعاليم روايتي «فيرونيكا تقرر الموت». أعتقد أن حديثي عن قصتي مع المصح سيشكل ارتياحاً له. حتى أنه كان أكثر ارتياحاً عندما تبين عن طريق الرسائل العديدة التي تلقيتها بأنه لم يكن الشخص الوحيد الذي فعل شيئاً كهذا، إذ أن الأمر نفسه حصل في أسرٍ عديدة.

ـ هل سبق لأهلك أن حاولوا تقديم مبرراتهم لك؟

ـ لا، لم يحاولوا تقديم المبررات، لكنهم طلبوا مني أن أسامحهم. قالوا «سامحنا، كانت تلك أعظم خطيئة في حياتنا». لكنهم لم يخبروني إطلاقاً لم فعلوا ذلك. إلا أن أشياء كهذه لها أثرها

على الجميع. كما يقول أورتيكا ي غازيت «إنني حصيلة نفسي وظروفي» لقد عانينا جميعاً، لا شك في ذلك.

ـ هل كان ذلك عندما بدأت المرحلة الهيبية؟

ـ أجل. الحركة الهيبية كانت عائلتي الجديدة، وعشيرتي الجديدة. حاولت العودة إلى الجامعة ولكنها لم تعد المجال الذي يناسبني، وتلك كانت المرحلة التي دخلت فيها عالم الجنس والمخدرات. بدأت أفكر بأنني قد أكون شاذاً جنسياً لأن أمي ظنت بأن لدي مشاكل جنسية. وفكرت عند ذاك أني كي أتجاوز شكوكي عليّ أن أجرب الأمر. وهذا ما فعلته. ولم أحب تلك التجربة إطلاقاً في المرة الأولى، ربما لأنني كنت شديد القلق. ومر عام وما أزال أعاني من شكوكي فكررت التجربة. ولم أكن قلقاً هذه المرة مع ذلك لم أحبها فقلت لنفسي: «الثالثة ثابتة». سأحاول مرة وأخرى وأخيرة فإن لم أجد نفسي مشدوداً للأمر يمكن عند ذلك أن أكون مثلياً، لكن تلك المحاولة لم تحسم الأمر أيضاً. كنت عندها في الثالثة والعشرين من عمري. وعاودتني الشكوك حين كنت أعمل في المسرح حيث يوجد الكثير من المثليين في ذلك الإطار. ربما كنت واحداً منهم دون معرفتي بذلك. وهكذا مع الوقت تجاوزت شكوكي في نهاية الأمر.

ـ بعد تحررك من تلك المنغصات. بدأت العمل والترحال ثانية وكنت في ريعان الشباب. كيف تذكر تلك المرحلة؟

ـ نعم. بدأت بإعطاء دروس لاجتياز امتحان الدخول إلى المسرح. وجمعت نقودا تكفيني لأعيش طوال العام. كما عملت في مسرح الأطفال أيضاً. كان ذلك عملاً إضافياً. ثلاثة أشهر من العمل، وتسعة أشهر بعدها بلا عمل مكرسة للترحال. والذي كانت تكلفته رخيصة آنذاك. أذكر أنني عبرت الولايات المتحدة وأنا لا أتكلم الإنجليزية، ووصلت حتى المكسيك بمبلغ لا يتجاوز المئتي دولار. كانت تلك حماقة ولكن في الولايات المتحدة كان بوسعك أن تسافر طوال شهر ونصف ببطاقة سفر ثمنها تسعة وتسعون دولاراً. لم أكن

لمساعدتي في شراء الشقة، وأعارني ثلاثين ألف دولار أخرى والتي سرعان مارددتها له طالما أنني بقيت أكسب الكثير من النقود. وبحلول العام 1978 كنت أمتلك خمس وحدات سكنية. كنت في الثلاثين من عمري. ثمة أناس يشكلون مفاتيح لك، وكالعلامات، يظهرون أحياناً في حياتك ويغيرونها لصالحك، تماماً كما حدث لي مع فجاردو، الطبيب النفسي، وفيما بعد مع شخص آخر عند خروجي من السجن. من الغريب أنها ليست مؤسسات عادة بل أشخاص هم من يرسمون اتجاه حياتك للأفضل أو للأسوأ.

ـ لقد سجنت أيضاً لأسباب سياسية، احتجزت وعذبت، أليس كذلك؟

ـ ثلاث مرات. كل شيء يحدث لي ثلاث مرات. في رواية الخيميائي هناك قول مأثور: «أن ما يحدث مرة واحدة لا يمكن أن يتكرر. لكن كل ما يحدث مرتين فلا بد له من ثالثة». مرات عديدة أرى الأمور بهذه الطريقة، إنها رموز، إشارات خبرتها في حياتي. في الواقع احتجزت ست مرات، ثلاث في المصح العقلي، وثلاث في السجن.

ـ أيها كان الأسوأ؟

ـ السجن كان أسوأ بألف مرة. كان أسوأ تجربة في حياتي. لأنه علاوة على ما حصل لي داخل السجن، فقد كنت منبوذاً عندما خرجت. كان الجميع يقولون: «لا تقتربوا منه، لقد كان سجيناً. لا بد من سبب لذلك».

السجن هو تجسيد للكراهية والقسوة والقوة الغاشمة والعقم التام. أول مرة أخذوني بها كنت مع عصبة من الصبيان في بارانا وحدثت سرقة مصرف. ولأن شعري كان طويلاً ولا أحمل بطاقتي الشخصية فقد قيدت ونقلت مباشرة إلى الحجز. استبقوني هناك لمدة أسبوع. ولم يفعلوا بي شيئاً هذه المرة.

ـ وفي المرات الأخرى؟

ـ تلك كانت أكثر خطورة وأقل توقعاً لأنني كنت أعمل مع راؤول أثناء ذلك. كنت معروفاً جيداً بسبب أغانيّ وكنت أكسب الكثير من النقود. وكنت أيضاً قد أقحمت نفسي في السحر. كنت أشعر تقريباً بقدرة مطلقة، لكن مع ذلك انتهى بي الأمر إلى السجن ثانية.

ـ ولم اعتقلوك؟

ـ إنني أذكر الأمر كما لو أنه البارحة. شعرت بأن سذاجتي لا حدود لها. لأنني وقد وصلت إلى ما وصلت إليه بدأت أؤمن بفكرة المجتمع البديل، وتكون لدينا أنا وراؤول نوع من اليوتوبيا. ذهبنا إلى برازيليا لنقدم حفلة موسيقية وقلت في بداية الحفلة بضع كلمات عن أفكارنا حول المجتمع وطموحاتنا لتغيير الأشياء. بدا لي ما قلته بريئاً تماماً. لقد كنا مجرد شابين مثاليين. لكن في اليوم التالي تلقى راؤول قصاصة ورقية تقول أن عليه أن يحضر إلى الشرطة. ذهب راؤول وذهبت معه وجلست في قاعة الانتظار. خرج راؤول وهو يردد أغنية لا أستطيع تذكرها الآن لكنها كانت قصيدة غنائية مختلفة وبالإنجليزية. ذهب ليجري مكالمة هاتفية.

وقال لي: «مشكلتهم معك وليس معي». وفهمت إثر ذلك ما كان يرمي إليه من الأغنية. وعندما هممت بالخروج قالوا لي: «أين تظن نفسك ذاهباً؟» قلت: «لأحضر القهوة!»، أجابوني «لا. لا. اطلب من صديقك أن يحضر لك القهوة». ولم يُسمح لي بالخروج من هناك. هذه المرة لم تكن خطيرة أيضاً، كما أنني كونت فكرة رومانسية عن المعتقل فقد فكرت بأن وجودي في السجن لأسباب سياسية كان جزءاً من المغامرة التي نقوم بها.

ـ هل ساعدك أهلك في الخروج هذه المرة؟

ـ أجل. أحضروا لي محامياً طلب مني أن أهدأ وطمأنني أنه على الرغم من كوني في المعتقل، فإن الأشياء المرعبة التي سمعتها عن تعذيب الديكتاتورية للمعتقلين لن تحدث لي. كنا نقترب من أسوأ

مرحلة من الحكومة العسكرية، وكان الجنرال جيزيل قد قرر أن يبدأ مرحلة تحرر. كان الاتجاه المتشدد. اليمين المتطرف، الذي يمتلك آلة حربية ضخمة ومجهزة. وقد استخدموها للإجهاز على مقاتلي حرب العصابات، وكان عليهم أن يقدموا مبرراً لوجودهم. وكانوا يعرفون بأني واحد من مجانين المجتمع البديل، ممن لا شأن لهم برجال العصابات. لكن لم يكن لديهم أي معتقلين سياسيين تقريباً طالما أنهم قد قتلوهم جميعاً تقريباً، وعليهم الآن البحث عن أعداء جدد لتبرير ممارساتهم.

وبعد أن جاء المحامي، سمحوا لي بالمغادرة بعد أن وقعت على وثيقة تنص على أن الحكومة ليست مسؤولة عن أي شيء مما حدث، أو عن التفاهات الأخرى المشابهة.

ـ وبعد ذلك حدث الأسوأ.

ـ نعم، فحالما خرجت احتجزتني مجموعة من الأمن العسكري مع زوجتي. كنا في سيارة أجرة. أريتهم الورقة التي وقعتها في السجن فقالوا: «إذن صحيح، أنت من رجال العصابات، طالما أنك لم تعد للبيت». وأضافوا بأنني قد انتقلت إلى العمل السري «تحت الأرض» مع رفاق لي من رجال العصابات.

نُقلت إلى مكان مجهول. وكانت تلك أسوأ أيام حياتي. هذه المرة لم يستطع أهلي مساعدتي، حيث لم يكونوا يعرفون مكان اعتقالي.

ـ وإلى أين أخذوك؟

ـ لا أعرف. لقد تكلمت في الموضوع مع البعض بعد خروجي ونظن ـ لأن لا أحد يعرف طالما أن أول شيء يقومون به هو أن يضعوا غطاء على رأسك بحيث لا تستطيع أن ترى شيئاً ـ بأنني كنت في شارع باراو دي مزكيتا، حيث هناك ثكنات عسكرية ذائعة الصيت باعتبارها مراكز للتعذيب. لكن هذا مجرد تخمين. كنت

معصوب العينين بشكل دائم أو وحيداً تماماً. ولم يتواجد معي أحد إطلاقاً عندما تتاح لي الرؤية. في هذه الحالة الدولة ليست مسؤولة أيضاً لأنني لم أكن في السجن، بل مع الأمن العسكري. والخوف الأعظم كان في احتمال نقلي إلى سان باولو حيث تجري أسوأ أشكال القمع. لقد تحدثت عن ذلك مع فراي بيتو. لأن تلك اللحظات كانت رعباً بالنسبة لي. وأجابني بأن هنالك دائماً خوفاً شديداً في اليوم الأول. وهذا ما حدث لي.

ـ هل احتجزت وزوجتك لمدة طويلة؟

ـ أنا احتجزت لمدة أسبوع. لكن لا يمكنك قياس هذا النوع من الاعتقال بالأيام فهي تبدو أعواماً، لأنك مفقود تماماً عاجز، لا تعرف أين أنت، وليس لديك أي شخص تتحدث إليه. الشخص الوحيد الذي أتيح لي رؤية وجهه كان المصور. إذ كان عليه أن ينزع القناع عن رأسي ليأخذ الصورة. ثم التعذيب...

(لم يشأ باولو كويلهو أن يمضي في التفاصيل عن ذلك الأسبوع من التعذيب لأن الحديث عن ذلك بالنسبة له هو إعادة إحياء لواحدة من أكثر تجارب حياته ألماً وإذلالاً. لكنهم عذبوه دائماً والقناع على رأسه. وبعد سنوات من ذلك كان لديه إحساس بأنه قد ميّز بوضوح صوت أحد معذبيه... وبأن هذا الرجل أيضاً قد عرف ضحيته).

ـ وما الذي كانوا يريدونه منك؟

ـ يريدون مني أن أتكلم. أن أخبرهم عن نشاط رجال العصابات في باهيا. ولم أكن أعرف شيئاً. وليست لدي أدنى فكرة. كان الأسلوب كالتالي: إذا كان المعتقل مذنباً فسيتحدث بسرعة، لأن المرء بعد وهلة يعتاد على التعذيب. في البداية بين لحظة الاعتقال وبدء التعذيب، لا يصدر عنك ردة فعل. أذكر أنهم أخرجوني أنا وزوجتي آنذاك من السيارة، واحتجزونا نحن الاثنين. شاهدت فندق المجد Gloria hotel، ورأيت بنادقهم وكل شيء مر بسرعة أمام

بصري. «اخرجي» صرخوا بزوجتي وأمسكوها من شعرها وجروها خارج السيارة. نظرت باتجاه الفندق وفكرت قائلاً لنفسي «أنا في طريقي إلى الموت الآن». أي غباء أن يموت المرء وهو ينظر إلى فندق!» ثمة حماقات تخطر لك في أكثر اللحظات مأساوية. وضعوا زوجتي في سيارة ووضعوني في سيارة أخرى. وكان الأمر أسوأ بالنسبة لها فقد أخبروها بأنهم سيقتلونها، في حين لم يقولوا لي أنا ذلك. لقد كتفوني، ووضعوا القناع على رأسي وطلبوا مني أن أهدأ فهم لن يقتلونني. لكن كيف كان لي أن أهدأ وأنا أعلم بأنهم سيضعونني في معسكر اعتقال ويعذبوني من رأسي حتى أخمص قدمي. ولم أستطع أن أخبرهم أي شيء، حتى لو كنت أرغب في ذلك، لأنني فعلاً لم أكن أعلم أي شيء عن الثوار.

(وعند ذلك الحد من الحوار أراد باولو كويلهو أن يفضي بشيء شديد الخصوصية ما زال يعذبه حتى ذلك اليوم. في إحدى المرات اقتادوه وهو مغطى الرأس إلى الحمام. كانت زوجته في زنزانة مجاورة. ميزت صوته وسألته صارخة: «إذا كنت باولو، كلمني أرجوك!» شعر بلحظة ذعر ورغم أنه ميّز صوت زوجته، إلا أنه لم يتجرأ على الرد عليها، وهكذا عرف بأن زوجته كانت أيضاً في السجن نفسه وكانت تتعرض للتعذيب بالتأكيد مثله تماماً. لكنه لم يمتلك الجرأة ليقول لها كلمة واحدة، وعاد راجعاً إلى زنزانته. قال لي كويلهو وعيناه مغرورقتان بالدمع: «كان ذلك أكثر أيام حياتي جبناً، وسأظل أندم عليه طوال حياتي». وعندما خرجا من غرف التعذيب، طلبت إليه تلك المرأة أن يسدي لها معروفاً وهو أن لايتلفظ باسمها ثانية. وجرى كويلهو بعد ذلك على هذا العهد. فكلما يتعرض لذكرها يقول «زوجتي التي ستبقى دون اسم»).

3

الحياة الخاصة

«لم أكن مرة خائفاً من الموت لأنني رأيته يطبق مقترباً مرات عديدة».

«أخر ما كنت أريده، عندما أصبح مشهوراً، هو أن أخسر أصدقائي».

يتساءل العديد من قراء كويلهو كيف عسى أن تكون حياته الخاصة، وكيف يتصرف واحد من أوسع الكتاب العالمين انتشاراً خلف الأبواب المغلقة؟ ما هي مخاوفه، المسببات البسيطة لرضاه، وما هي منغصاته؟ إن المحظوظين بمعرفة الرجل جيداً وعن قرب قد يجيبون بوضوح إن الشهرة بهذا المعنى لا توجد إطلاقاً لدى كويلهو. لأنه، رغم شهرته، ورغم ملايين الدولارات التي تدرها له أعماله، ورغم الطلب العالمي لحضوره، يظل سهل المقاربة دائماً، موجود حين تريده، كريم وسمح وبسيط بساطة الأطفال أحياناً. إنه شخص لا يخبئ البقع المظلمة من ماضيه، ويتمتع بحماس بالشيء الذي يقوم به وبالاحتفاء العظيم الذي تلقاه كتبه وخاصة من جيل الشباب. ويميل إلى نسيان ردود الفعل السلبية بمجرد سماعه لها ـ كما يعتبر الجسد من أسوأ الشرور وأكثرها غباءً ـ هل يعني هذا أنه قديس؟ لا. فكويلهو شخصية عظيمة الشغف، كثيرة العيون، عبقرية عظيمة أحياناً، وأحياناً تحت وطأة مسحة من الزهو يمكنه أن يكون بالغ الفظاظة حين يريد ذلك. لكنه في الوقت ذاته يمتلك مقدرة عظيمة على التفاني والرغبة الصادقة في مساعدة الآخرين ليحققوا صيرورتهم الخاصة. وهذا ما أنقذه من ماضٍ صعب وأحياناً مأساوي. وهذا نفسه هو ما أخذ به أكثر من مرة إلى طاقة الجنون والموت.

س ـ كيف تحيا حياتك الخاصة؟ هل تحرص على خصوصيتها؟

ج ـ لا، لن أحرص على خصوصية حياتي، لكن دعنا نحدد أولاً ما هي بالضبط حياتي الخاصة.

ـ كل ما هو خارج حياتك العامة. ما هو حميمي لك.

ـ حين أكون في البرازيل، أكون شديد العزلة ليس لأنني حريص على خصوصية حياتي، وليس لأن لدي شيئاً أخفيه رغم أنني شأني شأن الجميع لدي ما أخفيه، لكن ما عليَّ إخفاؤه أخفيه بأكثر الطرق الممكنة انفتاحاً والتي هي الأفضل لإخفاء أمر ما. أفعل الأمر في وضح النهار بحيث لا يصدق الناس ويقولون «لا يمكن هذا». ولكن هكذا تجري الأمور.

ـ هل تُعتبر أنيساً محباً للاختلاط بالآخرين؟

ـ لا، حقيقة أنا لا أحب كثرة الاختلاط، رغم أنني أرغب في التنوع. أحب عملي، وأنا متحمس لما أقوم به. أسافر إذا كان علي أن أسافر، وإذا كان علي أن أقوم بأصعب الأشياء بالنسبة لي، كإلقاء الخطب، فإنني ألقيها. أما المقابلات الصحفية فأجدها أسهل لأنها مجرد حوارات. لكن ما أخشاه هو إلقاء الخطب.

ـ وماذا عن هذا القدر الهائل من الترحال؟ أنت تقضي أكثر من نصف كل سنة متجولاً حول العالم.

ـ هذا صحيح. فأنا أقضي وقتاً خارج البرازيل أكثر مما أقضي فيها. فالآن، وكما تعلم، يريد الناشرون من الكتّاب أن يروجوا لكتبهم. الحقيقة أنني أتحمل أعباء الرحلات، والفنادق، والمطارات وما إلى ذلك، إن لم نقل برضا فلنقل برزانة رواقية. بمعنى أن لا أدع هذه الأشياء تزعجني، وهذا جزء من فلسفتي. إن التقائي بالعديد من قرائي يساعدني في التقاط نبض ومشاركة آمالي وأفكاري معهم. في هذه اللقاءات مع الناس تحصل لحظات عاطفية شديدة. أحب هذه اللحظات فهي تُغني المرء. كما أنك تلتقي أيضاً بأناس ممتعين أثناء ترحالك، أناس يصبحون مهمين جداً في حياتك. أنت وأنا مثلاً

التقينا والشكر في ذلك لإحدى رحلاتي إلى مدريد من أجل الإعلان عن «الجبل الخامس» كما تتذكر.

- أنت لا تمانع في السفر رغم خوفك من السفر بالطائرات؟

- لا، لم أعد أخاف ذلك لأنني ألفته. تغلبت على مخاوفي في مدينة أفيلا، مدينة القديسة تيريزا، المكرسة للمسيح حيث الصوفية الإسبانية العظيمة. هناك تعرضت لتجربة دينية عميقة، خلّفت وراءها وعلى أثرها معظم مخاوفي وإلى الأبد ومن بين هذه المخاوف كان خشيتي من السفر جواً. والحديث عن السفر بالطائرة يذكرني برحلة لن أنساها قمت بها عندما كنت لم أزل أخشى الطيران. كانت تجلس بقربي سيدة لا تفعل شيئاً سوى شرب الخمر. قالت وهي تنظر إلي «لا تظن بأني مدمنة كحول، كل ما في الأمر إنني خائفة لدرجة الموت». وتابعت تخبرني كل ما يمكن أن يحدث لنا إذا حدث عطل في الطائرة، إذا تحطمت. وكل ذلك بتفاصيل تجمد الدم في العروق، كما لوكنا نعيش الحدث ذاته، بعضٌ من تجربة الرعب تلك ضمنتها في كتاب «الجبل الخامس» الذي يلامس هذا الموضوع.

- إذن أنت الآن رجل بلا مخاوف.

- لا لست كذلك، لم يزل لدي الكثير من المخاوف الصغيرة كالتحدث في المناسبات العامة على سبيل المثال.

- وماذا عن الخوف من الموت؟

- لا. أنا أخاف الموت، لأنني سبق أن واجهته مرات عديدة في حياتي. حدثت مرات كنت فيها منغمساً في المخدرات والسحر الأسود وكما سأخبرك لاحقاً، حين كنت مقتنعاً بالإقدام على الموت.

الحقيقة كما أتبينها الآن، أنني لا أعتقد بأن الخوف من الموت، أو كيف سأموت كان يمثل مشكلة ثابتة في حياتي. خوفي من

الطيران، على سبيل المثال، لم يكن خوفاً من الموت بقدر ما كان دائماً خوفاً من حالة كونك عالقاً في الطائرة جواً وفي حالة ضياع.

- متى تخلصت من رهبة الموت؟

- في الواقع، تخلصت من رهبة الموت عندما كنت في زيارة حج إلى سانتياغو. عرفت هناك تجربة هامة وممتعة جداً عشت فيها تجربة موتي الخاص، ومنذ تلك اللحظة لم أعد أشعر إطلاقاً بالخوف من الموت. أنا الآن أرى في الموت محفزاً قوياً يحقن في داخلي إرادة الحياة، كاستيندا يتحدث بصورة جيدة عن الموت ولم يكن خائفاً منه أيضاً.

- لكن الموت سيأتي يوماً ما، كما علينا جميعاً. فكيف تتخيل مجيئه الآن؟

- في كتاب «رحلة الحج» أصف الموت من خلال شخص هادئ أشعر به إلى جانبي دائماً. بالطبع، أنا مدرك تماماً أن علي أن أموت. ولهذا أنا لا أستثمر لأراكم ثروات، بل أستثمر في الحياة ذاتها. أنا أعتقد أن هذا ما هو مفقود في حضارتنا. فقط حين يكون لدينا الوعي التام بحقيقة أننا سنموت، نشعر مئة بالمئة أننا أحياء.

- أنت لا تخشى الموت، ماذا عن الفشل؟

- بالنسبة لي الآن صعب جداً أن أتصور الفشل. فمهما يحدث في المستقبل، من غير المرجح أن أعتبر نفسي فاشلاً، لأنني قد حققت أكثر بكثير مما سبق أن أملت أو قد حلمت به من الحياة. إذن لا فشل بل من الممكن أن أهزم، وفي هذه الحالة فسألعق جراحي وأنطلق ثانية من جديد.

- إن ما تخشاه هو أنه بعد موتك فإن الأشياء التي لم تشأ أن تنشرها في حياتك سوف تنشر.

- أجل، وقد كنت متشدداً جداً بهذا الشأن في وصيتي، وفيها أترك كل ممتلكاتي للمؤسسة التي أخبرتك عنها. كما أكدت أيضا في

وصيتي بأنني لا أريد، وتحت أية ظروف، لأي كان أن ينشر أي شيء لم أوثقه أثناء حياتي، ورغم أن هذا سيكون صعباً جداً لأنني في كل مرة أكتب فيها شيئاً ثم أقرر بعدها بألا أنشره، أتلفه لأتجنب هذا المأزق الذي وقع فيه العديد غيري من الكتّاب والذي أجده أمراً غير مقبول. ويصدمني كأمر غير لائق أن أشياء لم يرد لها الكتّاب أن تنتشر في حياتهم سوف يسلط عليها الضوء بعد موتهم، باستثناء حالات يقول عنها الكتّاب أنفسهم أن أشياء معينة يجب أن لا تنشر إلا بعد وفاتهم.

ـ هل تؤمن بالتقمص؟

ـ إن من يسكن نفسي حقاً ليس هو التفكير بالعودة الممكنة إلى الحياة بعد الموت، بل كوني على قيد الحياة. إنني أحتفظ بصورة الموت إلى جانبي، كما لو أنه ينتصب أمامي ليذكرني في كل لحظة قائلاً: «انتبه! قم بما تفعله على الوجه الأكمل، ولا تترك للغد ما يمكنك فعله اليوم. لا تستمرئ الإحساس بالذنب، ولا تشمئز من نفسك». إن الموت هو الأكثر طبيعية بين الأشياء التي تحدث لنا.

ـ وحين يواجهك الخوف، كيف تتصرف؟

ـ إذا كان لي أن أخبرك الحقيقة يا جان. فأنا لطالما كنت مرعوباً من أشياء كثيرة. لكن إحدى خصائصي كانت دائماً أن أواجه الخطر بجرأة. وما سبق لي أن تم ابتزازي بالترويع بأي شيء. الخوف لم يشلني أبداً في حياتي.

ـ هل تتجاوزه أم تعيشه ألماً؟

ـ أنا لا أقفز أبداً فوق الخوف، بل أواجهه على أرض الواقع. لتتجاوز الخوف يجب أن تسيطر عليه، وأنا لا أسيطر على الخوف بل أستبقيه، أعيش معه دون أن أسمح له أن يشلني. وأنا دائماً أتابع السير. الشجاعة هي الخوف وهو يرتل صلواته.

ـ بالعودة إلى حياتك الخاصة. ما الذي يجعلك أكثر استياءً في العلاقات الاجتماعية؟

ـ الجزء الأكثر تعقيداً بالنسبة لي هو حفلات الكوكتيل التي علي أن أحضرها. عندما تكون هذه الحفلات مع باعة الكتب فلا بأس. لكن عندما يكون هناك شخص مهم وقد وعد شخصاً ما بتقديمي له، وأنا لا أستطيع الرفض لأن هذا الشخص قد قدم لي خدمات كثيرة، فإنني أتحمل الأذى على مضض كبير. فأنا لست مناسباً للعب دور المشاهير. يُفرض علي لعب هذه الأدوار أحياناً ـ وقد أنتهي إلى إمتاع نفسي ـ لكنني أؤكد لك بأنني أتجنبهم إذا كان بالإمكان. أفضل البقاء بهدوء في الفندق، اقرأ أو أقوم بأي شيء.

ـ وعندما تكون هنا في البيت، في البرازيل؟

ـ حين أكون مسافراً أكون في حالة انتشار متواصل، حالة انسياب. وهكذا كما لو أن الطاقة كلها تجتمع في داخلي ثانية عندما أكون في البيت. والآن فإن كتابي الجديد «فيرونيكا تقرر الموت» قد صدر، وعلي أن أبدأ بالسفر مجدداً، ولكن إذا لم أفعل فسأبقى في البيت طوال اليوم بسعادة. اليوم، على سبيل المثال دعيت إلى زفاف، لكن الناس يعرفون ما أفعل. سأرسل هدايا ولن أذهب ـ أنا أحب كوني هنا مع جهاز الكمبيوتر، أو متمشياً على الشاطئ.

ـ هل تحسن البقاء وحيداً؟

ـ أجل، أُحسن البقاء وحيداً. لكنني أبداً لست وحيداً بشكل كامل. لأنني دائماً مع كريستينا، زوجتي. لكنها تبقى في مرسمها هنا مقابلي. وأنا أبقى أمام جهاز الكمبيوتر خاصتي. ونقضي ساعات دون تبادل كلمة لكن كلاً منا يحسّ بوجود الآخر. أحب الخروج للمشي على شاطئ كوباكابانا. هذا المشوار بالنسبة لي، بعد الاستيقاظ المتأخر ـ لأنني أعمل ليلاً ـ هو بمثابة طقس لا أستطيع

التخلي عنه. فأنا أحب المشي، والتحدث إلى الناس، والقيام بالأشياء بأبسط طريقة ممكنة.

- لا يمكن أن يكون سهلاً بالنسبة لك القيام بالأشياء ببساطة الآن وقد أصبحت بالنسبة للكثير شخصاً ليس من السهل الاحتكاك معه عن قرب.

- نعم، فالمشكلة الوحيدة التي سببتها الشهرة لي هي أمر غريب جداً: فالناس تقول لك شيئاً هو غير صحيح بالنسبة لي. وأعتقد أنه أيضاً غير صحيح بالنسبة لتسعين بالمئة من الناس الذين أصبحوا مشاهير. ينطلق الناس قائلين مثلاً: «أعرف أنك مشغول جداً...». وهذا غير صحيح، فأنا لست مشغولاً جداً. ويقولون: «ليس لديك وقت تهدره لأي شيء أو لأي كان». وهذا غير صحيح أيضاً. انظر اليوم استيقظت عند الظهيرة لأنني أردت رؤية «ماتش» فرنسي، ثم أجريت مقابلة طويلة، ونمت قليلاً بعدها، ولكن ليس لدي شيء أقوم به. ماذا سأفعل؟ حسناً ربما أكتب بعض الزوايا للجرائد بشكل مسبق لأنني أعرف أن لدي أعباءً كثيرة قادمة. لكن منذ أن عدت إلى البرازيل من سفري لم أفعل أي شيء.

- لكن هذا شيء يحدث حتماً مع كل المشاهير، تخيل أنهم كائنات غير حقيقية لا تمتلك الوقت حتى لتتنفس.

- حتى أن هذا تتركه حاجزاً بينك وبين أصدقائك القدامى. حين يبدأ أقرب الأصدقاء إليك بالتعامل معك بشكل رسمي، ظناً منه بأن شيئاً ما قد تغير في وضعك، وأنك لست الشخص الذي اعتاده من قبل، فيبدأ التعامل معك بشكل مختلف عن ذي قبل. وغالباً ما تسمع هؤلاء الأصدقاء يرددون «لقد أحببت كويلهو القديم قبل أن يصبح مشهوراً». لكن كيف لهم أن يقولوا ذلك عندما أبقى كما كنت؟ فعلى العكس الآن أنا أكثر سعادة مع أصدقائي القدامى باعتبارهم أصدقائي ليس لأنني مشهور، بل لأنهم كانوا أصدقائي قبل ذلك حين لم أكن شيئاً يُذكر.

ـ لكن الواقع هو أن من يصبح مشهوراً يصعب ألّا يُنظر إليه كذلك، حتى من قِبل الأصدقاء القدامى.

ـ نعم، ولكنني مازلت موجوداً وأساس توازني مع العالم الخارجي هو أصدقائي. فإن فقدت التواصل مع أصدقائي فقدت كل شيء، وبالتالي أفتقد توازني وهذا ما حدث لي في الماضي. ارتكبت هذا الخطأ عندما كنت أكتب القصائد الغنائية. كنت أحسب نفسي ملك العالم. بدأت أصبح مشهوراً وكنت أكسب الكثير من النقود، وعملت لشركة تسجيلات عالمية. وكان أول شيء فعلته هو تغيير أصدقائي. قلت لنفسي آنذاك «الآن أنا شخصية مهمة جداً، لم يعد لدي قواسم مشتركة مع هؤلاء الهيبيين وأفكارهم عن حياة بديلة». وما الذي حدث لي؟ حسناً بمجرد فقداني ذلك العمل تُركت وحيداً تماماً، لأن من أعتبرهم أصدقائي الجدد توقفوا عن زيارتي وكنت قد فقدت أصدقائي القدامى. تعلمت من تلك التجربة وقلت لنفسي: «إن حصلت على فرصة أخرى فسأحتفظ بأصدقائي القدامى مهما كان الثمن».

ـ وهل سارت الأمور كما تريد هذه المرة؟

ـ ليس تماماً. ولكن ليس بسبب خطأ من قِبلي هذه المرة، إذ أن رغبتي الخالصة كانت ألا أفقد أصدقائي رغم الشهرة التي تحيط بي. لكن الأمر ليس سهلاً، إذ أنهم هم من بدأ التعامل معي بشكل رسمي. في البداية عندما كان يصدر عني شيء ما في الجرائد، كانوا جميعاً يسارعون لمكالمتي هاتفياً قائلين أنهم قد قرؤوا كذا عني، أو أنهم قد رأوني على التلفاز. والآن قد أجري حديثاً مع البابا دون أن تصلني مكالمة واحدة تقول «شاهدتك مع البابا».

ـ أهو الحسد؟

ـ لا، لا أعتقد أنه حسد، بل على الأغلب هُمْ يعتقدون بأن الوصول إلي أصبح صعباً. فالشخص الذي يُستقبل من قِبل البابا ذاته لا يمكنه الاحتفاظ بصداقاته القديمة. لكنهم مخطئون في ذلك.

- ربما يعتقدون من الطبيعي الآن وقد أصبحت مشهوراً أن يستقبلك البابا.

- قد يكون ذلك. لا أدري. أنا أحاول أن أستبقي النظرة الطفولية نفسها للأشياء، وهذا ما يدفعني لمتابعة السير إلى الأمام. فإن فقدت ذلك سأفقد حماسي. لهذا أحب الالتقاء بالقراء العاديين وأعبر معهم الدروب أثناء جولاتي في العمق البرازيلي. البرازيل بلد رائع والناس خاصة في الداخل موثوقون جداً منفتحون، وليسوا سهلي الانقياد. إنهم أوفياء وغير متزلفين، في حين أنني ألاحظ بأن النجاح غالباً ما يستميل إليك المقربين. وبسبب ذلك تجد نفسك في النهاية مع حفنة فقط من الأصدقاء الذين لا يقبلون التبعية، والذين قد يعانون المشاكل نفسها التي تعاني منها. إنهم يفهمونك ولا يحرصون على المسافة نفسها من القرب منك.

- بالنسبة للبقية، أنت لم تعد شخصاً واحداً فقط بل اثنين. أنت وشهرتك. قد يكون الأمر كذلك. فمن ناحية ما أنت المشهور الذي لا يمكن الوصول إليه، ومن ناحية أخرى أنت الشخص السابق الذي يعرفونه والذي يعتقدون بأنه قد ذهب الآن ليصبح الشخص المشهور الذي لا يمكن استعادته.

- لكنني لم أخرج عن ذاتي إطلاقاً كما فعلت في العام 1979 -- 1980 بحدود ما أعلم. اليوم كما تعرف يسهل الوصول إلي ويسهل إيجادي، أو ربما يصعب الوصول إلي في القضايا التي لا تعنيني، ولكن ليس في أمور الحياة. إلا أنني وأنا أفقد الأصدقاء القدامى أكسب أصدقاء جدداً، ورغم أنهم ليسوا ممن رافقوني في تسلق الصعاب، إلا أنهم أصدقاء طيبون على أي حال ويمكن الاعتماد عليهم.

- كيف تدافع عن نفسك بمواجهة الحسد الذي لا منجاة منه، والذي لا بد أن نجاحك يستثيره وخاصة بين الكتّاب الآخرين؟

ـ أحمي نفسي ضد الحسد بوصفات سحرية. إنني أخلق لنفسي حاجزاً واقياً بحيث لا أضطر لمواجهة الحسد. فالحسد كما أفهمه هو أكثر الخطايا تدميراً، لأن الحسود لا يقول «أريد أن أحقق كذا وكذا» بل يقول: «لا أريد أن يحقق فلان كذا». هذا أمر وضيع، فالمرء في هذه الحالة يضع سويات العالم من موقع أدنى. أنا أعلم أنني أستطيع أن أدمر نفسي، وأن الله يستطيع تدميري. أما الحسد فلا. إنه يدمر فقط من يشده إلى صدره كمن يضم ثعباناً قاتلاً.

4

السياسة والأخلاق

«السياسة بالنسبة لي هي ما يتعلق بهدم جدار التقاليد الثقافية التي تحيط بنا».

«علينا أن نجعل الأمر مفهوماً بأن الكاتب لم يعد أكثر أهمية من شخص يبيع جوز الهند».

طوال فترة شبابه المهتاجة كان كويلهو ناشطاً في أكثر الحركات التقدمية؛ إذ حتى حركة البيتلز بدت له محافظة، وهو الراديكالي الحر دائماً. لقد حلم بالمجتمع البديل واستطلع الماركسية، لقد أظهر نفسه دائماً خلال تعاطيه السياسي والأخلاقي بأنه راديكالي متطرف لمواجهة النظام. وقد دفع غالياً ثمن مواقفه: مشفى الأمراض العقلية، السجن والتعذيب.

والآن وقد أصبح الرجل الناجح والمشهور عبر العالم كله، واهتماماته هي محط تنافس من قبل خيرة العالم وعظمائه مبجَّلٌ من قبل قرائه، فأين يضع نفسه سياسياً وأخلاقياً؟ إنه يستمر معتبراً نفسه كائناً سياسياً، لكنه في ذات الوقت يريد البقاء بعيداً عن أي إغراء حزبي. وفي أعماقه، لم يزل كما كان في شبابه رومانسياً يريد الاعتقاد بأن القناعة الروحية الراسخة، والتعلق بالغامض والمثابرة وبعضاً من السحر الإيجابي الكامن في كل حياة، كلها أشياء يمكن أن تمنحنا عالماً أقل بؤساً وقسوة وأكثر أحلاماً قابلة للتحقيق. فوسط عالم يجتاحه منطق غير مسبوق وتوق نهم للسلطة، يعتقد بأننا ينبغي ألا نستغني عن ذلك الطفل الغض الذي نحمله جميعاً في داخلنا، والذي يحذر من فقدان البراءة، والذي لا يجب التنكر له إذا كنا نريد أن نفهم شيئاً عن ماهيتنا وعن غاية حياتنا.

س ـ أنت تعيش هنا في البرازيل، رغم أنك تقضي نصف العام

وأنت تجوب العالم. هذا البلد النامي الغني بمقدراته، لم يزل فيه أربعون مليوناً من الفقراء ممن يعيشون على هامش النظام متروكون كليةً لأقدارهم. وبجانبهم يعيش أغنياء. أنت كنت تفتقر إلى أشياء عديدة مثل وصولك إلى وضعك المميز، فأنت رجل غني الآن، تكسب ملايين الدولارات، وتعيش في منزل فاره في ريو دي جانيرو مقابل عالم الأحلام هذا على شاطئ كوباكابانا... أنا واثق أن العديد من قرائك يودون معرفة أين تضع نفسك سياسياً وأخلاقياً أمام تحديات العالم الثالث.

ج ـ من الواضح أن رؤيتي للعالم والسياسة تغيرت بعد هذه السنين. لقد مررت بأكثر التجارب راديكالية كما تعرف جيداً. ورأيت الإيجابيات والسلبيات في كل منها. نحن جميعا، بشكل أو بآخر، أطفال فقدوا أحلامهم بمجتمع أكثر عدلاً وحاربوا ودفعوا الثمن من دمهم.

أنا مقتنع الآن بأن الإيديولوجيات العظيمة ليست هي التي ستغير العالم. فالعديد منها قد أخفق، وولادة إيديولوجيات جديدة أكثر خطراً مايزال تهديداً قائماً، كالأصوليات الجديدة. أنا مازلت أشعر بأنني كائن سياسي، لكن السياسة التي تحتويها كتبي معنية بتحطيم جدران المعتقدات الثقافية التي تعود إلى التعصب. أعتقد بأن الأمر الأكثر أهمية، كما يؤكد الفيلسوف الإسباني فرناندو سافانير، هو الالتزام الأخلاقي القوي من مُثُل كل واحد منا، والذي بدونه فإن مجتمع المستقبل سيكون أقل أخوية وأكثر اقتتالاً بين الأخوة.

ـ ما الذي تقوم به شخصياً في هذا الخصوص؟

ـ أنا مقتنع بأن على كل شخص الآن أن يقدم مساهمة للمجتمع. وبسبب هذا أؤمن بقوة في الموجة الجديدة من التضامن المتناهي حول العالم كله، وخاصة في أوساط الشباب.

ولكي لا نظل في عالم أثيري من النوايا الطيبة، فقد أردت أن

أقوم بشيء عملي، ضمن إمكانياتي، في مجال التضامن، فأنشأت مؤسسة باسمي لكي تستمر بعد موتي.

ـ مما تتألف بالضبط؟

ـ دعني أقُلْ لك في البداية أن زوجتي كريستينا، هي المسؤولة عنها. إنها تتابع الموضوع بحيث أن الأهداف والغايات التي وضعناها يتم الأخذ بها حرفياً. لقد أردت لهذه المؤسسة منذ البداية أن تكون جدية وشفافة. إنها لخمسة أهداف: الأطفال المنبوذون في البرازيل، العجزة من الفقراء والمعوزين، ترجمة الكتّاب البرازيليين الكلاسيكيين إلى اللغات الأخرى بغية السماح للثقافة الغنية لبلدي لتصبح أكثر انتشاراً. إنني مهتم بشكل أساسي بالنخبة من الكتّاب السابقين، لكنني أتفادى مشاكل الغيرة والترهات العديمة الجدوى. والهدف الرابع هو دراسة البرازيل ما قبل التاريخ. التاريخ غير المدون لهذا البلد، فأنا أحبه كثيراً. نحن ننظر الآن في الطرق التي نطلق بها تدريجياً نتائج أبحاثنا. لقد باشرتُ اتصالات مع وزارة الثقافة. كما فكرت في نشر النتائج على شبكة الإنترنت. وأخيراً، فإن الهدف الخامس هو الوحيد الذي سينتهي بموتي، إذ إنه هدف شخصي للغاية، لقد فرضت معونة لأناس محددين لتحقيق أحلام حياتهم أو رغبات قلوبهم. بالطبع، يُطلب مني كل شيء. لكنني وحدي أقرر من أساعد، قد يكون إعطاء جناز لشخص ما، أو مجموعة كتب لجامع ملفات، أو تحمل نفقات ليتمكن أحدهم من الحج إلى سانتياغو لأن هذه التجربة كانت قد غيرت حياتي.

ـ سوف يقصدونك في هذه الحالة من كل أنحاء العالم.

ـ هذا ما حصل، ففي كل يوم يكون قسم كبير من بريدي الذي أتلقاه طلبات لشيء ما. وأنا لا أنكر بأن موافقتي أو عدمها تتوقف إلى حد كبير على كوني في مزاج طيب أم لا. فأنا أترك لنفسي الاسترشاد بفطرتي. أنا وحدي أقرر ذلك. وما تبقى فهو وفق توجيهات المؤسسة.

- ما المبلغ الذي يخصص للمؤسسة؟ لأنني قرأت عن مبالغ مختلفة ومتناقضة؟

- حسناً، دعني أوضح هذا الأمر. أنا أخصص ثلاثمئة ألف دولار سنوياً للمؤسسة من واردات مؤلفاتي. لكن في العام الماضي، ونظراً لخطأ ورد على لساني في مقابلة، فقد أصبح المبلغ أربعمئة ألف دولار. إذ أنني قلت ذلك، ولكي لا أبدو كاذباً، فقد أنفقنا مئة ألف دولار أخرى على بيت جديد مخصص لأطفال الشوارع من فابلاس، لأن البيت السابق كان صغيراً جداً، وأخشى أن خطئي ذاك سيكلفني من الآن فصاعداً مئة ألف دولار أضافية كل عام.

- لماذا قررت الإشهار عن المؤسسة؟ في البداية لم يكن أحد يعلم عنها أي شيء. فأنت لا تتحدث عن أعمالك عادة.

- هذا صحيح، لكن في أحد الأيام نشرت مقالة صغيرة في إحدى الجرائد ولدهشتي وشكراً لتلك المصادفة، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الشبكة المؤثرة لحركة التضامن الصامتة الموجودة في المجتمع، فأسقط في يدي، إذ أنك تجد أن المجتمع البشري ليس رديئاً في النهاية، لأن الآلاف من الناس قد عرضوا علينا المساعدة.

اكتشفت أيضاً أن هذه الشبكة بالغة التنوع، لأن هؤلاء ليسوا مجرد شباب مثاليين مفلسين أو ناضجين يودون تقديم شيء لمساعدة الآخرين، بل هم أيضاً رجال أعمال مهمون، بل وحتى من قادة القطاع الصناعي وأصحاب رؤوس الأموال. لكن الشيء الذي لا يختلفون فيه هو حماسهم في تقديم شيء مادي للناس الذين هم أحوج إليه منهم، ودون فقس ورقص على رؤوس الأصابع، ودون أن يدعوا اليد اليمنى تعرف ما تقوم به اليد اليسرى كما يرد في الكتاب المقدس.

- وأين تضع نفسك أنت في الإطار السياسي الأكثر تحديداً؟

- كما قلت لك من قبل، أعتبر نفسي رجل سياسة ولكن ليس رجل أحزاب. أظن أن كتبي سياسية، لأنني أساعد الناس بسيرتي الخاصة على أن يتبينوا أشياء عديدة، وبإيقاظ الجانب النسوي والحاجة إلى خرق المنظور الرسمي العام للسلوك القويم ودفع الثمن من أجل أحلامهن. إضافة إلى تنبيه الناس إلى مخاطر كل أنواع التعصب، وإلى أولئك الذين يحاولون الاستحواذ على وعي الآخرين، وإلى معارف الثقافات الزائفة ونفاق بعض السياسيين الذين بدلاً من خدمة المواطنين يخدمون أنفسهم مستخدمين المواطنين لإرضاء نزواتهم الشخصية.

- هل سبق أن أُغريت من قبل سياسيّ الأحزاب، بعدما أحرزته من شهرة؟

- للترشيح للانتخابات؟ لا. أنا لست مهتماً بسياسات الأحزاب، لكن ما أقوم به هو سياسي في الجوهر. أليس سياسةً أن تحاول تدمير الجدار الذي يفصل الناس عن السلطة، عن طريق الدمج بين المتخيل والواقعي؟ السياسات التقليدية لها قادتها وممثلوها الجماهيريون أما أنا فأهتم بنوع آخر من السياسة.

- كثيراً ما ورد على لسانك التأكيد بأن القيام بالأشياء على الوجه الأمثل وبحماس هو أيضاً نهج سياسي.

- أجل. إن أحدى الطرق للمساهمة في السياسة، بالنسبة لي، هي بالتكرار، بكل طريقة ممكنة، بأن من الضروري أن نحيا الحياة بحماس، بحيث أن كلاً منا مسؤول عن مصيرنا المشترك ولا يمكن له أن يفوّض الأمر للآخر، حيث الكاتب، مهما بلغت شهرته، ليس أكثر أهمية للعالم من أي شخص آخر يبيع جوز الهند أو يعمل شرطياً يسهر على أمننا في الشوارع، رغم أن الكاتب أحياناً قد يشعر خاطئاً بأنه أكثر أهمية من أي كان.

السياسة بالنسبة لي، هي المساهمة في تغيير ما أدعوه بـ

«الأكاديمي»، أي الحكمة المتحجرة، البيروقراطية، التقليدية، التي تظن نفسها المستودع الوحيد للمعرفة. سلطة أصحاب الامتيازات. علينا أن نعود إلى إطلاق العنان الحر للإبداع، وأن نعطي الفرصة للإنسان العادي، معتبرين بأنه لا ينبغي أن يكون هناك نخبة مثقفة يعتقدون بأنهم أصحاب امتيازات وتشريفات وألقاب ليفرضوا ثقافتهم على الآخرين.

بهذا المعنى أعتقد بأن شبكة الانترنت يمكنها أن تساعد بشكل أساسي. إنها أداة يمكنها رغم كل المخاطر التي تجلبها معها أن تسهم في إمكانية جعل كل صوت مسموعاً. إن لم يدمر الأقوياء الإنترنت عن طريق تحكمهم بها، فأنا أعتقد أن بوسع هذه الوسيلة أن تصبح منبراً هائلاً لجدل كوني، حيث لا يشعر أحد بأنه مستبعد. أعتقد أن بوسعها خلق مدينة فاضلة لا يمكن التحكم بها من قبل الممسكين بسلطة العالم. لكن قد تكون هذه مجرد يوتوبيا أخرى أود الاعتقاد بها.

ـ لكن ماذا لو سألك أحدهم أين تقف من الحركات الجديدة لتحرير العالم الثالث، مثل «الزاباتستا»(*) في تشياباز أو حركة الفلاحين المحرومين(**) «Landless» في البرازيل. كيف لك أن تجيب على ذلك؟

ـ أنا دائماً آخذ موقفاً ولا أرفض أبداً إعطاء رأي في صالح، أو ضد، لكنني لا أبقى صامتاً ولا أبقى إطلاقاً خارج المسألة.

ـ إذن، ما رأيك في هاتين الحركتين؟

ـ الأمر يتوقف على كل حالة. أنا أرى حركة التشاباز بمنظور

(*) حركة المتمردين في المكسيك، المطالبين بالأرض والحقوق لمزارعي مايان المكسيكيين، استولى متمردو زاباتستا في عام 1994 على أربع مدن في مقاطعة تشياباز، الولاية الأكثر فقراً في المكسيك احتجاجاً على الحكومة والنظام الاجتماعي الذي يعتقدون بأنه لا يقدم شيئاً إلى أبناء المقاطعة الأصليين.

(**) حركة فلاحيه تناضل ضد كبار الملاكين لإحراز ملكية خاصة للفلاحين. م.

أكثر رومانسية، لأنني لا أعرف عنها الكثير. أما حركة الفلاحين المحرومين، والتي أنا أكثر قرباً منها، فأعترف بأن هنالك أوقاتاً لا أكون فيها على وفاق تام معهم، إذ يبدو لي بأنهم لا يتصرفون دائماً بشكل مترابط.

(أراد كويلهو في اليوم التالي أن يرجع إلى هذا الموضوع. لقد خشي أنه ربما لم يكن واضحاً وكان يهمه ألا يكون القراء واثقين من رأيه).

- قلت بأنك لا ترفض إطلاقاً أن تعطي رأيك في القضايا السياسية الإشكالية، وبأنك لا تمانع في إظهار حقيقة موقفك.

- هذا صحيح، لكن ثمة مشكلة أخرى. فمنذ أن أصبحت مشهوراً أصبح كل امرئ يريد رأياً في أكثر القضايا غرابة، من موت الأميرة ديانا إلى قضايا كرة القدم. لا بأس في مسألة كرة القدم فأنا من كبار المعجبين بها وأعرف عنها بعض الشيء، لكن هناك أشياء ليس لدي أدنى فكرة عنها، ويريدون مني أن أدلي برأي فيها. يحدث معي ما هو مشابه لذلك في السياسة. أنا لا أعتبر نفسي في معزل عن السياسة، طالما أن السياسة هي التي تدير حياتنا. لا يمكنك أن تكون محايداً سياسياً، لأنك بذلك تدع الآخرين يقررون بشأن حياتك واهتمامك. عليك أن تشارك بفعالية، لكنني لست سياسياً محترفاً، ولا خبيراً متخصصاً في الفلسفة السياسية.

- لكن، على سبيل المثال، في قضية حركة الفلاحين المحرومين ليس من الصعب أن يكون لك رأي. فلدينا الكثير من المعلومات، فالمسألة أكثر ما في الأمر هي في تبين أين تجد مشاعرك.

- المسألة أكثر من قضية مشاعر. عليك أن تعرف كيف تتناول الظاهرة. فتلك الحركة قد انطلقت على نحو صحيح حقيقة، كما يبدو

لي، وبأفعال ملموسة جداً، طالما هناك كل تلك الملكيات الهائلة ومن المنطقي أن يفكر أولئك الناس المحرومون في الاستحواذ على تلك الملكيات وخلق حالة اجتماعية جديدة. منذ وهلة قصيرة أُجريت معي مقابلة حول القضية نفسها وكان رأيي واضحاً جداً.

إن ما يحدث هو أن الأشياء التي أجد نفسي أقل سعادة بحدوثها هي ما يقع ومرد ذلك ربما إلى افتقار الحركة للخبرة. فهناك على سبيل المثال، استحواذات لا مبرر لها. في نهاية العام الماضي قابلت ستيدايل، قائد الحركة على غداء في منزل ممثل اليونسكو في البرازيل.

- وماذا كان انطباعك؟

- جرى بيننا حوار وتبادلنا الآراء. لقد أذهلني كشخص يمتلك حصافة فائقة، لكنني لا أعتقد بأنه يستخدم مقدرته السياسية الهائلة بالطريقة المناسبة على نحو كامل. وأنا هنا أشير إلى السياسة التقليدية. أنا أخشى من إمكانية التلاعب به من قبل القوى اليمينية، كما حدث مع المتمردين البرازيليين. فبعد مرحلة معينة، وبسبب أخطاء معينة ارتكبوها، أضافوا وقوداً إلى النار وأعطوا العالم مبرراً لليمين ليقوم بقمعهم. وهذه هي مخاوفي اليوم. أنا أعتقد بأنهم قد ذهبوا ببعض الأشياء إلى أبعد بكثير مما يجب وهذا يحزنني ويقلقني، لأنهم يمكن أن يضعوا نضال اليسار الديمقراطي في قفص الاتهام.

- هل لأنك لا ترى شيئاً إيجابياً في هذه الحركة؟

- بالطبع أرى فيها أشياء إيجابية، ولهذا يحزنني أنه بسبب هذه الأخطاء يمكن أن يسخّروا. إن واحداً من أكثر الأشياء إيجابية أراه لديهم هو أنهم يبدون منطلقين في تشكيل أحلاف مع قوى أخرى، إن من الضروري دائماً أن توازن بين صرامة الأيديولوجيات

والزمن، لنعرف كيف نستخلص المغزى من الظروف التي نمر بها. ومن ناحية أخرى، فإني أرى أن الـ PT (الجناح اليساري من حزب التراباجادورز، أو حزب الشغيلة بقيادة لولا) أكثر منهم نضجاً. إن حركة المحرومين يمكن أن تكون قوة إيجابية لحزب PT، لكن يمكن لها أن تكون سلبية إن هم فقدوا رؤية فن الممكن في السياسة.

- كيف ترى الوضع في البرازيل بشكل عام، وهو البلد الذي يتطور مع كل ما فيه من مشكلات عديدة ويمكن أن يصبح مرجعية لكل بلدان أمريكا اللاتينية، إذا استطاع أن يحقق إصلاحاً اجتماعياً يدعو فيه الشرائح الأكثر فقراً إلى المشاركة؟

- سأخبرك بكل نزاهة، وأنا الذي لم يسبق لي إطلاقاً في حياتي أن كنت مع اليمين، بأن الحكومة التي لدينا الآن على رأس السلطة في البرازيل مدركة للقضايا الاجتماعية التي نواجهها. إن الرئيس فرناندو إنريكه كاردوسو سبق له أن كان في السجن ونحن لا نخجل به رئيساً لنا، كما حدث من قبل في مناسبات أخرى. لقد سبق له أن كان عالم اجتماع مهماً، ويعرف اللعبة السياسية، كما أن له تقديراً عالمياً عظيماً ويعرف كيف يتفاوض مع الجميع. وهذا أمر هام في السياسة إذا نظرنا إليها باعتبارها فن المباحثات والتوافق.

- في القرن الماضي كان هناك العديد من الحروب والكثير من الدماء التي سفكت، نحن لا نعرف عن أي شيء دراماتيكي سيحدث في هذا القرن، كما سبق لك أن قلت بشكل واضح. لكننا نواجه، كما يقول ساراماكو في كتابي بنهاية الحضارة. ونحن لا نستطيع الإحساس بما ستكون عليه الحضارة التي هي في طور الولادة الآن. كيف تشعر وأنت ترقب نهاية هذه الحضارة؟ أهو الخوف أم الأمل؟

- من الصعب التنبؤ بالمستقبل. ما أستطيع قوله هو أن الأمر برمته يتوقف على ما سيحدث في الخمسين سنة القادمة. لقد أرسوا معالم الألفية الجديدة، والكثير يتوقف على ما إذا كان الناس

يقررون الانطلاق في مسعى روحي ثابت وجدي. لقد أكد مالروكس ذلك بقوله إن هذا القرن إما أن يكون روحياً أو لا يكون، ويقول آخرون بأن القرن سيكون نسوياً. وعلى النقيض من ذلك فإن الخطر يكمن في قنبلة الأصولية التي يمكن أن تنفجر. والمفارقة كما أراها هي أن الأصولية تنطوي على الافتقار إلى الإيمان.

ـ وما العلاج الممكن لهذه الموجة الأصولية الجديدة التي تحيط بنا؟

ـ قد يبدو ما أقوله عادياً أو مبتذلاً. لكن من الضروري الفهم بأن مسارنا الروحي يجب أن يكون بحثاً عن المسؤولية الفردية وليس التفويض بها إلى القادة والزعماء. كما أن من الضروري الإعلاء من قيم التحمل والانفتاح. فكرة أن ثمة متسعاً لكل شخص من أي قطاع أو دين، من أي سياسة أو ثقافة. يجب ألا يفرض أحد وجهة نظره على العالم. وكما قال السيد المسيح «إن في بيت أبي منازل عديدة». فما من سبب يدعو لأن يعيش الجميع في الطابق نفسه أو الأفكار نفسها. والغنى يكمن في التعددية والاختلاف. وماعدا ذلك فهو فاشية. إن الأصولية تعود بنا إلى أسوأ عمق في ظلامية الماضي.

ما يجب قوله هو أن المرء يمكن أن يكون ملحداً أو مسلماً أو كاثوليكياً أو بوذياً أو من اللاأدريين، لا يهم ذلك فكل شخص مسؤول عن ضميره الخاص. وعكس ذلك يقود إلى الحرب وبشكل يستعصي على العلاج، لأنه يرى في الآخر المختلف عدواً.

ـ هل تحدثت في المنتدى الاقتصادي العالمي الكبير في دافوس حول مخاطر العولمة الروحية؟

ـ أدهشني في دافوس أن أجد أن الممسكين بالسلطة السياسية الاقتصادية حالياً هم أيضاً مهتمون بقضايا الروحانية الجديدة. إنهم ليسوا أنصاراً للأصولية بل للحرية الروحية. لقد تأثرت، على

سبيل المثال، بشيمون بيريس، الذي شرح لي فكرته عن تحقيق السلام في الشرق الأوسط. قال لي بأن من الضروري أن «نخصص السلام» أي أن نجعله أمراً ذاتياً متعلقاً بكل شخص، أي أن علينا البدء بكل شخص يعشق السلام ونجعل منه شغل حياتنا. وهذا يتضمن إعطاء الأولوية للإنفتاح مقابل الانغلاق على الذات. ومن المهم أن تأتي هذه الفكرة من إسرائيل بالذات.

ـ ما هو خوفك الأعظم في هذا القرن من العولمة؟

ـ إنني قلق من كون فكرة العولمة الاقتصادية قد تحمل معها عولمة الله. وبالطريقة نفسها فإن فكرة الثقافة المتجانسة المعدة على مقياس كل شخص ترعبني. أنا مذعور من فكرة الإله الواحد النموذج المُلزم لكل فرد كنقيض لما هو فردي، ولما يمكن اكتشافه بالصنعة الوجدانية لكل كائن بشري. إن الثقافة والدين يجب أن يكونا تعبيراً عن روح الفرد. والمجموعة ذاتها من المؤمنين يجب أن تتألف من أناس أحرار ومختلفين في الأصل، ولكل منهم غناه الروحي الخاص به. إن الخطر الكبير من السوق المُعولَمة يكمن في إنتاجها ثقافة كونية يحكمها العقل. إن المسافة بين ثقافة كهذه وبين النازية الجديدة هي مجرد خطوة صغيرة.

ـ أنت تذكر دائماً الصراع، المعارك، «فارس النور» موضوع أحد كتبك. يمكن للمرء أن يفكر بأن «فارس النور» هو الأقرب إلى المحارب من أجل السلام. فما هو المميز حول «فارس النور» الحقيقي؟

ـ الأمر بسيط جداً. على المستوى الشخصي، قبوله بذاته كشخص غير قابل للاستقطاب عن طريق التخوين، ويصارع ضد هذا التخوين متابعاً سعيه الحثيث لتحقيق صيرورته الخاصة. وعلى المستوى الجمعي تجنبه كل أشكال الأصولية الثقافية والسياسية والدينية، متفادياً كل شيء يمكن أخذه كعملية إقصاء للآخرين ممن قد يكونون مختلفين. وبأن ينفتح بحماس على كل الخبرات الجديدة

من تواصل وتضامن، وإن سمحت لي باستخدام كلمة حب، هذه الكلمة التي عُهرت كثيراً.

- في إحدى المناسبات وتحت عنوان «أنا أؤمن بإيطاليا» تحدثت عن «أخلاقية المجازفة». فكيف تعرفها؟

- أخلاقية المجازفة بالنسبة لي تشمل المقدرة على الاستمرار بكونك مقداماً، رغم حقيقة أن كل ما حولك يصرخ مطالباً بالركون. والحقيقة أن المجتمع يفرض قيوداً أكثر على سلوكنا. إن الجرأة على انتهاك هذه القواعد هي بالتحديد مجازفة المعرفة الحقيقية والتي تنطوي دائماً على قطع الارتباط مع الصيغ التقليدية المطلقة. هنا تكمن حكمة الجنون، التي هي موضوع روايتي الأخيرة كما تعلم.

- هل أنت واحد من أولئك الذين يعتقدون بأن التقنيات الجديدة وآخر التطورات العلمية، هي في الحقيقة، منافية إلى حد ما لتطور الروح؟

- لا. صحيح أن العديد من الناس يعتقدون بأن التقنية قد دمرت كل شيء، وأنها قد انتزعت منا إنسانيتنا. لكن أنا لا أعتقد ذلك، وهذا واحد من أشياء قليلة اختلفت فيها مع ساراماكو عندما أفصح عن مخاوفه من التكنولوجيا في كتابه.

- هي ليست مخاوف بالضبط، فهو يقول أنها ليست لجيله، فهو قد وصل متأخراً جداً، رغم أنه صحيح كما يقول بأن رسالة بالإنترنت لا يمكن أن تلطخها دمعة.

- ما أود قوله هو أن التكنولوجيا والتقدم العلمي، من الإنترنت إلى الهاتف المحمول وكل ما بقي من أشياء جديدة تتساقط علينا كالمطر، تشكل جزءاً من سيرة البشرية لتجعل عملنا أكثر سهولة وأريحية. والمهم ألّا نحول هذه الأشياء إلى آلهة، بل أن نعرف كيف نستخدمها من أجل ما صنعت له، وبالتحديد أدوات لجعل حياتنا

أسهل ولمنحنا المزيد من المقدرة على التواصل مع نظرائنا من الناس. لأنه لا تنسى أن الخطيئة الأعظم للبشرية هي عدم التواصل والعزلة غير المرغوبة أو المحبوبة، ناسين أننا قد خلقنا ليجد أحدنا الآخر وليكون كل منا مرآة الآخر. وكل شيء من شأنه أن يسهل تلاقينا وتواصلنا، يسهم حتماً في أن نصبح أقل تقوقعاً وأكثر تعاطفاً.

5

النسوية

«إن حياتي بمجملها قد حُكمت بالطاقة النسوية، بالمرأة».

«قبل أن أقدم على معرفة الأنثى، ما كنت لأعرف معنى الحنُو».

من غير الممكن معرفة باولو كويلهو دون فهم الدور الذي لعبه العنصر النسوي في حياته وعمله. وكما يعترف في هذه الحوارات معه، فإن المرأة قد احتلت ولم تزل تحتل موقعاً أساسياً في حياته. إنه، وهو الذي شق بالمجمل طريقه فارس النور، طريق الصراع المتماهي مع هويته الذكورية، قد قرر في أحد الأيام أن يكتشف المرأة التي هي أيضاً بجانبه. وكان ذلك عندما واجه عنصراً جديداً يقود حياته وهو الحنَو، تاركاً نفسه لتجرّه الحياة دون أن يحاول دائماً الدفاع عن نفسه. كان ذلك أيضاً عندما اكتشف الجانب النسوي للإله، إن كتبه لا يمكن فهمها الآن دون تلك الرؤية التي يملكها عن المرأة وما تمثله داخل وخارج ذواتنا. اثنان من كتبه: «برايدا» و«فيرونيكا تقرر الموت» يحملان عناوين باسم المرأة، وفي العديد من الكتب الأخرى نجد المرأة تحتل شخصية أساسية. لكن العمل الذي يوضح على الوجه الأمثل الجانب النسوي لديه ربما يكون كتابه: «على ضفة نهر بييدرا جلست وبكيت» والذي كتبه كويلهو من وجهة نظر امرأة.

س ـ دعنا نتحدث عن الجانب النسوي فيك، لأنني مقتنع بأن هذا القرن سيكون وبشكل أساسي قرن النساء.

ج ـ وأنا أيضاً، متأكد بأن هذا القرن سيتأثر بالحضور المتعاظم للمرأة في المجتمع. إن الرجل ينهي هذا القرن بأزمة هوية

أكبر بكثير مما لدى المرأة، التي على الأقل، تعرف ما تريد أكثر من الرجل وتعرف الاستقلالية التي تفتقر إليها لكي تنتزعها، بعد قرون من الهيمنة المطلقة للرجل.

وبالقدر الذي يعنيني، نستطيع أن نتحدث عن شيئين: عن المرأة في حياتي وعن المرأة التي هي أنا، طالما أنني أشعر بقرارة نفسي أنني رجل وامرأة في آن معاً.

- دعنا نبدأ بما كانت تعني لك المرأة في حياتك.

- الحقيقة هي أن حياتي برمتها قد حكمت، بشكل أو بأخر، من قِبَل الطاقة النسوية أي من قِبَل المرأة. نحن في هذه الجلسة في جو من الاعتراف الكلي لذا دعني أخبرك شيئاً شديد الخصوصية، وبالغ الترميز لعلاقتي مع المرأة لأن ما حصل لي مع حبي الأول هو ذاته ما حدث لاحقاً مع كل النساء اللواتي قابلتهن في حياتي، بما في ذلك زوجتي الحالية كريستينا.

كنت أرغب كثيراً أن أشتغل في المسرح، لقد كان حلم حياتي إلى جانب كوني كاتباً، كما سبق أن قلت لك. لكن لم يكن لدي بنس، لأنني لم أكن أكسب أية نقود. كما كنت أيضاً محاطاً بالمشاكل مع أسرتي والتي لم تكن تحتمل نزواتي الفنية، وكانت تتوقع مني السير في مهنة أكثر وقاراً كأن أكون محامياً أو ما شابه. كان ذلك عندما ألزموني مصحاً عقلياً. كنت كالنعجة الجرباء في قطيع الأسرة، لكنني، كالمحارب الجسور، تابعت معركتي من أجل حلمي للعمل في المسرح.

- وجاءت المرأة لتكون ملاكك الحارس؟

- أجل، وقد كانت واحدة من أصعب المراحل بالنسبة لي، رغم أنني أتبين الآن بأنني كنت أكوّن عزيمتي بكل تلك التجارب، فإن كنت أستطيع الآن أن أعيش بسلام ودون صراعات داخلية، فأنا أرد ذلك

كله إلى تلك المعارك مع أسرتي، والتي كان يمكن لها أن تدمر حياتي وإلى الأبد، ولكن، وشكراً لله، فقد ساعدت في أن تروض روحي لصراعات مستقبلية.

على أية حال، في ذلك الوقت، كنت ما أزال آمل بالعمل في المسرح لكني لم أكن أعرف كيف أصل إلى ذلك، حتى جاءت امرأة وكانت فتاة تقريباً، ودخلت حياتي. كنت في الثامنة عشرة، وكانت هي في السابعة عشرة. لقد شكلت رمزاً في مسيرة حياتي.

- بأي معنى؟

- سأقص لك ذلك، لأن هذه الأحداث تنبئ الكثير عن جوهر الكائنات الإنسانية، وفي هذه الحالة المحددة، عن جوهر المرأة. فعندما بلغت هذه الفتاة الثامنة عشرة، كما هي العادة في البرازيل، أقام لها أهلها حفلاً كبيراً تتلقى فيه الفتاة الشابة وقد اجتازت الصبا إلى سن الرشد هدايا من الأهل والأصدقاء. كان اسم الفتاة فابيولا، وكانت شقراء، فائقة الجمال، بعينين زرقاوين ولا بد أنها كانت متحمسة للهدايا التي استلمتها. كانت تلك أول حفلة كبيرة في حياتها. والحقيقة أنني كنت أشعر بالانكسار وأنا بقربها، لأنني لم أكن أملك بنساً واحداً وكان علي أن أطلب منها النقود حتى لشراء سجائري. كان الوضع عسيراً جداً.

- هل دعتك إلى الحفلة العائلية؟

- لا، بل فعلت ما هو أكثر من ذلك. دون معرفتي بأي شيء طلبت من أصدقائها وأقربائها أن يقدموا لها نقوداً بدل الهدايا. وبعد أن جمعت كل شيء جاءت إلي قائلة: باولو، إن حلمك هو المسرح، حسناً ستحصل عليه. طلبتُ مالاً بدل الهدايا وهاهو المال، بوسعك الآن أن تحقق حلمك الكبير.

- وهكذا استطعت العمل في المسرح.

- بدا الأمر لا يصدق وانفتح أمامي طريق جديد. في البداية

ساعدتني حتى في عملي. ومرت الأعوام حتى وقفت على قدمي ووجدت الأبواب مفتوحة أمامي. كنا قد توقفنا عن مقابلة بعضنا في تلك الأثناء. لكن في أحد الأيام، وعندما كنت أعمل في محطة كلوبو التلفزيونية، والتي كانت أهم محطة في البرازيل، كنت أكتب نصوصاً ومخطوطات برامج، حين ظهرت لي هناك.

ـ أرادت أن تعيد العلاقة؟

ـ لا، بل كان الأمر أسوأ بكثير، جاءت تطلب مني خدمة ولم أسدها لها. لقد جعلني الله ألامس قاع افتقاري إلى الأريحية. سأحكي لك، جاءتني فرحة وقالت: «باولو، أنت لا تعمل في المسرح، بل تكتب نصوصاً تلفزيونية، هذا رائع». وأضافت: «أريد أن أطلب منك خدمة. أنا أعرف أن المنتج الذي تعمل معه يمتلك مسرحاً، وأريد منك أن تقدمني له، فأنا أود أن أصبح ممثلة». كان ماضيَ يعيد نفسه في هذه المرة، حين أردت العمل في المسرح ساعدتني هي لأحقق ذلك وبكرم لا يصدق، مقدمة لي ما تلقته في الحفلة من هبات.

ـ وأنت نسيت في تلك اللحظة ما فعلته من أجلك؟

ـ لا، لم أنسَ، بل الحقيقة أنني كنت جباناً، لأنني لم أجرؤ على طلب ذلك من المنتج الذي أعمل عنده. قلت لها: «فابيولا، أنا لا أستطيع مساعدتك». فخرجت مبتعدة بحزن لا تلوي على شيء. كنت عديم الإحساس في تلك المرة، وفكرت في نفسي فقط، لكن بعد عام أدركت ما قد فعلته وأحسست بخجل مشين وتمنيت في أعماق قلبي أن يمنحني الله فرصة أخرى لأطهر وجداني المذنب.

ـ وهل استجاب الله لتمنياتك؟

ـ نعم ياجان، لأن الله يجعلك أولاً ترى أسوأ ما في نفسك ثم يعطيك بعدها فرصة للخلاص.

في النهاية غيرت فابيولا رأيها بشأن الذهاب إلى المسرح،

وانهمكت في مجال النحت. حققت نجاحاً، إذ كان لديها موهبة فائقة. وفي إحدى المرات، وكنت قد أصبحت أبَانها كاتباً مرموقاً ومشهوراً في البرازيل، صادفتها في أحد البارات. قالت: «كم هو عظيم منك يا باولو، إنك تحقق نجاحات عظيمة في كتبك». وأحسست بخجل رهيب بعد أن حدث ما حدث، وقلت وأنا أنظر في عينيها: «لكن كيف ما زلت تستطيعين أن تكوني لطيفة معي في حين كنت أنا بهذه الصفاقة معك؟» لكنها فقط تظاهرت بأنها لم تسمع. لم يكن عليَّ أن أطلب منها السماح، وهذا تماماً ما كنا نناقشه في المرة السابقة حين قلنا أن الأريحية القصوى للروح هي عندما لا تحتاج أن تصفح لأنك لم تشعر بالإساءة، لأن الصفح يكون دائماً في اعتبار نفسك الأرفع بشكل من الأشكال، فتُنزل بذلك الآخر الذي تصفح عنه.

ـ وهي علاوة على الصفح فقد نسيت كل ما حدث بحيث لا تدعك تشعر بالانكسار.

ـ بلا شك. لكنها أعطتني فرصة جديدة، قالت: «لا تقلق بشأن الماضي، ربما كان من الأفضل لي أن لا أذهب إلى التمثيل. فأنا سعيدة الآن في العمل بالنحت. وأود أن أطلب منك خدمة أخرى». أحسست إشراقاً في داخلي وقلت: «اطلبي، اطلبي مني ما تشائين، فلن أخذلك هذه المرة». أخبرتني بأن حلمها أن يكون لها منحوتة من أعمالها في إحدى الساحات العامة في ريو دي جانيرو. أجبتها قائلاً: «انظري فابيولا، لا تهمني التكلفة فسيكون لك ذلك، سأتعهد التمثال وأتدبر أمر الرخصة لينصب في إحدى الساحات العامة وأدفع التكلفة».

ـ وهل تم الأمر؟

ـ بالطبع. إنه في ساحة سيدة السلام. تستطيع أن تذهب وتراه هناك أن شئت، المنحوتة تمثل طفلين، هما كلانا. لقد أرادت أن تضع عليها لائحة تعريف تقول بأنها هدية مني، لكني رفضت بشكل

مطلق وأخبرتها قائلاً: «لا. أنا لا أهب لك أي شيء، بل أنت من منحني الفرصة لإمكانية التعويض عن خطيئة قديمة». إنها قصة بالغة الأهمية لفهم حياتي ولهذا أردت أن أخبرك بها.

- إن تلك المرأة قد أعطتك الفرصة لتحقق الجانب الأفضل من نفسك إضافة إلى الإظهار لك عن الجانب السلبي فيك.

- الحقيقة أن كل النساء اللواتي مررن في حياتي كنَّ قد طرقن بالي في فتراتي العصيبة. ليمسكن بيدي، ويصبرن عليَّ ويجعلنني أغير اتجاهي الخاطئ.

- حتى في حياتك الراهنة، وزوجتك كريستينا أيضاً؟

- أجل وبالمطلق. فقد أصبح لنا معاً ثمانية عشر عاماً. لقد شجعتني على الكتابة. قالت لي ذات يوم: «أتريد أن تكون كاتباً؟هيا إذن، سنسافر». ومضيت عبر تجارب عديدة هامة. قابلت العديد من ذوي النفوذ والتأثير، والشكر لها في ذلك، فقد كانت الشريكة الرائعة طوال الوقت. وأخيراً وبعد أن جاء النجاح، ساعدتني للاستبقاء على بساطتي، وتجنب الغرور. رافقتني دائماً في مساري، ولم تحُلْ أبداً بيني وبين ما أسعى إليه. قدَّرتني دائماً، دعمتني، وزودتني بالحماس في كل مرة كنت أفقده، كما ساعدتني على الوقوف ثانية كلما سقطت.

بالطبع، لدينا ما نختلف حوله، شأننا كل الناس. فأنا الآن أقضي مئتي يوم من العام تقريباً بعيداً عن المنزل لكنني دائماً أشعر أنها قربي، وهي تتابع بحب الاهتمام بالمؤسسة وتحقق ذاتها في رسومها التي تحبها بصدق.

- كيف تم اللقاء بينكما؟

- في لحظة عصيبة. تم اللقاء عندما كنت ممسوساً، كنت متورطاً مع الفرق الشيطانية. أول مرة جاءت فيها إلى بيتي كان لدي كتاب عن عبادة الشيطان على الطاولة، سألتها: «ماذا ستفعلين

الليلة؟»، وأجابتني بأنها ستغني مع الإنجيليين في الساحة العامة، لأنها كانت عضواً في كنيسة الإنجيليين آنذاك. ومنذ تلك اللحظة أصبحت رفيقة حياتي. هي تعلم أنني أحب النساء لكنها لا تشاكسني حول ذلك، إنها تظل مخلصة لقيمها ونحن نبقى مع بعض يجمعنا الحب.

ـ وشريكاتك السابقات؟

ـ كن جميعاً معي أفضل مما كنت معهن. لقد أخبرتك عن فابيولا. زوجتي الأولى كانت تدعى فيرا وكانت يوغسلافية، وأكبر مني بعض الشيء. كانت في الحادية والثلاثين حين كنت في الحادية والعشرين. لقد علمتني كل الأشياء الأكثر أهمية عن العلاقات، من الجنس وحتى المقدرة على الحوار. زوجتي الثانية هي التي أطلق عليها زوجتي التي ستظل بلا اسم، لأنها كانت الزوجة التي اعتقلت معي من قبل رجال الجستابو(*)، والتي تصرفتُ معها بمنتهى الجبن. كما أخبرتك سابقاً. والزوجة الثالثة، سيسيليا التي تزوجتها فعلياً، وكانت بالغة الأهمية بالنسبة لي. كانت شابة في التاسعة عشرة، وكنت في التاسعة والعشرين. لقد اشتغلت معي في شركة بوليغرام للموسيقى، ورغم اعتباري قد عدت إلى وضعي الطبيعي آنذاك، فقد عاملتها بشكل بالغ السوء وعانت معي تجارب ممضّة. هكذا كنت على العموم، ما كان لي أن أرتقي إلى أي شيء لولا وجود أولئك النسوة في حياتي. وقد كن جميعاً أكثر نضجاً بكثير مما كنت عليه. حتى اليوم، علاوة على كريستينا، زوجتي الحالية، التي تحافظ على اتزاني، فإن كل علاقاتي المهنية هي مع نساء، بدءاً من وكيلات الأعمال الأدبية وحتى المحررات. النساء دائماً حاضرات في كل لحظة من حياتي.

ـ لا بد أن هذا مرده إلى كونك تحسن الارتباط معهن، إذ ليس

(*) الجستابو هي التسمية التي كانت تطلق على الأمن العسكري في البرازيل في فترة الحكم الديكتاتوري. م.

كل الرجال يوقظون هذا الحب في المرأة، لكن ماذا عن الجانب الأنثوي في شخصيتك؟

- أقول لك الحقيقة، من ناحية الجانب الأنثوي الداخلي في شخصيتي، فقد أغفلته. بما أني المحارب الذي أنا عليه، الراغب في خوض المعارك، فقد غذيت الجانب الذكوري أكثر. ولهذا لم أعرف الحنو أو الشغف للحياة حتي بدأت أكتشف بأنني أيضاً أمتلك امرأة في داخلي، والتي تشكل بعداً بالغ الأهمية، وبدونه لا يمكن لنا نحن الرجال أن نكون كاملين.

- ومتى بدأت تصبح مدركاً لحاجتك إلى هذا الجانب الأنثوي فيك؟

- كما قلت لك، فقد صارعت طوال حياتي ضد العقبات التي وجدتها في طريقي. اتخذت قرارات مهمة، مثل التخلي عن المخدرات. لكن الحياة بمغرياتها كانت تعترض طريقي. كنت أستاء أحياناً، وأقول لنفسي: «أنت لا تعرف شيئاً عن الحياة، ولا تملك التحكم في أي شيء». فكنت أسترخي، وأدع نفسي مع سجيتها، كنت أشعر بتحسن كما لو أنني أدع الحياة تقودني، لكن المشاكل سرعان ما كانت تعود للظهور، وكنت أدرك بأن علي الإمساك بزمام الأمور ثانية، متخذاً القرار بأنه لا يكفي أن أدع نفسي أنجرف مع تيار الحياة.

- إلى أين...؟

- إلى أن قمت برحلة الحج إلى سانتياغو، والتي كانت التجربة الأكثر غنى في حياتي، حيث قررت أن أقوم بطقوس «الرام RAM» وهي طقوس روحية قديمة، تعود إلى أكثر من خمسمئة عام. وقد انبثقت من قِبل الكنيسة الكاثوليكية التي أنتمي إليها، إضافة إلى أربع مبادئ أخرى تُعرف «بالطريقة الأنثوية». آخرون يطلقون عليها «الطريق إلى روما». مهمة هذه الطريقة هي أن تبين لنا الجانب

الأنثوي في شخصيتنا. من تلك التجربة استوحيت كتابي «برايدا» الذي هو قصة امرأة قابلتها في ذلك الحجيج والتي لها تجربة تقارب كثيراً تجربتي. إن برايدا هي بشكل من الأشكال المرأة التي كنت أبحث عنها داخل ذاتي.

ـ ومما تتألف بالضبط رحلة الحج تلك أو «الطريقة الأنثوية» كما تسميها؟

ـ قد يظن العديد من الناس أن هذا سخيف، لكن بالنسبة لي كانت تلك الأيام السبعون أساسية ولا تنسى، فأنت تضع برنامجك الخاص دون أن يملي عليك أحد أين ستذهب. الشيء الوحيد هو أن تتذكر أحلامك. ليست الأحلام مرتبطة بشكل سلفي مع روح الأنثى؟ أثناء النهار عليك أن تحقق حلمك حرفياً.

ـ تقصد أن عليك ترجمة أحلامك؟

ـ لا. لم يكن الأمر مسألة ترجمة أو تفسير للأحلام، بل الأمر يتعلق بالقيام بما حلمت به. إذا حلمت على سبيل المثال بمحطة باص، فعليك الذهاب إلى أقرب محطة باصات لترى ما يحدث لك هناك. وبالمثل إذا حلمت بكراج. إحدى الليالي حلمت بكرة القدم، وكانت البرازيل والدانمارك تلعبان. حلمت بأن الدانمارك كانت تفوز بثلاثة أهداف مقابل اثنين. وعندما كانت النتيجة اثنين لكلا الفريقين، قلت: «لا بد من هدف ثالث» وكان ذلك في الواقع، وانتهت اللعبة بثلاثة أهداف مقابل اثنين كما حلمت، باستثناء أن النتيجة كانت عكسية لأن البرازيل هي التي ربحت.

ـ وماذا إذا لم تحلم؟

ـ أنا دائماً احلم بشيء ما، لأن الأمر ذاته يحدث إذا خضعت للتحليل النفسي، فليس الأمر أنك تحلم أكثر بل أنك تتذكر أحلامك بشكل أفضل. عندما قلت لمعلمي بأنني لم احلم إطلاقاً، قال: «بالطبع حلمت فأنت دائماً تحلم بشيء ما» أجبته: «حسناً. لقد رأيت كراجاً

في الحلم» فسألني: «وبماذا تريد أن تحلم، بمريم العذراء؟ اذهب واعثر على كراج وانظر ماذا يحدث».

ـ أما سبق إطلاقاً أن تولد لديك الشعور بأنك ترتكب خطأ؟

ـ ارتكبت خطأ فعلياً مرة. وكاد أن يكلفني حياتي. حلمت باسم «جيز» والذي هو اسم جميل واسم كنيسة صغيرة أيضاً في بلدة مجاورة. لكنني اعتقدت أن الاسم يشير إلى الجبل وظننت بأن علي أن اذهب إلى هناك. لكنه كان جبل عصي على التسلق. وكدت أن لا أنجو بنفسي في طريق العودة من هناك، والحقيقة أنني ارتكبت خطأ لأن الاسم كان يشير إلى المصلى في الكنيسة وليس إلى الجبل.

ـ ولِمَ تُدعى الطريقة بالأنثوية؟

ـ لأنك في رحلة الحج هذه، على عكس رحلة الحج إلى سانتياغو، حيث وفقاً لطقوس «الرام RAM» فإنك تطور بشكل خاص قوة إرادتك معتمداً الانضباط والجهد الشخصي، بينما وفقاً للطريقة النسوية فأنت تحقق تطوراً على نحو خاص، الحنو والتأمل، مقارباً أصول الحياة التي هي ما يطور الأرض. إن الحج إلى سنتياغو هو أكثر فعالية، وأقرب إلى خوض معركة. لهذا أميل إلى القول إنها أكثر «يسوعية» لأن اليسوعيين أسس لهم القديس أغناسيو دي ليولا الذي كان جندياً. في حين أن الطريقة النسوية أكثر تأملاً. أي أنها أكثر لا ترابية لانتمائها إلى أولئك الرهبان الذين كرسوا أنفسهم للتأمل واكتشاف الأغوار السحيقة داخل أنفسهم. إنها ورع أنثوي أكثر من اليسوعيين، لأن اللاترابيين أو المنذورين للصمت يعملون بأيديهم ويحرثون البساتين وهم يمارسون حالات التأمل الطويلة في الوقت نفسه. اليسوعيون أكثر نشاطاً وأكثر انخراطاً في معارك هذه الدنيا.

ـ في الواقع إن الآلهة الأولى في التاريخ كانت أنثى، وهي الآلهة جيّا، آلهة الخصب في الأرض، إلى أن، وبالتدريج أوجد الرجال

وكانوا محاربين، الإله الذكر. وكان عندئذ أن بدأت تتراجع مرتبة النساء إلى المرتبة الأدنى ليصبح الإله أشبه بالسيد المطلق، المحق، السريع العقاب والنهم إلى التضحيات.

ـ لهذا لا أحب الطريقة التي سَرَقت بها الأديان الله من وجهه الأنثوي: وجه الحنان وحب الحياة والناس والأشياء. إن الخلق في الحقيقة هو عملية أنثوية، بطيئة وغامضة وغير مرتبطة بمنطقنا الذكوري، بل بجوهر الأنوثة الذي هو حماية الحياة والحي وليس في الحروب التي تقتل ثمار رحمها.

ـ وما الذي تعنيه بيقظة الأنوثة؟

ـ ليس هذا على الإطلاق مصطلحاً جنسياً، بل هو أكثر ما يكون طريقة في التفكير الحر خارج أطر المنطق التقليدي. فكما تعرف يستخدم العديد من الكتّاب المرأة كشكل رمزي لشرح الانصهار بين الحدس والمنطق. إنه شيء ذو علاقة وثيقة بالأحلام. إن زوجة بوتيوس بلاتيوس، طبقاً للأناجيل، قد رأت حلماً لم يلقَ احتراماً من قِبل المنطق العقلاني لزوجها، وأخطأ الزوج في عدم الإصغاء إليها. وفي مسرحية يوليوس قيصر جعل شكسبير زوجة الإمبراطور المرتقب تحذره من خطر الذهاب إلى مجلس الشيوخ في الثالث عشر من مارس. فكر يوليوس قيصر منطقياً بأن المرأة لم يكن لها أن تفهم اللحظة السياسية التي كانوا يمرون بها. لقد أخطأ هو الآخر.

ـ وهل كان سهلاً عليك التوحد ثانية مع جانبك الأنثوي؟

ـ لا. بل كان بطيئاً وصعباً، لأن علينا تدريجياً أن نخلّص أنفسنا من الثقافة التي خلقتها فينا المعرفة الرسمية والتي هي ذكورية دائماً، وتنتقص من القيم النسوية، كما لو أنه لم توجد أية فلسفة أخرى غير الديكارتية. إن الفلسفات الباطنية قد وجدت أيضاً، وهي لا تنظر إلى الأشياء على وجه الحصر بمنظور المنطق الديكارتي القائل باثنين + اثنين = أربعة. إننا باستخدام المنطق

فقط نفقد التواصل مع الغامض ومع الرغبة في المتخَيل. لهذا أنا أحب فلسفة المفارقة الشرقية، التي هي ليست الخط المستقيم بل الدائرة حيث يمكن للشيء أن يكون أولا يكون في آن معاً، لأن الحياة ليست أوتوماتيكية كالإنسان الآلي وذات استجابات معدة مسبقاً، إن الحياة لا يمكن التنبؤ بها ويمكن أن تتغير في أية ثانية.

ـ بخصوص مقولة اثنان + اثنان = أربعة، في المادية الكلاسيكية، فقد قال الفيلسوف الإسباني فرناندو سافاتير في كتاب حوارات كهذا، إن ردود الفعل العاطفية لا يمكن قياسها، في حين أن الذكاء يعمل دائماً بكميات ثابتة يمكن إحصاؤها، فاثنان + اثنان = أربعة في الرياضيات، في حين أن حالتين من البؤس مضافاً إليهما حالتين من البؤس سابقتين لا يعطيان أربع، بل يمكن أن يشكلا ما يجعلك تلقي بنفسك من النافذة.

ـ هذا رائع.

ـ إن ما يحدث هو أن معرفتنا وخاصة في الغرب، وعلى درجة أقل، على سبيل المثال في الثقافات الأفريقية ـ هي ذكورية في الأساس.

ـ أنا مولع بالرموز التقليدية للحمامة والحية. أحياناً نحتاج إلى الرموز الملموسة لنفهم أنفسنا على نحو أفضل. الصورة الكلاسيكية التي أحبها كثيراً هي للعذراء الطاهرة والحية عند قدميها. إنها تعاليم الروح التي تنحّى عن المبدأ القائل بأن المهم ليس التراكم بل معرفة كيف نقرأ لغة اللاشعور الجمعي، أي مانسميه Anima - mundi «روح العالم»، وهذا يفضي إلى لغة الحمامة. ثم من ناحية أخرى هناك العرف الكلاسيكي للحية أو تراكم الحكمة. لا يمكننا أن نظل حصراً على المنطق أو على الحدس بل لا بد من التوفيق بين الإثنين.

ـ يتحدث ليوناردو بوف في كتابه «النسر والدجاجة» عن

الحكاية الأفريقية التي تشير إلى ما تقوله أنت، لأن النسر هو جزء من لغز الأعالي الذي نملكه في داخلنا جميعاً، رغم أننا ننساه، بينما الدجاجة التي تطير ملاصقة الأرض هي الجانب الملموس، المنطق الديكارتي حيث لا يوجد إلا حيز ضئيل للأحلام والخارق واللامتوقع. لكن هناك أيضا الواقع الذي علينا أن نبني عليه.

- إن كتاب بوف جميل. وفي الأناجيل أمثلة عديدة لذلك كقول المسيح مثلاً بأنه قد جاء ليحطم القانون ويشيده في الروح. إذ تأتيك أوقات يمنعك فيها احترام القانون وإطاعته من العيش، لكنك لا تستطيع أيضا أن تعيش في فوضى مطلقة.

مثال آخر من الأناجيل أحبه كثيراً هو حين يخبر المسيح تلاميذه بان عليهم إن مضوا بين الناس أن يكونوا حكماء كالثعابين ومسالمين كالحمائم. لهذا علينا أن نكون يقظين وأن نُبقي أقدامنا على الأرض من خلال كوننا واقعيين وموضوعيين. لكن علينا في الوقت نفسه أن نعرف كيف نتابع جريان الأمور، متمتعين بتأملها، محاولين أن نكتشف تلك اللغة السرية التي تخاطب الجانب الأنثوي اللاواعي فينا أكثر مما تخاطب عقلنا.

- أنت تميل إلى التحدث عن نظام أنثوي في التفكير، فعلام يشير ذلك؟

- أعتقد بأنه عكس ما يسمى عادةً بنظام التفكير الديكارتي. أن تفكر أنثويا يعني أن تفكر بطريقة مختلفة عن المنطق الذكوري الكلاسيكي الذي ساد الفكر كل هذه المدة، خاصة في التفكير الغربي.

- إن ما يحدث هو أن المرأة، رغم المعارك التي خاضتها لتحرز استقلاليتها، مازالت تشغل حيزاً محدوداً جداً في ما يطلق عليه المجال الأكاديمي، أي مجال المعرفة الرسمي. في إسبانيا على سبيل المثال: امرأة واحدة فقط سبق لها أن شغلت منصب رئاسة جامعة.

ـ وربما كانت تمتلك معايير ذكورية أعلى مما لدى الرجال.

ـ إن النساء العظيمات في التاريخ السياسي الحديث من غولدا مائير إلى مارغريت تاتشر كن نساء شديدات الذكورية.

ـ هذه هي المشكلة الكبرى. لهذا فإن ما أسميه النظام الأنثوي في التفكير هو شيء آخر. المرأة قداسة، طاقة أنثوية، إنها ما يمنعنا من إشادة الجدران بين ما هو مقدس وما هو دنيوي، إنها منطق الغامض العصي على الفهم والإعجازي. ذكرت لك ذلك سابقاً في الحديث عن الطريقة الأنثوية، إن أنت رأيت في الحلم كراجاً فعليك بالذهاب إلى كراج في اليوم التالي لترى ما الذي قد يحدث لك. إنه شيء يفتقر إلى المنطق، ولهذا هو أقرب إلى اللاعقلاني إلى الجديد وإلى ما هو مرتبط بأعمق جزء من كيانك. هذا هو الأنثوي بالنسبة لي.

ـ لقد اتفقنا بأن هذا القرن سيكون بالتأكيد أكثر أنثوية وأقرب إلى ما يشبه الرحم، عما كان عليه القرن المنصرم. أكثر سلاسة وأقل صلابة. فكيف تنظر إلى دور النساء في المستقبل القريب؟

ـ هو دور الرجال نفسه. لأن ما أتحدث عنه ليس النساء بل الأنثوية. انظر ما حدث لأكثر الحركات النسائية تجاوزاً: لقد حاولن السيطرة على جانب من السلطة لاستخدامها فقط بطريقة ذكورية. وهذه ليست الأنثوية. على النساء أن يعرفن كيف يوازنَّ الطاقة الذكورية مع طاقتهن الأنثوية تماماً، كما على الرجال أن يوفقوا بين الطاقة الذكورية والطاقة الأنثوية فيهم.

ـ أردت أن أسألك سؤالاً قليلاً ما نتحدث به نحن معشر الرجال. نحن نميل إلى القول بأننا كذكور علينا أن نكتشف المرأة بداخلنا لأننا لسنا مجرد ذكورة. وفي الحقيقة فإن الرجال يكتشفون الجوانب الأنثوية التي تنفي وجودها آلية الجسد، لكن مع ذلك لا نقبل بأن المرأة عليها أن تكتشف الجوانب الذكورية فيها، والتي هي

موجودة لديها، فنحن نريدها أن تكون مجرد أنثى. إن هذا يصدمني باعتباره موقفاً أنانياً متبجحاً. ولأننا نعتقد بأننا سنكون أكثر كمالاً إذ اكتشفنا الجانب الأنثوي فينا بينما ننكر على المرأة حقها في اختيار الجانب الذكوري الذي لديها. فهل يبدو لك هذا منصفاً؟

- نعم، وأنا أوافقك الرأي يا جان لكن هذه مشكلة لا تتعلق برأيي أو رأيك بل تتعلق بهم. علينا أن نتوقف عن ممارسة الدور الأبوي مع المرأة. أنت على حق فإن كنا نكتشف أنوثتنا فإن من الإنصاف لهن أن يطورن رجولتهن حتى وإن كنا نحب منهنَّ أن يكنَّ نسوة حصراً. لكن وحدهن عليهن أن يخضن الصراع. عليهن استلام زمام المبادرة والصراع ولا نستطيع نحن أن نأخذ دورهن. إذا عرفن كيف يصارعن سوف يكتشفن ماهية الطاقة الذكورية.

- إننا نأخذ الأمر كمسلمة بأن المرأة يجب أن تكون مجرد أنثى، وطالما أننا أدركنا مجتمعاً تتطلب السلطة فيه نزعات ذكورية، فإذا قبلنا بأن المرأة هي أنثى في الأصل، وبأنها تنتمي إلى عالم من الغموض والسلبية والخلق الفني في أحسن الأحوال فنحن نستبعدها بشكل آلي من مواقع السلطة.

- أنت على حق لكنني مع ذلك أظن أن هذا ليس أمراً نستطيع أن نحله نحن كرجال. فالنساء وحدهن من عليهن أن يتبين ذلك ويصارعن لتحقيقه. تماماً كما قمن بتمردهن النسائي الأول للتخلص من التمييز، وكسبن على الأقل، نظرياً، حق المساواة في التقدم إلى مواقع سلطوية، الآن عليهن أن يخضن المعركة الثانية. وعندما يمتلكن السلطة، فعليهن تجنب استخدامها كما لو كانت ذكورية حصراً لأنهن بذلك يفشلن في تحقيق أي شيء ما عدا استبدال الرجل بالمرأة ولن يتغير بذلك أي شيء.

عندما تصل المرأة إلى مركز السلطة عليها أن تفعل كل ما هو ممكن لتمارس هذه السلطة دون أن تنسى خصائصها الأنثوية، وطالما أن كل البنى المجتمعية هي ذكورية في الأساس، فإن عليها

أن تكسر هذا القالب الجامد وتسرب من خلاله حكمة أنثوية لتشيد مجتمعاً تستطيع العناصر الإيجابية من ذكورة وأنوثة أن تعيش فيه جنباً إلى جنب.

6

السحر

«السحر الأسود شيطاني لأنه يجعلك تشعر بأنك كلي القدرة».

«إنني أعتبر نفسي ساحراً مشعوذاً لأنني شخص حاول أن يطور مواهبه وقدرته. وكل شخص بهذا المعنى يمكن له أن يكون ساحراً».

قبل اكتساب شهرته ككاتب، كان باولو كويلهو معروفاً في العالم كله كساحر تنسب له قدرات خاصة، والآن يفضِّل أن يعرَّف كمؤلف كتب يحترم الصراع على حقوق ترجمتها في العالم كله. هو يود في هذه الحوارات أن يفصح عن تجربته المريرة في الماضي، ليس مع المخدِّرات فقط بل مع كل أنواع السحر، بما في ذلك أكثرها ظلامية. وتبدو الطقوس الشيطانية مقارنة بها شيئاً لا يذكر، كما يؤكد. وقد تخلى عن ذلك عندما توصل إلى أن هذه الممارسات كانت تقوده إلى حافة الهاوية، لقد نفذ إلى مهاوي الجحيم. ومايزال كويلهو يعتقد بالبعد الإغوائي للحياة، معتبراً أن كل شخص منا قادر على تطوير استعداد كامن مدفون في داخلنا جميعاً. وإن أي شخص يريد ذلك يستطيع أن يقرأ اللغة السرية المستورة للأشياء في جوهر هذه الأشياء.

س ـ هل ما زلت تؤمن بالعنصر السحري في الحياة؟

ج ـ كليةً.

ـ وأية فروق تراها بين السحر والسحري؟

ـ السحر هو الأداة والسحري هو نتاج تلك الأداة. السحر حيز، إنه كالمطرقة، والمجرفة مجرد أداة. أما كيف نستخدمها فهو السحري.

ـ هل ما زلت تشعر بنفسك ساحراً؟ فالعديدون يقولون بأن باولو كويلهو كان فيما مضى ساحراً.

ـ فيما مضى، لا. بل أنا ساحر شأني شأن كل البشر بالطبع، أنا أتبع التعاليم الروحية للكنيسة الكاثوليكية لكنني أعتقد جازماً بأننا جميعاً نمتلك مواهب لا نطورها لأن المعرفة الرسمية، ذلك الحيز الفارغ، تنكر هذه المواهب وتصنفها كخرافات أو ما شابه ذلك. أنا شخص أحاول أن أطور مواهبي وقدراتي. وهذا لا يجعلني أفضل أو أسوأ من أي شخص آخر.

ـ حسناً. دعنا نمضي أبعد قليلاً في شرح ما تعنيه بالسحر قبل الدخول في تجاربك السلبية الماضية.

ـ اسمع، إن ما تقوم به في هذه اللحظة هو بشكل من الأشكال ضرب من السحر لأنه طقس يعتمد كلية عليَّ وعلى ما إذا كنت أشعر بالرغبة في إطلاعك على أي شيء، وفي الوثوق بك أم لا. وبالنسبة لي في هذه اللحظة أنت لست مجرد نفسك بل أنت جميع قرائي وأنت كل فضولهم. ما ستقوم به هو استجوابي وهذه هي مهاراتك. إنه الشيء ذاته الذي قمت به في كتابك عن ساراماكو «الحب الممكن». عندما قرأت ذلك الكتاب رأيت أن هنالك أسئلة كنت أود أن أسألها كقارئ لكي أصل إلى معرفة ذلك الكاتب البرتغالي العظيم على نحو أفضل. إن شيئاً كهذا يبدو لي مقدساً لأنه يلامس الجزء الحميمي من كياننا.

ـ لكن أنت أيضاً كان لك تجربة مع السحر الهدام، السحر الأسود فكيف تتذكرها؟

(ما سبق كويلهو على امتداد ساعات الحوار التي قمنا بها أن كان أكثر توتراً مما كان حين لامسنا موضوع السحر. كان الوقت منتصف الليل حين أراد لنفسه فسحة من الوقت قبل البدء بالموضوع، لأن هذا الوقت بين الليل والنهار كان بالنسبة له مقدساً وساعة طقسية. كان مدركاً أنه على وشك أن يفصح عن لحظات هامة ومؤلمة من حياته وكان يجد صعوبة في البدء باستعادتها. طلب أيضاً طالما أنه سيتحدث عن السحر أن نسمح له

بإضاءة بعض الشموع، وإطفاء المصباح الكهربائي. وقام بذلك بنفسه).

- وهكذا سنتحدث عن تجربتك مع السحر، هذا العالم الذي قلَّ من يعرفونه، ومن المحتمل أن يهتم قراؤك جداً لمعرفتهم أنك قد أمضيت وقتاً في ذلك الوسط.

- سأحاول شرح الأمر حسب التسلسل الزمني، لأعطي وصفاً مرتباً، محاولاً أن أرى نفسي وأنا أتكلم. كنت قد حدثتك من قبل عن تجربتي مع المخدرات. لقد تلقيت تعليمي على يد الجزويت وهي تربية تقدم للمرء مفهوماً محدداً عن الله. بالنسبة لي - لا أدري بالنسبة للآخرين - فقد كانت تجربة سيئة عموماً، لأنني في مدرسة الجزويت تلك فقدت إيماني الطفولي. لأن محاولة فرض الإيمان هي أفضل طريقة للتمرد والانتقال إلى الطرف الآخر. لقد سمعت بأن فيدل كاسترو أيضاً تعلّم في الجزويت. فيما يخصني فإن التمرد على تلك الثقافة الدينية المفروضة كان يعني الانتقال إلى الماركسية. ومن هناك بدأت أقرأ ماركس وإنجلز.

- هل كان أيضاً زمن ديكتاتورية البرازيل؟

- ولهذا بالضبط بدأت أقرأ كل شيء محظور آنذاك. أحد الأشياء التي قرأتها كان الأدب الماركسي وكان يُعتبر شيطانياً. بدأت قراءة كل شيء وشعرت بأنني ملحد، لكن تلك التجربة مع الإلحاد استمرت فقط لفترة وجيزة، لأنني كنت أملك في روحي فضول الكاتب، فبدأت أسأل نفسي الأسئلة الكلاسيكية مثل: من أنا؟ وماذا أعمل في هذا العالم؟ وهل سأتوقف عن الوجود؟ ومن أين جئت. لست أدري كم كان لي من العمر. وكان في حوالى العام 1969 حين بدأت الحركة الهيبية تنتشر في البرازيل وإلى جانبها الباطنية.

- وأنت كنت مندفعاً تجاه تلك الحركة.

- تساءلت: لكن ما هذا؟ في البداية بدا الأمر كطريقة للخلاص

من الواقع، لأنني في تلك المرحلة كنت مفعماً بالأفكار الماركسية وكنت أعتقد أنني أناضل من أجل الناس والحرية وديكتاتورية البروليتاريا وكل ذلك، رغم أنني في الواقع أحسست بأنني منخور بالتناقضات لأنني كنت أناضل من أجل ديكتاتورية البروليتاريا وأخرج في المظاهرات لكنني في الوقت نفسه أحب «البيتلز». لقد كان ثمة شيء في داخلي أبعد من الماركسية الخالصة وذلك جعلني أقول: وأنا أيضاً أحببت المسرح يا سرجنت بيبرز.

ـ إن بحثك في العمق كان روحياً أكثر منه سياسياً.

ـ الحقيقة أنني كنت مشدوداً إلى عالم الروحانيات وكنت أفتش عن تجارب أعمق. إذ أن تربيتي التقليدية والدين المفروض فرضاً لم يقنعاني، وهكذا مضيت باتجاه ما هو أعمق، دخلت حقيقة في النظرية الهندية عن نشأة الكون، وبدأت بحفظ التراتيل، وممارسة اليوغا والتأمل وكل ما له علاقة بروحية الشرق.

ـ أكنت عازباً آنذاك؟

ـ لا كنت متزوجاً من زوجتي الأولى وكان لديها مال، لذا ما كان علي أن أقلق بشأن أي شيء سوى القراءة. قرأت معظم الأشياء اختلافاً من «يقظة السحر» للويس باولس وجاك بيرغر إلى أدب المادية التاريخية. وكنت أعيش ضمن جماعة هيبية في تلك الأثناء، وفجأة خطرت لي فكرة شديدة الغرابة، فكرت: لو أنني كنت أعيش في العام 1928 وكنت أقود سيارة ومر في تلك اللحظة هتلر فدهسته وقتلته في حادث، هل كنت حقاً قد أغير حياة ملايين الناس دون أن أعلم بذلك؟ لكن الواقع الملموس هو أنهم كانوا سيضعونني في السجن لقتلي رجلاً. فلا هو كان يعلم بأنه سيكون هتلر الذي صار إليه فيما بعد ولا أنا كنت لأعلم بأنني أجهزت على قاتل الملايين المحتمل، لكنني كنت في الواقع قد غيرت بنية كاملة، مجتمعاً برمته، بل حقبة تاريخية وبالتالي العالم. وحين بدأت أفكر في هذه الأشياء قلت لنفسي: هذا جنون لا أستطيع أن أصدق ذلك، إن هنالك حقاً

أشياء أكثر مما يحدث على الأرض وأكثر مما باستطاعتنا الإلمام بها. وبذلك ومع تأثير الميثولوجيا الهندية بدأت أعيش تجارب مختلفة كما يفعل كل الناس الذين يباشرون مسعاهم الروحي.

ـ وكان هذا حين بدأت البحث عن رواد معلمين لإدخالك في هذا المسعى، في الوقت الذي لم تكن تعرف شيئاً عنه بعد.

ـ هذا صحيح. لقد وضعنا كل آمالنا وثقتنا في شخص انتهى إلى خداعنا، لكن في لحظة البدء تلك كان مهماً ولا غنى عنه بالنسبة لنا، لأنه أخذ بيدنا عبر متاهات الحياة وأسرارها. وبدأت بعدها بالوقوع بين أيدي معلمين عدة من طوائف مختلفة وفلسفات مختلفة عديدة، إلى أن جاء اليوم الذي قادتني به شخصيتي البالغة التطرف إلى البحث في الأكثر استغراقاً، والذي كان أقصى اليسار من أقصى يسار المسعى الروحي.

ـ أردت تمييز نفسك عن أصدقائك بالبحث عن أشياء مختلفة.

ـ نعم، لأجل هذا ولسبب آخر يتكشف لي الآن كم كان بالغ السخف: لقد كان بسبب رغبتي في إغواء النساء، فقد أردت التأثير بهن من خلال معرفتي بأكثر الأشياء غرابة. وتساءلت: أي مجمع سري يُعتبر الشاة العرجاء والأكثر حدة؟ وأُخبرت عن فرقة لا أود الإفصاح عن اسمها الآن. سأطلق عليها المدخل إلى الكشف، المنفذ إلى سفر الرؤيا. وتثنى لي مرشداً عظيماً.

ـ فأسلمت نفسك له.

ـ بدأت بقراءة كل شيء أستطيع العثور عليه عنه. وكنت قد مررت بالكثير من التجارب، وكان ذلك حين كنت أحاول الكتابة والعثور على صحافة بديلة. كان ذلك حين أصبح لي مجلتي التي أخبرتك عنها. احتجت آنذاك أن أكشف بقدر ما يمكن وبأسرع مايمكن عن تلك الشخصية، فذهبت لمقابلة أحدهم من أجل المجلة معتقداً بأنه يستطيع أن يساعدني. ولدهشتي فإن ذلك الرجل الذي

يُفترض أنه يعرف الكثير عن الموضوع، بالكاد كان لديه أية كتب. اعترتني الدهشة لأنني كنت معتاداً على أن الضليعين في المعرفة يمتلكون كتباً كثيرة.

(في تلك اللحظة من الحوار أخرجت زوجته كريستينا كاميرتها لتأخذ لنا صورة، قال لها كويلهو: «كريستينا لاتلتقطي صوراً. نحن نتحدث عن السحر والسحرة يقولون إن للصور قوى رهيبة. والحقيقة أن كاستيندا لم يسمح إطلاقاً أن تؤخذ له صور. ومات دون أن يترك صوراً له. أنا لست كاستيندا ومع ذلك...» لم تولي كريستينا أهمية لما قاله وضغطت على زر الكاميرا. كان الوقت ليلاً ولم يشتغل الفلاش. علق كويلهو قائلاً: «أرأيت؟ نحن نتحدث عن السحر وها هي صورتك لم تظهر. من فضلك يا كريستينا لا تشغليني عما أنا فيه. إنني أحكي تفاصيل شديدة الخصوصية من حياتي»).

- دعنا نرجع إلى هذا الشخص الذي ذهبت لإجراء مقابلة معه عن فرقة السحر الأسود من أجل مجلتك.

- تبينت أن حواري معه كان مثمراً، وأن الكتب الثلاثة أو الأربعة التي كان يملكها بدت عظيمة الأهمية. سألته عن مؤلفي هذه الكتب فقال: «أليستر كراولي». أتخيل بأنك قد سمعت به، لأنه قد أثر بالكثير من الناس. وذهبت لرؤية ذلك الرجل مع زوجتي، الزوجة التي لا أسميها، وقد ذهلنا بزيارته.

- وماذا كانت تلك الفرقة الباطنية؟

- كانت جماعة تشكلت في بداية القرن التاسع عشر وهدفها هو «الكمال المنشود مع الحرية المطلقة»، وهو شيء بالنسبة لشاب مثلي في الثالثة والعشرين من العمر كان يبدو الكمال المطلق. كتبت مرة عن هذه التجربة، بدأت من معرفتي براؤول وحتى قبل السجن ولم تدعني كريستينا أنشره. قرأته لأنها لم تكن تعرف القصة، قرأته

باهتمام بالغ وحين قاربت النهاية نظرت إلي وكأنها صورة لسيدتنا العذراء في إحدى ظهوراتها، وقالت لي: «لا تنشر هذا الكتاب. إنه كتاب عن الشر. إنه تجربتك مع الشر»، قلت: «لكنها مجرد تجربة مأساوية يا كريستينا». وأصرت قائلة: «إنها تجربة ساحرة، لكن، لا تنشرها لأنها يمكن أن تفسر على نحو بالغ السوء». وقد مسحت الكتاب من على الكمبيوتر. قضيت ليلة مرعبة، وفي اليوم التالي، وكنت تقريباً قد طبعت معظم الكتاب، ذهبنا إلى الغداء مع الناشر الذي قلت له: «ألقي نظرة على هذا العمل لأنك آخر شخص سيقرؤه». نظر إلي كما لو كنت مجنوناً، أخبرته بأنني سأتلفه. وفعلت. احتفظت فقط بفصل واحد يحكي قصة لقائي براوُول، أما البقية فقد أتلفتها.

ـ وماذا كان يسمى؟

ـ «المجتمع البديل»، على أية حال، علي أن أخبرك القليل عن كراولي، وهكذا ستفهم الأمور على نحو أفضل. إنه شخصية شديدة الغرابة في تاريخ السحر، الشيء الوحيد الذي لن أخبرك به هو اسم الجماعة السرية التي انضممت إليها، لكنني سأخبرك ماذا حدث لي فيها. إن رأيت وجهه على الإنترنت فستقول إنه وجه الشر، فكراولي هذا كان رجلاً بغيضاً ذو شخصية قوية جداً كالتي تظهر في فترة انحطاط في السحر الكلاسيكي، حيث توجد الجماعات السرية، الماسونية وبعض مجموعات التنجيم الإنجليزية. جاء هذا الرجل وقال: «كفى أسراراً». وبدأ ينشر كل الكتب التي كانت حتى ذلك الوقت محفوظة كأسرار وشكّل جماعته الخاصة. ومع هذه الجماعة أوجد أنظمة اجتماعية سياسية وإيديولوجية. كان لها كتابها الأساسي ككل التنظيمات من هذا النوع، مثل (DAS KAPITAL) والأناجيل ـ وكان يدعى كتاب القانون ـ والذي كان يزعم أنه قد أملي عليه من قِبل ملاك في القاهرة.

ـ وعلى ماذا ينص؟

ـ إنه يتضمن إعلان مبادئ، ذو صفاء بالغ ككل كتابات

كراولي. وبدأ يطور نظاماً من علاقات السلطة يمكن تلخيصه على النحو التالي: هناك الضعفاء والأقوياء وقانون الغاب: الضعفاء هم العبيد والأقوياء هم المتمكنون والأحرار. كل هذا مُعبَّر عنه بكتابة صوفية سحرية شديدة الترابط. واندفعت بشكل يجمع الانبهار واللامسؤولية بممارسة هذه التعاليم، وسرعان ما أعطت نتائج جيدة.

(صفحة ويب على الإنترنت تقول عن أليستر كراولي مايلي: شخصية غامضة ومثار لنقد متواصل، ليس فقط خلال حياته، المتميزة بأخلاقية العصر الفيكتوري المسيطرة، حين أصبح يعرف بأنه «الرجل الأكثر شراً في العالم»، بل حتى يومنا هذا ما زال اسمه في أوساط من يعتقدون بأنهم يعرفونه ويعرفون نظامه، تثير جواً من البغضاء والانحراف ليصنفوه على نحو غير منصف بالساحر الأسود أو على نحو عبثي إذا صح القول بالشيطاني. لكن ما يغفل عادة أو يستهان به في سيرة حياته هو أن أليستر كراولي كان رجلاً كرس نفسه من أجل مسعى روحي يقوم على السحر بالمعنى الأوسع للكلمة).

ـ في تلك الفترة آمنت دون تبصر بتلك الفرقة؟

ـ لأكون صادقاً تماماً، أقول إنني آمنت ولم أؤمن. آمنت دون تصديق رغم أنني تعرضت للإغواء. وكان ذلك عندما بدأت أقطع أشواطاً مع راؤول سايكساس وكان كما لو أن كل شيء حدث حالاً. فأخذت راؤول إلى تلك الفرقة السرية التي كانت منفتحة بشكل كامل دون شروط حيث يمكنك أن تكون مسخاً شريراً أو إنساناً رائعاً. فكل امرئ له مكان هناك. أذكر أن حرية كاملة كانت هناك في الجنس والتفكير وفي كل شيء بما في ذلك الاضطهاد، كانت المسألة تتعلق بالمضي بتجربة النفوذ حتى نهاياتها القصوى.

ـ ألم يخفك ذلك؟

ـ الحقيقة أنني نظرت إلى الأمر برمته دون الإيمان الكامل به، أو لنقل أنني فقط رأيت جانبه الإيجابي في ذلك الوقت. كنت غير متقبل لأي قيود، وكنت أتلمس تغيرات كثيرة في حياتي وحياة الأفراد الآخرين في تلك الفرقة. وفيما بعد بدأت أميز بأن ما يفصل السحر الأبيض عن السحر الأسود هو أحياناً شيء بالغ الخبث، لكنه ملموس على النحو التالي: في السحر الأسود أنت تحاول التدخل في مصير الآخرين. هذا هو الحد، الحافة، والهاوية. فأنت قد تذهب إلى الكنيسة، توقد شمعة إلى سيدتنا العذراء وتقول: «أريد أن أتزوج فلانة». في هذه الحالة أنت تمارس السحر الأسود، حتى لو أنك في كنيسة كاثوليكية. وتستطيع أن تذهب إلى مفترق طرق وتترك طعاماً للعفاريت طالباً منهم لقاء ذلك أن يشفوك لأنك لست على ما يرام، هذا سحر أبيض لأنك لا تحاول أن تؤثر بمصير أحد آخر. المسألة هي في التدخل أوعدمه بحياة الآخرين. لكن الأفضل هنا أن تسألني أسئلة لأن الموضوع كله بالغ الدقة.

ـ لا تقلق من ذلك. بل تابع في الأمر كما يتراءى لك.

ـ كان لكل ذلك قيمة رمزية عندي، كانت تشبه رموزاً في حالة حراك، وقررنا، أنا وراؤول حينذاك أن نضع موسيقانا في خدمة تلك الفرقة الباطنية، وفعلنا ذلك. فكانت الأغاني تخفي وراءها الإعلان عن مبادئ الفرقة ولو بشكل غير واع أو صريح. كانت سلسلة من المقاطع الموفقة المحكمة البناء لأن الشر يا جان يكون شديد الإحكام.

ـ وكيف بدأت ترى الأمر كهيمنة للشر؟

ـ آنذاك لم أكن أراه بعد كتجربة سيئة. رأيته تجربة ثورية، لأن كراولي كان يزعم أنه المنفذ إلى سفر الرؤيا. كان يقول: «أنا الحياة. أنا الحياة المنتظرة. لقد جئت لأغير مجتمعاً قائماً». كنت أرى الأمر جيداً وإيجابياً. مررت بسلسلة كاملة من الطقوس، رغم أنني رفضت بعضها، لأنني لم أكن أريد التخلي عن ممارسات دينية

محددة من طفولتي كالإيمان بالملاك الحارس والتقرب إلى القديس يوسف.

ـ هل كانت الفرقة ضد الدين بشكل عام؟

ـ نعم، كانت مناهضة للدين بشكل كامل، في الوقت الذي كنت فيه أنا نفسي ضد الكنيسة الكاثوليكية، كما أخبرتك سابقا. فقد نبذت معتقدات أهلي، لكنني في أعماقي لم أتخلَّ عن بعض جوانب إيماني القديم.

ـ متى بدأت تتبين أن تلك الفرقة جسَّدت الشر بشكل ما؟

ـ في أحد الأيام، قبل أن أُسجن ـ ولدي الآن أرقام هواتف بعض الشهود يمكنك أن تسألهم عن ذلك ـ كنت في منزلي حين بدأ كل شيء بشكل مفاجئ يسودّ أمام بصري. كان لديَّ شيء محدد لأقوم به في ذلك اليوم، لا أستطيع تذكره الآن. والمرأة التي لن أسمِّيها لم تكن في المنزل. قلت لنفسي «لا بدّ أنها تأثيرات جانبية خلفتها من الماضي بعض المخدرات الغريبة»، لكنني كنت قد تركت المخدرات آنذاك. كان هذا في العام 1974. كنت آنذاك أتعاطى قليلاً من الكوكايين، لكنني لم أعد أتعاطى المخدِّرات الإستوائية للعلاج النفسي.

ـ وما الذي حدث لك بالضبط؟

ـ كان الوقت مبكراً وبدأت، كما قلت لك، أرى كل شيء أسود، وأشعر بأنني قادم على الموت. كانت ظلمة مرئية، ماديةً، ملموسة. لم تكن من صنع خيالي، كانت شيئا واقعياً. انطباعي الأول كان أنني أُحتضر.

ـ وكيف كانت تلك الظلمة؟ هل كان باستطاعتك رؤية أي شيء؟

ـ نعم، كنت أرى، لأن الظلمة لم تكن تخيِّم على المكان برمته، كانت على جزء منه فقط. كانت كما لو أن هذه الشمعة بدأت تطلق الدخان فجأة، والدخان يجتاح المنزل. دخانٌ أسودٌ، أسود، يصبح

تدريجياً أكثر كثافة، وبالكاد يمكنك رؤية أيِّ شيء أحياناً. لكنه، والأدهى من ذلك، يدفعك إلى الرعب.

ـ هل كانت هناك أية ظواهر أخرى مرافقة؟ أم كان مجرد دخان؟

ـ لا، بل الأسوأ من كل ذلك ربما كانت تلك السلسلة المتلاحقة من الضجيج التي لا أعرف كيف أصفها لك، وفي الوقت نفسه الذي كان يتشكل فيه الدخان الأسود.

ـ هل كنت مع أحد، أم بمفردك؟

ـ كنت لوحدي فقط. كانت الشقة ملكي، وكنت أحسب أنني غنيٌّ وسعيد. لكن الظلمة التي غطت نصف الحيِّز من الأرض إلى السقف أرعبتني وانتهيت إلى فقدان السيطرة كلية على نفسي. أخذني مسٌّ، ميزت معه حضوراً للشر. في البداية ربطت ذلك بعلاقة مع امرأة كنت أراها في ذلك الوقت. وكنت قد مررت معها ببعض جلسات الإيحاء، لكنها أيضاً كانت أشياء كثيرة الإيجابية بالنسبة لي، رغم أنها لم تكن كذلك للآخرين.

ـ وكيف تصرفت وأنت تواجه تلك الظاهرة الغريبة؟

ـ لم أعد أذكر الآن إن كنت هتفت لأحدهم، أم أن امرأة من المجموعة هتفت لي. أظنها هي التي هتفت وقالت لي إن الشيء ذاته كان يحدث لها. أدركت عندها أن الأمر كان حقيقياً وليس مجرد هلوسة. كانت المرأة أيضاً هي الوحيدة التي تعرف الأكثر عن تلك الفرقة الباطنية. لم نتمكن من التواصل مع المرشد، إذ لم يكن لديه هاتف، فقد كان صعباً جداً الحصول على هاتف في الريو عام 1973. كنت في حالة سيئة، وفي منتهى الرعب. حاولت أن أتصرف وقلت لنفسي عليّ أن أنسى الموضوع، وأن أملأ رأسي باهتمام ما لأتخلص من الخوف، لكن العتمة كانت جاثمة لم تتلاشَ. عندئذ، ولكي ألهي نفسي، قررت أن أعدّ أشرطة التسجيل التي كانت في

المنزل، وكان هنالك الكثير منها، ولم يسبق لي أن أحصيت عددها. وحين أنهيت إحصاء الأشرطة بدأت أعدّ الكتب، لكن العتمة ظلّت ولم تتغير.

ـ وحين أنهيت إحصاء كل ما في المنزل، ماذا فعلت؟

ـ كنت لم أزل مكبلاً بالخوف، لذا فكرت بأن الحل الوحيد هو بالذهاب إلى الكنيسة، لكن قوة من نوع ما منعتني من مغادرة المنزل، وانتابتني هواجس قوية تنذر بالموت الوشيك. في تلك اللحظة وصلت المرأة التي هتفت لي، وكانت قد تعرضت للتو إلى التجربة نفسها من الظلمة، إذ كانت تنتمي إلى الفرقة ذاتها. وشيئاً فشيئاً تبينّا بأننا كنا جميعاً نمرُ بالتجربة نفسها، بمن في ذلك راؤول. شعرت بحضور الشر كشيء مرئي وملموس. كان الأمر كما لو أن الشر قد قال لي «أنت استدعيتني، وهاأنذا».

ـ كم طال بقاؤك في تلك الفرقة الباطنية؟

ـ حوالى السنتين. تذكرت كيف في أوقات أخرى، حين كنا أنا وزوجتي نتعاطى المخدرات فعلاً، كم كان مريحاً أن نشرب الحليب أو نرشّ الماء على وجهينا. لكن في تلك اللحظة، لا هي ولا أنا كنا قادرين أن نستجمع شجاعتنا للذهاب إلى الحمام. لم نجرؤ على اجتياز تلك الظلمة المرعبة. في النهاية أقنعنا أنفسنا بالأمر، ورششنا القليل من الماء على وجهينا فأحسسنا ببعض التحسن. فكرنا بعدها بالاستحمام وقمنا بذلك، لكن الظلمة بقيت كما كانت، الظلمة الغامضة المهددة التي تجثم بالانتظار. في تلك اللحظة عادت إلى ذهني كل معتقداتي الدينية الطفولية. أهمية المسألة في تلك اللحظة لم تكن في أنني كنت سأموت، بل في امتلاك الدليل على الوجود المرئي والملموس لتلك الطاقة الغامضة.

ـ في أي وقت من طقوس تلك الفرقة الباطنية كنت قد استدعيت شخص الشر.

ـ دائماً، من خلال فهم الشر باعتباره ذروة التمرد وليس باعتباره شخص الشر.

ـ أكانت تلك الفرقة إذن فرقة شيطانية؟

ـ بالقياس لما كان يحدث هناك فإن الطقوس الشيطانية والتي كنت أعرفها تماماً لا تكاد تذكر، فهذه كانت أشد خطراً بكثير.

ـ أكثر خطورة من كنيسة الشيطان؟

ـ أكثر بكثير، لأنها كانت فرقة أكثر فلسفة وأكثر إحكاماً في بنيتها ومن ثم أكثر خطورة في جذورها. إن جميع الطقوس التقليدية للسحر كانت تمارس هناك، لكنها كانت مملكة السلطة الخالصة. كنا أحيانا نستحضر الشر بنتائج ملموسة، لكن لم يسبق استحضاره بالشكل المرئي كتلك الظلمة التي اجتاحت منزلي.

ـ وبماذا ألزمت نفسك خلال تلك الطقوس والتعويذات؟

ـ لم ألزم نفسي بشيء فقد كانت لدينا كامل السلطة، فلعبة الشيطان العظيمة مثل الكوكايين، تجعلك تعتقد بأن الأمر كله بين يديك، ولهذا أعرّف طاقة الكوكايين بهذه اللعبة الشيطانية، لأن الكوكايين يعطيك الإحساس نفسه بالقوة والسيطرة وبالأمان التام، لكن في الظاهر فقط، بينما تكون مستعبداً في الحقيقة.

ـ دعنا نرجع إلى تلك التجربة. كيف انتهت؟

ـ في النهاية تناولت الكتاب المقدس، كان يوم سبت. فتحته بشكل عشوائي على نص من الإنجيل يسأل فيه المسيح أحد المؤمنين إذا كان يؤمن حقاً ويجيب «مولاي، إنني أؤمن، فلتساعد ضعف إيماني». وكان ذلك لدى قراءتي لتلك الفقرة وقطعت عهداً على نفسي كالعهد الذي قطعته بعد ذلك بوقت قصير بشأن المخدرات. قلت لنفسي «لقد انتهيت من هذه الفرقة وإلى الأبد» ومن ثم اختفت الظلمة بشكل تام. وفيما بعد ولدى التحدث مع أصدقائي الآخرين في الجماعة السرية تبينت أننا قد مررنا جميعاً بالتجربة نفسها.

ـ وكيف تدبرت أمر الخلاص من الارتباك التي تورطت فيه؟

ـ ذهبت للتحدث إلى أحد الأقطاب النافذين في الفرقة فقال لي إن ذلك كان الطقس الاستهلالي لدخول الاستحقاق. قلت له: «لا يهمّني ذلك، أسقطوني من حسابكم من الآن وصاعداً». ولم يكن السيد الذي أنا تابع له موجوداً، فأرسلت له برقية. الحقيقة أن صياغة تلك البرقية كان أمراً بالغ الصعوبة، لأنني كنت تماماً في منتصف الطريق إلى السيادة، وكان كل شيء تحت المراقبة. لقد كانت هناك إشارات عديدة في سجلات تلك الفرقة تعود إلي، واعتقد أنهم يقولون عني أسوأ ما يمكنهم القول لأن لديهم رسائلي ومقالاتي وآلاف الأشياء التي تعود لي.

ـ ألم يلاحقوك أبداً بسبب تخليك؟

ـ إطلاقاً. لكنني لا أود الحديث بهذا الشأن الآن، لأن الوقت قد تجاوز منتصف الليل. سنتابع فيما بعد... إن ما فعلوه هو الضغط علي بالقول أنني كنت جباناً، وأنني كنت لا أعلم ما الذي سأخسره، أما الملاحقة، فلا. أنا لا أصدق ما أراه أحياناً على التلفاز عن جماعات سرية تلاحق أشخاصاً خرجوا عنها، ولدرجة القتل أحياناً. أنا لا أصدّق ذلك.

ـ يبدو أن بعض الجماعات تفعل ذلك.

ـ الفرق الحقيقية تعتبر الانضمام إليها امتيازاً. لكن الخروج منها لا يسبب أي شيء. على الأقل أنا لم يسبق لي أن لوحقت مع أن تلك الفرقة كانت واحدة من أخطر الفرق السرّية وأعتاها في الوجود.

ـ لكن رغم تلك التجربة المرعبة مع السحر الأسود، فأنت مازلت تعتبر نفسك ساحراً بشكل من الأشكال. ألا تعتقد بأن هذا يمكن أن يعتم على صورتك بشكل ما ككاتب مرموق؟

ـ لا. لأنني أفهم كوني ساحراً بطريقة مختلفة جداً، وذلك بكونها

قدرة نمتلكها جميعاً، على الأقل بشكلها الكامن. كوني ساحراً يعني تطوير طاقة معرفية لا يتم تقبلها دائماً من قِبل الحكمة التقليدية. الساحر شخص عادي، لكنه مدركٌ لوقائع أخرى، حركات أخرى وتيارات أخرى تحت السطح الظاهري للأشياء.

إن ما هو مخبأ يكمن وراء الظاهر، تلك اللغة السرية التي تمتلكها الأشياء، هي أمر غير مرئي، وهي حقيقة بقدر ما هو الحب حقيقي، لكننا لا نستطيع تلمّسها مع ذلك.

- هل تعتبر ذلك البعد من أبعاد السحر طاقة خفية؟

- بالعكس إن الساحر الحقيقي هو من يناضل كما قال عيسى المسيح لإخراج الأشياء من مخبئها. إن دوره هو الإفصاح عمّا يحاول المتسلطون إبقاءه مستوراً، ونزع القناع عن الجماعات التي تتلاعب بالأسرار للتحكم بإدارة الأفراد بتقديم طاقة مزيفة لهم تكون تدميرية فقط.

في هذا المجتمع يا جان، هناك العديد من الناس ممن يستخدمون الأسرار للهيمنة على الآخرين. لهذا فإن من يتحكم بمعظم المعلومات يمتلك أعظم سلطة. لقد شاهدت عملاً، أعتقد أنه مسرحية تتعلق بثورة، ومن كان عليهم أن يختاروا ليكون وزيراً للثقافة ليس سوى الأمين العام، الذي لطالما كان هو الشخص الذي يلم بكل شيء لأنه يكون خاضعاً للعصبية التي تزعم معرفة كل شيء لأنها تظن بأنها قادرة على الإمساك بكل معرفة العالم.

- لكن شيئاً واحداً مؤكداً يا باولو وهو أن العديد من الناس يخشون السحر.

- إن ذلك حكمة منهم لأن السحر يمكن أن يكون خطيراً جداً. يمكنني القول أنه كالطاقة النووية، إذ يتوقف الأمر على المجالات التي تستخدمها فيها. يمكنك صنع قنابل ذرية بها ويمكنك أن تولّد النور، وهكذا ليست كل الطاقة النووية خيراً وليس كل أنواع السحر أيضاً. أنت بحاجة لأن تعرف كيف تميز الفرق.

ـ ثمة سؤال آخر بلا إجابة. هل تعتقد بتجسد الشيطان؟

ـ أنا أعتقد بتجسد الشيطان المصنوع.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ أعني أن هنالك شيطاناً هو اليد اليسرى لله وشيطاناً آخر هو نتاج اللاشعور الجمعي وهذا يجسد ذاك. ما هي الكلمة، على سبيل المثال؟ إنها تجسيد للفكرة. ولهذا إذن، وبالطريقة نفسها التي تجسد بها الحب بقولك كلمة «حب» فإنك تستطيع أن تجسد الشيطان باستحضاره، لكنك في الوقت نفسه تستطيع تدميره بإنارة ضوء لأنه لا يملك من الطاقة أكثر مما تمنحه أنت.

ـ لكنك رأيت تجسيداً للشيطان بأم عينيك.

ـ لكن ذلك كان لأنني منحته القدرة من قبل، أما الآن فلا سلطة له علي لأنني قد أنكرته. والآن يا جان، أود التحدث عن شيء أخر.

7

المخدرّات

«ليس صحيحاً أن المخدِّرات مرعبة كما يقولون في حملات المكافحة، المخدرات سيئة لأنها رائعة».

«الكوكايين هو عقار الشيطان لأنه يجعلك تشعر بأنك كلّي القدرة».

حاول بعض من أصدقاء كويلهو أن يغطوا على واحد من أكثر الفصول إيلاماً في ماضي الكاتب وهو تورطه في المخدرات، أو أنهم حاولوا أن يقزموا تلك المرحلة، كما لو أن المخدرات كانت أمراً عابراً وغير هام في حياته. كويلهو نفسه لا يوافق على ذلك. إنه لا يريد أن يتستر على هذا الجانب من ماضيه والذي أودى به إلى شفير الموت كما يروي بصدقية هائلة في هذه الحوارات. لقد بقي خائفاً من تجربة ماضيه لدرجة أنه يعتبر نفسه الآن متحفظاً في هذا الشأن وضد التخفيف من جريمة تعاطي المخدرات. لكنه أيضاً ينتقد السياسات المضادة للمخدرات والتي تنتج أنواعاً محددة من الحملات الإعلامية، لأنه يعتقد أن من الكذب أن نقول للشباب أن المخدرات مرعبة. إنها كذبة لأنها ليست صحيحة فالعكس هو الصحيح، إن المخدرات خطرة بشكل هائل والإقلاع عنها صعب جداً بسبب إغرائها. إن ما يحتاج الشباب إلى معرفته هو أن هذا الشيء الذي يقدم مثل هذه التأثيرات الخلابة سوف يحولهم في النهاية إلى كتل بشرية عديمة القيمة، مدمراً سيطرتهم على إراداتهم.

س ـ ما الذي قادك إلى الإقلاع عن المخدرات مرة وإلى الأبد؟

ج ـ لا يقلع المرء عن المخدرات بين عشية وضحاها. أنا أقلعت عنها على مراحل، أعني مراحل حياتي، حين كنت منغمساً كلية في جميع أنواع المخدرات ومسببات الهلوسة، وحتى أقواها

وأشدها خطراً كانت خلال السبعينات. وقد أقلعت عنها تدريجياً لعدة أسباب مختلفة.

- ولمَ أنت معارض للحملات السائدة ضد المخدرات؟

- لأنهم يرتكبون إساءات مطلقة مع المخدرات ومع التبغ بالمثل. إن أسوأ ما يمكنك فعله تجاه هذه الأمور هو صبغها بصبغة شيطانية كما لو أنها مرعبة، ومنفرة وعديمة المعنى. إن إعلاناً كهذا وفق طريقة تفكيري من شأنه أن يدفع بجيل كامل إلى أحضان المخدرات.

- لماذا؟

- لأن كل ما عليك أن تفعله لجذب الشباب إلى المخدرات هو أن تقول إنها سيئة لهم. أنا أؤمن بقوة في طاقة التمرد لأننا لا نعيش بدونها، والشباب متمردون من حيث المبدأ والبنية الفيزيولوجية.

- لمَ دخلت أنت إلى عالم المخدرات؟

- بالضبط لكي أتمرد. لأنها كانت محظورة وكل ما هو محظور كان يسحرني. لقد كانت المخدرات بالنسبة لي ولجيلي من شباب 1968 عموماً طريقة للرد على جيل آبائنا، كان ردنا بطرق مختلفة أحدها كانت المخدرات. كنت أنا أحد المتطرفين الذين لا يأخذون بأنصاف الحلول وما زلت كذلك. الحمد لله. لهذا أحب مايرد في الكتاب المقدس «وددتك لو كنت حاراً أو بارداً... ولأنك لست حاراً ولست بارداً... فسأبصقك من فمي».

سبق أن قلت لك أنني أحب أن أكون فارس النور، أخوض معاركاً ولهذا أجد من الصعب أن أتخيل كوناً في حالة اتساق. الشمس بالنسبة لي هي رمز لما أقول. الشمس التي هي لنا حياة ونور ليست على الإطلاق حالة متسقة، لأنها انفجار ذري هائل لو اقتربنا منه لمتنا.

- إذن دخلت في عالم المخدرات بدافع التمرد، لأنها كانت

محظورة ومثلت لك طريقة في الاعتراض على مجتمع مقيد في ذلك الوقت. لماذا أقلعت عنها إذن؟

- كما قلت لك، أقلعت عنها لأسباب مختلفة أهمها الخوف فقد تماديت كثيراً: الكوكايين، المهلوسات، LSD، بيوت، الميسكالين إضافة إلى مستحضرات صيدلانية أخرى. وبدأت بالإقلاع عن الأكثر قوة وتأثيراً، ثم بقيت على تعاطي المخدرات كالكوكايين والماريجوانا فقط. على أية حال، أنا الآن أعتبر الكوكايين عقار الشيطان. إنه الطاقة الشيطانية التي تعطيك الانطباع الزائف بالقدرة الكلية في حين هي تدمرك وتنتزع منك المقدرة على اتخاذ القرارات؟

- لكنك لم تتبين هذا أبان ذلك الوقت؟

- لا، لقد استهلكت الكوكايين دون توقف ولم يحدث لي شيء، تعاطيته مع أصدقائي والغريب أنه لم يترك تأثيراً كبيراً علي. كنت أشعر به كشيء رائع كما لو أنني أمتلك طاقة هائلة. شعرت بإحساس عظيم من القوة والسعادة.

- لكنك عانيت شعوراً مرعباً بالبارانويا وجنون الشك.

- نعم، كان هذا عندما خرجت من السجن في المرة الثالثة. وعندما قررنا أنا وراؤول سايكساس أن نذهب إلى نيويورك. كانت حالة الارتياب عندي في ذروتها لدرجة أنني لم أتمكن من العيش في ريو دي جانيرو. كنت أعتقد عندما أخرج بأن شخصاً ما يتبعني وإن تكلمت على الهاتف فإن شخصاً ما يتنصت بالتأكيد. أنكر خلال كأس العالم عام 1974 بأنني فكرت أن بوسعي الخروج إلى الشارع لأن البرازيل كانت تلعب مع يوغسلافيا، فكرت أن الشوارع جميعها ستكون خالية وخاصة من الجنود، لأن الجميع يراقبون المباراة وبالتالي فلا أحد سيتبعني. قلت لنفسي: «إما أن أخرج اليوم أو لن أخرج من البيت ثانية طوال حياتي». لقد أفقدني الخوف صوابي.

- لكنك خرجت.

ـ أجل وأذكر أن الشوارع كانت مقفرة. نظرت في كلا الاتجاهين وقلت لنفسي: «إذا تبعني أحد فسأراه حالاً». لكن جاء وقت أصبحت حالة الارتياب عندي عظيمة لدرجة لا تحتمل، لم أعد أستطيع معها العيش بتلك الحالة، وهكذا كان أن قررت السفر إلى الولايات المتحدة. كان ذلك حين تركت الجميع وكل أصدقائي. كنت عديم الوفاء لهم جميعاً. راؤول تفهم الأمر بشكل كامل، قال لو أنه كان يعاني ما عانيته من جنون الارتياب لفعل الشيء ذاته، لكنه في النهاية وجدها خلاصاً. كان ذلك حين قررنا سوية الذهاب إلى نيويورك ومغادرة البرازيل.

ـ لكنك بقيت على تعاطي المخدرات هناك؟

ـ نعم، كان الكوكايين لم يزل العقار الدائم المستخدم، رغم أنه لم يكن يحقق لي حالات عظيمة من النشوة. بل على العكس بقيت أعاني من جنون الارتياب والطاقة المتوهمة.

ـ وفي نيويورك أيضاً خبرت قوة المخدرات في ذروتها.

ـ نعم، أذكر ذلك تماماً لأنه كان اليوم الذي استقال فيه نيكسون من رئاسة الولايات المتحدة في الثامن من آب. كان لدي صديقة هناك وكنا نقيم في قرية، وقد شممنا كلانا الكوكايين. كانت تلك المرة الأولى التي شهدت فيها قوته الكاملة، بعد سنة كاملة من تعاطيه، لهذا أقول بأن الحملة المضادة للمخدرات خاطئة. الكوكايين سيء لأنه ينتج تأثيرات لا يمكن التنبؤ بها. في ذلك اليوم جربت المخدرات بكمية مكثفة. شاهدنا استقالة نيكسون ثم خرجنا نتمشى في التايمز سكوير، ومن هناك إلى نادٍ للرقص الليلي.

ـ ومتى تبينت ما كان يحدث لك؟

ـ عدنا من الديسكو في الساعة التاسعة صباحاً، ولم نكن قادرين على النوم، ومن المستغرب أننا لم نمارس الجنس. أذكر صديقتي وهي مستلقية عارية على السرير وجاءني إلهام في تلك

اللحظة. قلت لنفسي: «إن بقيت أتعاطى الكوكايين على هذا النحو فسأدمر نفسي». أذكر أنني ذهبت لأنظر خارج النافذة وكان الشارع مقفراً، لم يكن أي شيء محدد، كان لدي إحساس قوي بأنني بدأت النزول في ممر يقود إلى حتفي. وحتى تلك اللحظة كان لدي إحساس بالهدوء التام، لأنه رغم أنني كنت قد رأيت العديد من أصدقائي وقد دمروا فإن المخدرات ما كان لها إطلاقاً كثير من الأثر عليّ. لكن في ذلك اليوم تحققت بأنني إن لم أتوقف فسوف أنتهي كنهايتهم.

ـ وقررت التوقف.

ـ أجل، وفي تلك اللحظة وأمام صديقتي العارية على السرير أقمت عهداً على نفسي، وهو شيء نادراً ما قمت به في حياتي. قلت لنفسي: «من هذا اليوم فصاعداً لن ألمس الكوكايين ثانية في حياتي». وتذكر يا جان، عندما يتعلق الأمر بالمخدرات فإن الأمر بالغ الصعوبة أن تقول «لن أفعلها ثانية في حياتي»

ـ وهل بقيت مخلصاً لعهدك الذي قطعته؟

ـ أجل حتى الآن. بقيت أدخن الماريجوانا آنذاك ولا شيء آخر. لكنني التزمت بعهدي في التخلي عن الكوكايين إلى الأبد. أنا لم أقطع على نفسي عهداً كهذا مع التبغ وما زلت أدخن، رغم أنني أعلم بأنه غير نافع لي. أما المخدرات فلا بعد الآن، ولهذا أنا أحدثك عن يوم الثامن من آب يوم استقال نيكسون، لقد كان يوماً هاماً جداً على صعيد مستقبل حياتي.

ـ لكنك بالتالي أقلعت عن الماريجوانا أيضاً.

ـ نعم كان ذلك عندما كنت مع زوجتي كريستينا في أمستردام. بدأت ألاحظ بأن الماريجوانا تعطيني دائماً الإحساس نفسه والذي لم يكن في الحقيقة نافعاً في أي شيء، لم يكن يستحق الاستمرار فيه وكان من الأفضل أن أتوقف عن ذلك. ومنذ تلك اللحظة من العام 1982 لم يلمس باولو كويلهو أي عقار محظور.

ـ لماذا برأيك لم يزل شباب اليوم يقبلون على المخدرات بهذه الطريقة الكبيرة؟

ـ أظنهم يفعلون ذلك للأسباب نفسها التي دفعتنا نحن لفعله، رغم أن هناك ربما أسباباً أخرى: فالكبار يقولون لهم إن المخدرات أمر مرعب. فهم عندئذ يدخنون ويحششون ويجدون بأنه ليس أمراً مرعباً بل حتى أنه يجعلهم أفضل كعشاق.

ـ ماذا يجب أن يقال لهم إذن؟

ـ يقال لهم بأن المخدرات خطيرة نتيجة التأثيرات الرائعة التي تولدها، والتي لا تدع المرء يرى كيف تدمره رويداً رويداً، ماحقة قوة إرادته وجاعلة منه آلة أوتوماتيكية، وعبداً غير قادر على تقرير شؤون حياته إطلاقاً. لهذا قلت عن المخدرات بأنها شيطانية لأنها مصيدة هائلة وكذبة كبرى. أنا أنكر تجاربي مع تلك المرأة التي احتجزوها وعذبوها معي. كنا نقضي الأربع والعشرين ساعة في اليوم تحت تأثير كل أنواع المخدرات. كنا مشوشين. سافرنا إلى الولايات المتحدة والمخدرات في حقائبنا مجازفين بالسجن. لم نكن نأبه، كنا عديمي التفكير كلياً.

لا أعرف ما الذي كنت سأنتهي إليه لو بقيت ماضياً في ذلك الطريق. الأرجح أنني كنت سأنتهي إلى ما انتهى إليه البعض من أصدقائي البائسين...

قلت لك أن الكوكايين عقار الشيطان البالغ الخطورة، إن ما يحدث هو أن هناك الكثير من النفاق وعدم المسؤولية لدى العديد من الناس الذين يتحدثون إلى الشباب عن المخدرات لأنهم لم يجربوها، لذا فهم يتحدثون من منطلق الجهل عن شيء لا يعرفون عنه أي شيء.

(تقاطع كريستينا الحوار لتخبرنا عن إعلان ضد المخدرات يظهر نوعاً من السحالى تدخل في أنف شخص وتأكل دماغه.

وتقارن هذا مع إعلان أكثر جدية كانت قد رأته في انكلترا يعطي نصيحة لأولئك المتورطين في المخدرات مفادها أنهم سيتسببون لأنفسهم بأقل قدر ممكن من الضرر إذا لم يتمكنوا من الإقلاع عنها).

- هذه فكرة عظيمة عليّ أن أكلم صديقاً لي يعمل في الإعلان لأخبره عن ذلك. إن ما لا تستطيع فعله هو خداع الشباب، وأنا أعتقد أن الإعلانات التي يستخدمها اليوم تشجع المخدرات بدلاً من أن توقِف استخدامها.

- ما الذي تقوله في هذا الموضوع عندما يطلب منك الشباب رأيك علانية؟

- سأقول دائماً إنني ضد المخدرات لأنني خبرت خطرها بنفسي. وأنا ضدها لدرجة أنني أشعر بأنني محافظ تماماً ولا أوافق مع القائلين بتخفيف الجرم عليها، رغم أن ذلك قد يبدو متناقضاً، لأنني كنت قد قلت بأن المخدرات مغرية لأنها محظورة. لكن، رغم كل شيء، وبعد تجربتي الشخصية الصعبة، فأنا أفضّل إبقاء المخدرات غير شرعية.

8

التحوّل

«إن أجراس معسكر الاعتقال ذاك كانت تدق من أجلي».

في سن الرابعة والثلاثين، وبعد أن اقلع عن معظم مغامرات شبابه، انطلق باولو كويلهو في رحلة مع زوجته كريستينا بحثاً عن مسار روحي. وفي تلك الرحلة، في المكان الذي لا يتوقعه أحد، في داتشو معسكر الاعتقال النازي مر بتجربة روحية بالغة التأثير، والتي أعادت حياته باتجاه الكاثوليكية تحديداً. لا بد أنها كانت تجربة قوية. وهاهو بعد عشرين سنة من حدوثها يعيد سردها لنا من أجل هذا الكتاب في سويعات الصباح الباكر. لم يستطع كويلهو ضبط عواطفه، وكان علينا أن نوقف التسجيل حين انفجرت عيناه بالدموع.

س ـ كنت في الرابعة والثلاثين عندما قررت في النهاية أن تكون شخصاً جدياً مستقراً.

ج ـ أجل، فالكثير من الأمور حدثت والكثير من الحماقات كنت قد ارتكبتها في حياتي. زوجتي المرأة التي لا أسميها، تلك التي عُذبت معي من قبل الأمن العسكري والتي كنت معها في ذلك الوقت، كما أخبرتك، تركتني. زواجي الثالث من سيسيليا كان قد انتهى أيضاً، إلى أن تزوجت كريستينا في العام 1979، ثم أقصيت من عملي في بوليغرام. لكن لم يكن لدي مشاكل مالية، إذ كنت أمتلك خمس شقق سكنية ولدي سبعة عشر ألف دولار في رصيدي المصرفي. بدأت أشعر بالفضول ثانية تجاه الشيء الذي أبعدت نفسي عنه كلياً خلال الفترة التي كانت خارج السيطرة من حياتي.

- وانطلقت في الترحال ثانية.

- بالضبط. لم أكن راضياً عن حياتي، وقلت لكريستينا «اسمعي يا كريستينا. أنا في الرابعة والثلاثين، وسرعان ما سأصبح عجوزاً، لذا دعينا نحيا حياتنا، دعينا نرى العالم، ونبحث عن معنى الحياة، دعينا نذهب إلى الأماكن التي ذهبت إليها عندما كنت شاباً». وهكذا انطلقنا في رحلة عظيمة.

- إلى أين ذهبتما؟

- ذهبنا إلى عدة بلدان بما فيها ألمانيا. كانت بولا الصغيرة بنت أخت زوجتي، قد ولدت لتوها. ذهبنا أيضا إلى البلدان الشيوعية. كنت لم أزل متمسكاً بمُثلي الاشتراكية وأردت أن أرى تلك الحقيقة عن قرب. اشترينا سيارة في يوغسلافيا من السفارة الهندية. من هناك عدنا إلى ألمانيا، لأن أخت كريستينا كانت تعيش هناك. السيارة التي لم يكن مسموحاً لنا في الحقيقة أن نشتريها، كانت سيارة مرسيدس كلفتنا ألف دولار، وكانت كاملة جميلة، لكن بلوحات دبلوماسية. وما فعلناه فقط هو تغيير لوحة المنشأ في ألمانيا. ويا الله على ألمانيا. كانت رحلة عظيمة. وصلنا ألمانيا وكانت أخت كريستينا تعيش في بون، لكننا أقمنا في ميونخ لأنني كنت دائماً كثير الاهتمام بالحرب العالمية الثانية.

- وفي ألمانيا ذهبت لزيارة معسكر اعتقال سابق.

- نعم، فلم يكن قد سبق لي أن رأيت أحد تلك المعتقلات، لذا فقد كنت مهتماً جداً بزيارة أحدها. ذهبنا إلى داتشو. وبما أنك كنت هناك بنفسك فلا حاجة لأن أخبرك المزيد عنها. أذكر أنه كان يوم أحد، ولا أعرف لماذا لكنني أعتقد أننا ذهبنا إلى قداس في ذلك اليوم. ثم انطلقنا إلى داتشو وركنّا السيارة هناك. لم يكن ثمة أحد حولنا. كان يوم أحد من شهر شباط ودرجة الحرارة كانت صفراً، والريح الجليدية تلسع وجوهنا. لم يكن أحد في المتحف ولا حتى الدليل، نظرنا من حولنا وبدأت أشعر بانفعال عميق.

ـ هذا صحيح فالمرة الأولى التي تدخل فيها أحد تلك المعسكرات تشعر بأن دمك بدأ يتجمد. أذكر زيارة قمت بها إلى زنزانة في أوشفيتز في بولندا، ولن أنسى طوال حياتي ذلك الانطباع.

ـ أنا كنت قد رأيت هذه الأماكن في الأفلام فقط، لكن الواقع كان أكثر اختلافاً وأكثر عمقاً ورعباً. كانت هناك حجرة للأقرباء ممن كانوا قد فقدوا أفراداً من أسرهم هناك، وتلك بالتحديد أثرت في نفسي لأنه إذا كان المعسكر يمثل الماضي، فهذه الحجرة هي الحاجز. ثم زرنا بيت آمر المعتقل وثكنة صغيرة، كل شيء كان موحشاً مقفراً. وعندما خرجنا من الجهة اليسرى كان قبالتنا خضرة وارفة، نهرٌ والمحرقة القديمة.

ـ أنا لم أمتلك الشجاعة لأدخل المحرقة. أنا أعتبرها شراً وخزياً للإنسانية.

ـ صرخت «يا للهول» وبدأ خيالي يعمل. تخيلت نفسي محبوساً في واحدة من غرف الغاز لأرى ماذا كنت سأشعر. كان هناك نور مختلف نور الصباح البهيج، مفارقة صارخة.

ـ إن المفارقات في معسكرات الاعتقال التي تذكرها تثير القشعريرة. فأنا لا أستطيع أن أنسى ما رأيته في أوشفيتز، إذ كان هناك أنبوب صدئ حيث لا بد أن الماء قد تسرب منذ أزمنة الرعب، وبجانب الأنبوب نمت زهرة برية ناحلة ربما كانت تتشبث ببعض قطرات الماء المتسربة.

ـ عندما خرجت من قسم الحمامات كان الوقت تمام الظهيرة. غادرت خارجاً أنا وزوجتي باتجاه السيارة التي تركناها مركونة قرب خيمة الحارس. عند نهاية داتشو، إذا كنت تذكر، هناك ثلاث كنائس صغيرة، كنيسة كاثوليكية وواحدة لليهود وثالثة

للبروتستانت كما أظن. دخلنا الكنيسة الكاثوليكية وأشعلنا شمعة ثم مضينا باتجاه السيارة التي كانت على مسافة بعيدة عنا، كان علينا أن نمشي مشواراً طويلاً وكان الجو شديد البرودة.

بدأت الأجراس تقرع بينما كنا نمشي مجتازين منتصف المسافة.

ـ هي الأجراس نفسها التي كانت تقرع في الماضي لتدعو السجناء إلى التجمع في المخيم.

ـ بالضبط. وحلق بيّ الخيال باعتباري كاتباً فأنا معتاد على خلق الأجواء، تخيلت الثكنات تعج بالمساجين وكل ذلك الخزي الإنساني. مشيت محاولاً التخفيف من ذلك الانطباع المرعب، وعند نقطة محددة توقفت وقرأت فوق خيمة الحارس عبارة «لن يحدث ثانية». استعدت سكينتي لبرهة مفكراً بأن ذلك لن يحدث ثانية، الآن من غير الممكن أن يكرر الإنسان تلك البربرية.

ـ لسوء الحظ فإن الأمر لا يجري على ما تتمنى.

ـ هذا ما بدأت أدركه فجأة، إنه ليس صحيحاً أن هذا لن يحدث ثانية، لأنه كان يحدث ثانية في الواقع في تلك اللحظة بالذات. أنا نفسي شهدت بلحمي ودمي رعب تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، وإخضاعه لأكثر أشكال التعذيب إذلالاً دون أن يكون قادراً على القيام بأي شيء للدفاع عن نفسه. فكرت في الحروب القذرة، وفي أناس كانوا يموتون في تلك اللحظة في السلفادور. وتذكرت أن المعاناة نفسها كانت تحدث لأمهات بلازا ديل مايو في الأرجنتين(*).

(*) جماعة الاحتجاج الأرجنتينية التي أسستها النساء اللواتي اختفى أبناؤهن خلال فترة الحكم العسكري، واللواتي جئن للاحتجاج بشكل متكرر في بلازا ديل مايو في بيونس أيريس. وقد ووجهت الاحتجاجات الأولى بالتهديد والترويع من قبل السلطة العسكرية، كما ووجهت الاحتجاجات اللاحقة بالاعتقالات والعنف. والمنظمة التي تقود تلك الاحتجاجات في بلازا، تم اختراقها واختفى العديد من قادتها لكن المجموعة ما تزال قوة فاعلة في السياسة الأرجنتينية.

فكرت في الجنود الذين يلقون بأناس أبرياء من الطائرات وبكل أعمال التنكيل التي ترتكب في زنازين السجون الديكتاتورية.

- وتيقنت أن الإنسان لم يزل على ما كان عليه من جنون وبؤس.

- فجأة أحسست باليأس، بالعقم واللاجدوى المرعبة بشكل مطلق. فكرت في نفسي: إن هؤلاء البشر أبناء العاهرات لا يتعلمون أي شيء من تجاربهم إطلاقاً. وإننا محكومون بإعادة إنتاج الرعب نفسه، لأن ما حدث في ألمانيا عام 1945 يحدث الآن على قارتنا هذه، لكنني في الوقت ذاته فكرت أنّ من غير الممكن أن الجنس البشري لم يتعلم من دروس الماضي. وكمن يقرأ كتاباً، بدأت أكرر شيئاً قاله كاتب آخر «ما من رجل يشكل جزيرة بذاته» وتساءلت في نفسي أين كنت قد قرأت هذا القول «ما من رجل يشكل جزيرة» في أي كتابٍ قرأت هذا؟ ورويداً رويداً بدأت الفكرة ترد إلى ذاكرتي «أوروبا هي الأقل... وموت أيُ إنسان يحط من شأني...». رحت أكرر لنفسي، ولكن من كتب ذلك؟ استرجعتُ الفقرة كلها في ذاكرتي، والسطر الأخير لم يحدد إطلاقاً لمن كانت تقرع الأجراس. «إنها تقرع من أجلك». وتذكرت، كان ذلك في وسط معسكر الاعتقال. كانت الأجراس تقرع. وكانت العواطف متأججة، لأنني أدركت فجأة، كأنها لحظة إلهام، بأن تلك الأجراس كانت تقرع من أجلي.

(كان علينا هنا أن نقطع التسجيل، لأن باولو كويلهو غلبته الدموع. وبعد بضع ثوانٍ، كما لو أنه أراد التخفيف من جيشان عواطفه، اعتذر وأضاف قائلاً: «ربما لأنني أسرفت في الشراب»).

ولم يكن ذلك مجرد حدث رمزي يا جان. لأنني في تلك اللحظة بالذات، وعندما اكتشفت بأن الأجراس كانت تقرع من أجلي، وأن علي أنا أيضاً أن أفعل شيئاً خلال حياتي لكي أوقف رعب البشرية التي لا تتعلم من دروس جنونها، سمعت صوتاً ورأيتُ شخصاً. أجل رأيت شخصاً ما، ثم اختفى كل شيء. لم تتح لي فرصة التحدث إلى

الشخص لأن كل شيء اختفى بسرعة، لكن الصورة بقيت محفورة تماماً في ذاكرتي.

- وماذا فعلت؟

- عدت إلى السيارة، حكيت القصة وبكيت. لكن طالما أن البشرية وكل الناس لديهم النزعة نفسها، فقد نسيت الموضوع في اليوم التالي، ولم أعد أعرف لمن كانت تقرع الأجراس. فكرت أن الأمر كان مجرد تجربة أخرى من تجارب حياتي.

- لكن الأمر لم يكن كذلك؟

- لا لم يكن الأمر كما حسبت، فقد مر شهران وبقينا متابعين ترحالنا، ثم قررنا يوماً ما في أمستردام أن نقيم هناك في فندق لم يعد له وجود الآن لأنه كان فندقاً غير قانوني، لكنه كان رخيصاً ورائعاً. هناك كنا عندما قلت أنني سوف أتوقف عن تدخين الماريجوانا حيث تناولت كريستينا أول وآخر حبة من الـ LSD. كان هناك بار في الطابق الأرضي للفندق. كنت أتناول قهوتي هناك مع كريستينا عندما في لحظة ما دخل شخص آخر لتناول القهوة. «أنا أعرف هذا الشخص ولكنني لا أعرف من أين». وفجأة تذكرت بأنني قد رأيته في معسكر الاعتقال. شعرت بالذعر فقد ظننت أنهم ربما يلاحقونني بسبب ما حدث في العام 1974 يوم كنت متورطاً في السحر الأسود. لكن في الوقت ذاته كنت فضولياً وفكرت إن أنا لم أتكلم إلى ذلك الشخص فقد يذهب ولن أراه ثانية بعد ذلك.

- ومن ثم ذهبت للحديث معه؟

- أجل، نهضت باتجاهه وقلت: «لقد رأيتك منذ شهرين». نظر إلي الرجل وأجاب بالإنكليزية: «أمجنون أنت؟»، «لا، لا لست مجنوناً لقد رأيتك منذ شهرين مضيا» قلت له. كنت مستاءً بعض الشيء لأن تجربة معسكر الاعتقال برمتها عادت إلى ذاكرتي فجأة، وكنت قد سمعت في نفسي تلك الفترة بأن الفرق السرية تطارد أحياناً من

يخرجوا عنها رغم أنني لم أصدق ذلك إطلاقاً. طلب إلي الرجل أن أجلس وبدأ بسلسلة من الأسئلة. وبينما كان يتحدث كنت أقتنع أكثر فأكثر بأن للأمر علاقة بمعسكر الاعتقال، وإنه كان الشخص نفسه الذي ظهر لي هناك.

ـ وماذا أخبرك؟

ـ قال: «انظر، ربما تكون قد رأيتني، لكن هناك شيء يُعرف بالإسقاط الوهمي لأنه لا يمكن لك أن تكون قد رأيتني قبلاً، إنها أشياء تحدث حين يتناول الشخص مسببات الهلوسة». وبقيت أخرج له بالأعذار كي لا يغادر لأنني شعرت بأنه شخص ذو أهمية في حياتي. ظل الرجل يحدثني عن الإسقاط الوهمي، لكنه في النهاية قال: «أظن بأن لديك بضعة مشاكل لم تصل إلى حل بشأنها بعد وأنا أستطيع أن أساعدك إذا شئت. أنا أشتغل لصالح شركة متعددة الجنسيات واسمي هو جين. أستطيع أن أقدم لك يد المساعدة إن شئت لكن عليك أن تخبرني بصدق إذا كنت تريد مني المساعدة حقاً أم لا». قلت له أن علي أن أفكر بالأمر أولاً، فقال: «أنا دائماً أتناول قهوتي هنا في مثل هذا الوقت من النهار، يمكنك أن تعطيني جوابك غداً لكن أن أنتظرك إلى ما بعد الغد فسأفترض بأنك لا تريد مني المساعدة، لديك أربع وعشرون ساعة لتفكر في الأمر».

كنت في حالة تشوش حقاً لأنني لم أكن أعرف آنذاك إن كان رجلاً صالحاً أو شريراً. تحدثت إلى كريستينا بالأمر ولم أستطع النوم طوال تلك الليلة، أحسست بتشوش تام.

ـ وماذا قررت في النهاية؟

ـ قررت الموافقة. وبدأ امتداد جديد لحياتي من تلك اللحظة، مع عودتي للكنيسة الكاثوليكية. فقد كان الرجل ينتمي إلى نظام الـ RAM الكاثوليكي القديم (الصرامة، العبادة، الرحمة) إنه الشخص الذي أخبرني بكل شيء عن السّنن وعن الملاذ الرمزي داخل

الكنيسة. فقد سبق له أن قضى وقتاً طويلاً في الفاتيكان. وبعدها بدأت أولي اهتماماً لتلك التقاليد الكاثوليكية القديمة وللتقاليد الحالية، إلى أن أخذني مرة إلى النرويج وأعطاني هذا الخاتم الذي مازلت ألبسه وهو لثعبان برأسين. ثم بدأت أتعلم اللغة الرمزية التي هي ليست حكراً على المسيحية بل نظام مسيحي للرموز.

- وهل تقبله الكنيسة؟

- إنه تقليد قديم جداً.

(وفي تلك اللحظة بالذات وجدت كريستينا ريشة بيضاء تحت الطاولة حيث كنا نتحدث، طاولة غرفة الطعام. التقطت كريستينا الريشة وأعطتها لزوجها. «ما هذا؟»، «ريشة طائر أبيض». شكر كويلهو زوجته وقد ظهر عليه التأثر، ثم أوضح بأن الظهور المفاجئ للريشة البيضاء في مكان غير متوقع كان بالنسبة له علامة الولادة الوشيكة لكتاب جديد. وكنّا آنذاك قد وصلنا إلى نهاية حوارنا).

- الانضمام إلى نظام الـ RAM وفّق بينك وبين الكاثوليكية. لكنه نظام محدود الانتشار فهل يوجد فيه أعضاء كثر؟

- إن الذين يعتقدون به ويعملون وفقه قلما يتحدثون عن تجاربهم. وهو نظام تأسس على مدى خمسة قرون ضمن الكنيسة الكاثوليكية. إن لغة رمزية قد تم تناقلها عبر تقليد شفوي، لكنها ليست سرية على الإطلاق. والـ RAM هو ممارسة للمقدس أكثر منه نظرية عنه ولهذا نحن نشكل مجموعة بهذا الصغر. حقيقة إنه مايزال قائماً على أربعة مريدين فقط.

9

الكاتب

«إن عملية الخلق الأدبي عندي تماثل عملية الولادة عند امرأة توشك على وضع مخلوق جديد».

«لاستلهام الوحي علي أن أمارس الحب مع الحياة».

إذا كان باولو كويلهو قد عرف لسنوات عدة باعتباره بالدرجة الأولى ساحراً مرموقاً تنسب له مقدرات خاصة، فإن مكانته اليوم تعود بشكل أساسي لكونه كاتباً، وهذه المكانة الأدبية بالذات هي ما ينبري العديد من النقاد لدحضها مصنفين كتبه كإرشادات للمساعدة الذاتية المقتصرة على فئة محدودة. ويدافع كويلهو عن بساطته باعتبارها أداة للوصول إلى جميع القراء. فهو يعتبر نفسه قصاصاً ويعتقد بأن كتبه يجب أن توضع على رفوف كتب الفلسفة أو الأدب في المكتبات. ورداً على من يزعمون بأن كتبه تحتوي على أخطاء قواعدية يجيب كويلهو بأن هنالك نقاداً وجدوا أيضاً مثل هذه الأخطاء في دون كيخوتِ. أما ما لا يستطيع أن ينكره أحد فهو أن كويلهو واحد من أفضل عشر كتّاب رواجاً في العالم، وبمبيعات بلغت أكثر من اثنين وعشرين مليون نسخة حتى شهر أيلول من العام 1998، رغم حقيقة أن نتاجه الأدبي حديث العهد تماماً ولا يزيد عن اثني عشر كتاباً منشوراً. ففي هذه السنوات المعدودة فقط باع كويلهو من الكتب أكثر مما باع جورج أمادو طوال حياته المديدة كلها. وهاهو كويلهو يتحدث عن مسيرته الإبداعية في هذه الحوارات مؤكداً أنه لكي يكتب يحتاج لأن يمارس الحب مع الحياة.

س ـ لماذا تشعر بالحاجة للكتابة؟

ج ـ لأنني أعتقد أن الطريقة الوحيدة لنتشارك في الحب الفردي

هي من خلال العمل، والكتابة هي عملي تماماً مثلما أن عمل سائق العربة هو القيادة.

ـ هل تشعر بأن الكتابة قد فرضت نفسها عليك أم أنك اخترتها؟

ـ لقد اخترتها وحلمت بها طوال حياتي. كنت دائماً ألاحق هذه المهنة، أتعثر وغالباً ما كنت أرتكب الأخطاء لكنني ظفرت بفضل قوة إرادتي، وقد كان هذا دائماً هدفي.

ـ كنت قد قلت بأنك تحتاج لأن ترتبط مع مركز الطاقة لكي تكتب. ماذا تعني بذلك؟

ـ أحب استخدام مصطلحات مستمدة من علم الخيمياء التي هي روح العالم أو مصطلحات يونغ عن اللاشعور الجمعي. فأنت ترتبط بفضاء يوجد كل شيء فيه.

ـ لطالما تحدث بورخيس عن ذلك.

ـ بورخيس يسميها «الألف»، النقطة التي توجد فيها جميع الأشياء. «الألف» كلمة عبرية من القبلة أو الكعبة المشرّفة، وهو الحرف الأول من الأبجدية. إنها النقطة التي تحتضن كل الأشياء في الوقت نفسه. في قصة بورخيس المسماة «الألف» ثمة رجل يمشي يتعثر ويسقط ويدخل بالمصادفة وبشكل كامل هذه النقطة حيث يرى كل شيء في الوقت نفسه جميع الناس، جميع الأدغال والأنهار، وجميع الأكوان.

ـ وهل هذا ما تشعر به حين تكتب؟

ـ ثمة لحظة تأتيك وأنت تكتب تشعر فيها بالتعب وتبقى خارج أطر الانضباط، لكن في لحظة محددة ودون أن تعرف لماذا، ترتبط بشيء يثير فيك المتعة وكأنه مصدر للطاقة ثم يمر بعدها الوقت سريعاً. أعتقد بأن هذه هي لحظة الخلق حين يرتبط الإنسان مع أمثاله.

إن للحياة مثل هذه السمة الرمزية الهامة بالنسبة لي لأننا رموز وليس مجرد كائنات بشرية.

- أنت مولع جداً بالماء كرمز.

- ربما لأنني دائماً أحتفظ بالماء هنا أمام ناظري سواء كنت أعمل أو في حالة راحة. انظر هذا المحيط الأطلنطي الرائع، وهذا الشاطئ الفاتن الكوباكابانا. إن الماء هو واحد من أكثر الأشياء رمزية لكونه أحد العناصر الأساسية للحياة والخلق. انظر في البحر هناك صراع عندما يتشكل الموج. تلك هي اللحظة التي نميز فيها البحر من اليابسة. تلك المنطقة الساكنة تارة المضطربة تارة أخرى والمصيرية أحياناً، هناك يحدث الخلق.

إنني أكن احتراماً فائقاً للأسرار الكامنة في الأشياء. أعرف بأن هناك أشياء تحدث لكننا لا نعرف لماذا وعلينا أن نحترم تلك المنطقة الغامضة المظلمة.

- تبدأ أحياناً بكتابة شيء ما ثم تندم عليه فيما بعد وتنبذه أو تتلفه.

- هذا صحيح، فعندما أبدأ بالكتابة لا أعرف إن كنت أجيد أم أعمل على نحو سيء. أنا أكتب في البداية لنفسي باعتباري القارئ الأول لكتابتي. لقد اعتدت في الماضي على إعطاء كتبي لآخرين ليقرؤوها قبل أن أدفع بها للنشر. أما الآن فلا. أنا أقوم بالمهمة وعندما أتبين أنني أكتب شيئاً غير مناسب أنبذه. حدث هذا لي منذ فترة ليست بعيدة مع كتاب كنت أعده عن الغجر، وفي لحظة من العمل عليه تخليت عنه.

- وكيف تصبح على علم بأن شيئاً ما تكتبه لا يناسب؟

- لأنني ألاحظ بأنه ليس صادقاً، لا يتدفق بسلاسة. إنه أمر تحس به في داخلك.

- وكيف تختار المواضيع التي تكتب عنها؟

- أنا كاتب ملتزم سياسياً بالأزمنة التي نعيشها وبحثي الأهم كان دائماً في المسعى الروحي. لهذا نجد هذه المسألة حاضرة دائماً في كتبي. مرّ وقت كنت أعتقد فيه أنني أستطيع أن أجيب على أي شيء أُسأل عنه لكنني الآن أتبين أن هذا غير ممكن علاوة على كونه مضحكاً. يمكن أن توجد إجابات لكل شيء مأخوذة من أسياد أو أقطاب لكنها لن تكون إجاباتي الخاصة. الحقيقة هي إننا نستمر في كوننا لغزاً، وأنا واثق من شيء واحد فقط، وهو أن علينا أن نقدم أفضل ما في أنفسنا وعندها فقط تشعر بأنك راض. فإن أنت لم تتصرف بصدق في حياتك فإنك تخدع نفسك وتخدع الآخرين، لكن هذا لا يستمر لأن إمبراطورية الشر لها منطقها الخاص أيضاً.

- ما هي العملية الإبداعية التي تقود إلى كتاب جديد؟

- سأعطيك مثالاً حياً. لقد رجعت لتوي من اليابان حيث قضيت بضعة أسابيع أوقّع كتباً. شاهدت هناك قطعة فنية غريبة لغزال خائف جعلتني أفكر في سيرتي الأدبية. القطعة الفنية موضوع الحديث كانت مؤلفة من قطعة من البامبو وفيها تجويف يمتلئ بالماء بشكل تدريجي. وعندما تمتلئ قطعة البامبو تماماً ينطلق الماء ليدفع في طريقه شيئاً يصدر ضجة كبيرة تخيف الغزال وتبعده. كان هذا رمزاً بالنسبة لي لأننا حين نمتلئ بشيء ما نشعر بالحاجة إلى المشاركة، عند حد معين. يمكن أن نسمي ذلك حباً أو حاجة للمشاركة في الحياة، لكن الحقيقة هي أننا عندما نؤدي عملاً ما بحماس فإننا نفعل ذلك مدفوعين بالحاجة إلى المشاركة.

- وكيف تمتلئ أنت شخصياً؟

- إنني أمتلئ بشكل عفوي لا يداخله التفكير كعملية الحمل التقليدية، بعد إجراء تلاقح مع الحياة رغم أنني لا أعرف إطلاقاً من هو الأب في عملية التلاقح هذه مع الحياة. وطوال عامين، في الفترة الفاصلة بين كتاب وآخر لا أعمل أي شيء، أنا لا أسجل ملاحظات

لكنني أكون جاهزاً كلية للحياة، وفي لحظة ما يداخلني شيء ما ويثقل علي وسرعان ما أشعر بالحاجة إلى الكتابة.

- وكيف تعرف بأنك أصبحت جاهزاً للولادة؟

- ألاحظ ذلك لأنني أبدأ بالشعور لن أقول بالغضب بل بالنزق. وذلك حين أقول لنفسي: «أشعر بالامتلاء، بالثقل، بالجاهزية للولادة».

- إذن بكلمات أخرى عليك أن تكون منفتحاً للتلقي ومن ثم تعطي نفسك فسحة لتجلو الأمر.

- تلك هي بالضبط الوصفة الخيميائية التقليدية، ملخصة بالتذويب والتخثير. وهكذا يكون عليك أن تفكك وتركز. إنها تشبه آلية عمل القلب، وعمليات أخرى عديدة في الطبيعة.

- هل من المهم لك أن تخصص ساعات منتظمة للكتابة أم أنك تفضل الفوضى؟

- أحب الفوضى في أشياء أخرى، أما حين يتعلق الأمر بالكتابة فإن الانضباط أساسي بالنسبة لي. الانضباط هو أكثر الأشياء إيجابية في الثقافة التي تلقيتها في مدرسة الجزويت والتي كانت سلبية جداً في جوانب أخرى. عندما أجلس أمام الكمبيوتر جاهزاً للبدء بكتاب فإن كسلاً مريعاً يمسك بي. أقول لنفسي: «لقد كتبت ما يكفي من الكتب حتى الآن، أنا كاتب مرموق فلماذا أحتاج المزيد». بالطبع هذا مجرد تبرير لكسلي. البداية دائماً صعبة، التدفق السلس يأتي لاحقاً لكن الشيء الأصعب هو عندما تجد نفسك في منتصف الكتاب لأنك لا تمتلك الحماس الذي كان لديك في البداية وأنت تعلم أنك ما زلت بعيداً عن النهاية، عند هذه المرحلة يستسلم العديد من الكتّاب.

- وهل لك كبعض الكتّاب الآخرين عادات أو ترّهات تتبعها دائماً حين يجيء وقت الكتابة؟

ـ أجل، لدي العديد منها. أحدها مثلاً هي أنني حين أبدأ كتاباً لا أستطيع التوقف حتى ولو ليوم واحد لأنني إن فعلت فلن أكون قادراً على البدء ثانية. أحياناً لأتفادى التوقف حين أكون مسافراً، فإنني أكتب وأنا على متن الطائرة أو في الفندق. خرجت فقط على هذا التقليد في كتابي «فيرونيكا تقرر الموت». ففي البداية كنت وفياً لهذا الالتزام، لكنني اضطررت إلى ترك الكتاب لوهلة وشكراً لله أنني كنت قادراً على المتابعة فيما بعد، وهذا يظهر أنه حتى في المعتقدات الوهمية هناك استثناء للقاعدة. واحدة أخرى من عاداتي هي أن علي أن أخط كتبي هنا في البرازيل في منزلي في الكوباكابانا.

ـ لكن المستغرب أن جميع كتبك تقريباً تستمد إلهامها من إسبانيا، ولا كتاب واحد حتى الآن يستمد الإلهام من البرازيل.

ـ بالضبط وهذه إحدى مفارقاتي. إن شغفي بإسبانيا ينشأ من حقيقة أنني عندما كنت صغيراً جداً كانت لدي مربية إسبانية. ومنذ ذلك الحين فإن كل أوهامي وتخيلاتي كانت متوجهة إلى ذلك البلد. لذلك لدي هذا العدد الكبير من الكتب التي اتخذت من إسبانيا منطلقاً لها، لكن لكي أكتب أحتاج إلى مسافة ما، وإلى أن أكون هنا، رغم تورطي في آلاف المشاكل. لكنني أحتاج إلى خلق روتين الحياة اليومية، كما أنني أشعر بانتمائي العميق إلى البرازيل ولهذا أحتاج إلى برازيليتي لأكتب.

ـ وماذا يعني لك كونك برازيلياً؟

ـ إنه يعني العيش في أرض دائمة التوالد، في مزيج فريد من الأعراق في العالم، مزيج بتأثيرات أفريقية، برازيلية فطرية يابانية وأوروبية. إن ذلك المزيج من آلاف الأشياء هو الذي علمنا نحن البرازيليين أن نكون متسامحين تجاه العالم الروحي، مع كل السحر الذي يتجلى من خلال الرموز الأساسية للموسيقى والرقص والشعر.

ـ في أوروبا لم يعد هذا التسامح موجوداً.

ـ ليس الأمر أنه لم يعد موجوداً بل إنكم قد نسيتموه. دعنا نفكر دقيقة في التاريخ حين بدأ البدو الرحل يهبطون من الجبال ليبنوا المدن الأولى. من اختار الأماكن وأية دوافع قادتهم لتفضيل مكان محدد لإنشاء مدنهم؟ لم تكن معايير منطقية بل معايير سحرية غرائبية. كان زمن يسير الله فيه مع البشر في تجوالهم المستمر ولم يكن الله قد أخذ اسماً بعد لأنه لم يكن مرتبطاً بمكان محدد. تعدد الآلهة وتعدد أسماء الله قد ولد مع ولادة المدينة.

ـ ومن ثم بدؤوا يبنون المعابد.

ـ بدأت المدن عندما اكتشف البشر الزراعة وفهموا أنهم يستطيعون العيش دون الحاجة إلى التنقل الدائم. وفهموا أيضاً مسيرة الزمن البطيئة بين البذار والحصاد، وتلك بالضبط هي رحلتي الفكرية ككاتب. إنها اللحظة التي اكتشف الإنسان فيها العلاقة بين الحب والحمل. ولهذا عندما كانت هذه العملية غير معروفة لم يكن أحد يعرف من كان الأب. ثم بدأ الإنسان يلاحظ إن الأشياء تستغرق وقتاً لتنبت وتتطور ووقتاً للولادة والنمو.

ـ ونشأت المدن حول المعابد.

ـ أول سور أنشأه البشر لم يكن سوراً يحيط بالمدينة بل السور الذي أنشئ حول المعبد، وهكذا برز الفصل الكهنوتي وسلطة المقدس. وعندئذ كان لا بد أن يأخذ الله اسماً ويتبناه المذبح الكنسي وقسم من السكان. ولهذا كان الفصل بين المقدس ـ المعبد حيث تقيم السلطة، والدنيوي أو العالم القائم خلف تلك الأسوار.

ـ واستمر ذلك الفصل حتى الآن.

ـ بنية المدينة تتغير، وسائل النقل، الأنظمة الاجتماعية والحكومات كل ذلك يتغير، لكن رمز ذلك الجدار، الفصل بين المقدس والدنيوي يبقى ماثلاً. وهو الفصل الذي كسره المسيح في بشارته الإنجيلية. فهو يخبر المرأة السامرية بأن يوماً سيأتي حين

يتوقف الناس عن ممارسة العبادة في هذا المعبد أو سواه ويمارسونها في الروح والحقيقة. وفي أمثولته عن السامري الطيب يمتدح السيد المسيح سلوك السامري الكريم الذي يساعد الرجل الجريح الذي سقط إلى جانب الطريق، رغم حقيقة أن السامريين كانوا كفاراً لا دين لهم، في حين أنه ينتقد اللاوي العبراني الذي كان من أهل التدين ومن رجال المعبد. لكن الآن بدأ العديد من الناس يدركون أنه للتمتع بالغامض والسري وإدخاله في مجرى حياتنا اليومية فمن الضروري أن تحطم هذا الفصل القائم بين ما هو مقدس وما هو دنيوي. وبتحطيمنا هذا الجدار الفاصل فإن المقدس يبدأ بالنفاذ إلى ما هو دنيوي وهذا ما يحدث في البرازيل.

- هذا بالضبط هو الفرق الكبير الذي يلاحظه الأوروبيون عندما يصبحون على تواصل مع البرازيليين.

- وهل تعلم السبب في ذلك؟ لأنه في البرازيل وبسبب الخليط من الأعراق والثقافات، لم يكن لديهم الوقت لإشادة ذلك الجدار الفاصل حول المذبح الكنسي. فالعبيد الأفارقة وصلوا باهيا مع طقوسهم واختلطوا مع المسيحيين وولدت بذلك الحركة التوفيقية. وهذه ليست إيجابية دائماً لكنها أفضل من أن يهيمن دين واحد على الآخر. وطالما لم يتم بناء ذلك الجدار الفاصل بين المقدس والدنيوي فإن الغموض والسري وسحر الواقع قد نفذ إلى كل شيء، نفذ المقدس إلى الدنيوي. لهذا فإن البرازيليين لا ينفرون من القضايا الروحية ويتقبلون كل التجارب المطعمة بالروحانيات والأسرار. لا أدري إن كنت قد لاحظت بأن لاعبي الكرة الوحيدين في كأس العالم الذين نزلوا إلى الملعب ممسكين يداً بيد من أجل انتقال الطاقة فيما بينهم، كانوا من الفريق الوطني البرازيلي. وإن رونالدو الذي هو دائماً في طرف النسق كان عليه أن يترك يده الأخرى حرة الحركة ليلمس بها أرض الملعب ويستجمع الطاقة من الطرف الإسفلتي للملعب.

- إذن البرازيليون ليسوا فقط منفتحين على الأديان كافة

والتجليات الروحية كافة، بل إن هذه تشكل جزءاً من حياتهم على الأصعدة كافة.

- إذا جئت إلى هنا في ليلة رأس السنة الجديدة إلى الكوباكابانا في الريو فسترى مشهداً لا يصدق، ستجد نفسك وسط مليون إنسان وكلهم كاثوليك، لكنهم نزلوا جميعاً إلى الشاطئ وقد لبسوا الأبيض بالكامل ليلقوا بالأزهار في الماء والذي هو طقس أفريقي. هنا تتعايش كل المعتقدات وكل المؤمنين على اختلاف مشاربهم. يعرفون كيف يتصالحون دون أن يمس ذلك دواخلهم، وكل علماء اللاهوت يعرفون ذلك جيداً.

لهذا أقول بأن كوني برازيلياً يؤثر كثيراً على مسيرتي الفنية الإبداعية، لأن الناس هنا يغلب عليهم الحدس ولا يخجلون من خوض التجارب في الروحي أو السحري. إنهم أميَل إلى المفارقات المتناقضة منهم إلى الديكارتية، إنهم إنسانيون إلى حد هائل ومنفتحون على كل ما هو غامض وغريب.

- ولهذا اخترت أ ن تعيش هنا.

- لقد اخترت العيش في البرازيل وفي هذه المدينة بخاصة، ريو دي جانيرو المدينة الأكثر روعة في التجاوزات والحيوية في العالم كله. سبق أن قلت لك بأنني رجل التطرف والنهايات. كتب وليم شكسبير مرة يقول «إن طريق التخطي يقود إلى قصر الحكمة» وهذا ما أؤمن به، لذا عندما أكتب كتاباً أقول إنني أخط ما هو «برازيلي» بشغف. وهكذا في الريو، اخترت العيش هنا في الكوباكابانا، في مواجهة البحر. في الريو أماكن أكثر هدوءاً وسط الغابات لكن هذا مكان المفارقات الصارخة بين البحر والغابة. يمكنك ملاحظة كم هو الفارق كبير من الأبيض والأسود على رصيف الشاطئ، كما أن البؤس والثراء يعيشان هنا جنباً إلى جنب. وهناك مناطق مجاورة أخرى هجينة. هناك منطقة مجاورة ذات سمات بارزة تشعر فيها بالانسجام مع طقس الكتابة.

ـ في معرض الحديث عن ليلة رأس السنة الجديدة هل تقضيها هنا في الريو؟

ـ لا، ربما تجد ذلك غريباً، إذ أنني قضيت الليلة الأخيرة من السنة الماضية في كهف لوردس.

ـ قضيت رأس السنة في لوردس؟ يقولون بأنه في الليلة الأخيرة من القرن الأخير لم يكن هناك مكان واحد شاغر في فندق أو مطعم في أي من المدن الهامة في العالم.

ـ المهم كان لي زاوية في ذلك الكهف. وفي العام 1989 قضيت عيد ميلادي هناك وكانت تجربة مثيرة، وفي العام الذي تلاه بدأنا كريستينا وأنا نقضي رأس السنة في كهف الأخيلة. هو في العادة شديد البرودة، ولا يتواجد هناك أكثر من خمسين شخصاً. في المرة الأولى التي وجدته فيها مؤثراً كنت مفتوناً بالعذراء، إنه الدين كعبادة، كهيام. الناس هناك من أماكن مختلفة وبعواطف شديدة التباين يشعرون بالتوحد لمجرد الجو الديني والصلاة البسيطة.

ـ وكيف تحتفي بالسنة الجديدة؟

ـ ليس هناك احتفاء بالمعنى العملي فلا مرح ولا حزن، مجرد صفاء. ودائماً هناك مطر تقريباً. نتناول العشاء في الفندق أولاً، وجبة بسيطة ثم يتمنى كلٌ للآخر عاماً سعيداً. هناك تمر بتجربة سر الإيمان المطلق. حدث مرة أن ذهبت إلى الكهف في الصباح وكان هناك رجل جالس يتأمل وحين عدت في المساء كان مايزال جالساً، ربما كان يوفي بنذر، لست أدري. الحقيقة هي أن كل شيء سكون، بالغ السحر في تلك الليلة في لوردس مع وجود تلك القلة من الناس.

ـ لكن ألا تظن بأن البعد السحري غريب بعض الشيء على السائد في مجتمع يعطي الأولوية للإنتاج والتقنية وعولمة السوق؟

ـ دعني أخبرك شيئاً يا جان، ولنبدأ بالقول إن عولمة السوق والبورصة وما إلى ذلك هي بمجملها التجربة الأكثر سحرية، إنها

سحر حقيقي لأن علماء الاقتصاد لا تقل لي يعرفون كل شيء عنها، بل هم في متاهة. إنهم غير قادرين على إجراء تنبؤ أو على التخطيط لأي شيء لأن سحر الأسواق العالمية وأسواق البورصة يفعل فعله، ويكفي أن يصاب الاقتصاد الياباني بنزلة برد خفيفة حتى يصاب الجميع بأنفلونزا حادة. إنهم يتحملون هذه التأثيرات السحرية وهم لايفهمونها ولايستطيعون التحكم بها.

كل هؤلاء الجهابذة الاقتصاديون والقديسون الأجلاء لهم مكانتهم وعقائدهم وخفاياهم الغامضة وأسرارهم التي يتلاعبون بها للتأثير علي فقراء الناس، لكن الحقيقة هي أن سحر أسواق البورصة حالياً يعريهم ويتركهم دون معتقد.

ـ لكنك أنت تلعب لعبة السوق أيضاً.

ـ قليلاً وكنت دائماً حين ألعبها أتحدى السمسار وأربكه. كنت أتقدم منه وأقول «هذه الأسهم المنخفضة ستعود للارتفاع ثانية». فيقول «لا»، وأقول أنا «بل سترتفع» وحين ترتفع الأسهم يسألني «لكن كيف عرفت ذلك؟»، وأجيب «لأن لدي حدس أنثوي»، فإن كانت الأسهم قد تراجعت بهذه الحدة فالأمر عقلاني أن تعود للارتفاع ثانية. قد تقول إن من غير الممكن ذلك وتقدم لي آلاف الأسباب. أنا فقط أسترشد ببساطة بحركة المد والجزر، فحيث يوجد جزر هناك حتمية لعودة المد، الأمر بهذه البساطة.

ـ إنه سحر يصبح أكثر فأكثر صعوبة من أن يتحكموا به.

ـ إنهم فقط يقومون بالتخمينات العلمية، ونظن نحن بأنهم يعرفون، لكن الحقيقة أنهم في ظلمة تامة، شأنهم شأن كل علماء الاقتصاد. إنها كلعبة قوى الخير والشر. إذا قررت قوى الشر مرة أن تخفض قيمة العملة البرازيلية وتدمر اقتصادنا فستفعل ذلك، ولن يكون هناك علماء اقتصاد يستطيعون فعل أي شيء بهذا الصدد، ولا حكومة قادرة على منع ذلك. ولهذا فأنا نادراً ما أتورط بهذه الأمور، أنا أضع أموالي مثلاً في حسابات ادخار وهذا كل ما في الأمر.

- هل تعتقد بوجود الشر إذن؟

- سؤال جيد. إنني أعتقد بوجود نوعين من الشر: شر طبيعي وشر من صنع الإنسان. الشر الطبيعي وهذا لأنني موحد أؤمن بإله واحد هو اليد اليسرى لله، أي الأشياء التي تحدث. أما الشر المصطنع فهو ما نقوم به بأيدينا ونسقطه على الوقت، لأن هذا الكون رمزي وله تجليات في الواقع. فلكي تضع حداً للظلام يكفي أن تشعل شمعة لأنك لا تستطيع أن تنير الظلام نفسه.

- كأنك تقول أنك لا تحب المجاز.

- هناك أشياء لا نستطيع شرحها إلا بالصور، لكن بالعودة إلى الشر فإن ما ندعوه شراً هو أشياء تكون قد حدثت ولا يستطيع المرء أن يفهمها وهذا يؤلم. المثال التقليدي هو أيوب.

- ألا تعتقد بأن في هذا خطر الانتهاء إلى تبرير الألم والظلم بدلاً من مقارعة البنى التي تولدها؟

- دائماً هنالك خطر وهذا الخطر قائم في المسعى الروحي عموماً. علينا دائماً أن نكون يقظين، لكنني أؤكد لك أنني لم أعرف إطلاقاً أي شخصٍ ممن اتبعوا بجدية مسعىً روحياً يبرر المعاناة ولا يعمل أي شيء لمحاربتها بحدود إمكانياته.

- لكن، ألا تعتقد بأن هناك أناساً يتباهون بكونهم روحانيين ولا يعملون أي شيء لتغيير هذا العالم الظالم؟

- لا أظن أن عليك أن تعمم. مَنْ الذين غيروا مجرى حياتي على سبيل المثال؟ إنهم أناس أناروا بصيرتي بكونهم مثالاً، ولهذا كان لا بد أن يكونوا ملحوظين وليسوا من ذوي العقد المتباهين بفضائلهم. يرد في الكتاب المقدس بأنك لا تضيء الشمعة لتضعها خلف الباب بل لتنير بها البيت.

لقد رأيت أيضاً أشياء مرعبة في حياتي، أناس حاولوا التلاعب في عالم السحر والعالم الروحي وعليّ أن أعترف بأنني أنا أيضاً

في السبعينيات حاولت التلاعب بالآخرين. لكن في النهاية فإن الناس ليسوا بالغباء الذي نتصوره عنهم، وهم يعرفون كيف يميزوا بين من يقودهم إلى النور وبين من يقودهم إلى الظلمة. منذ عدة أيام فقط شاهدت برنامجاً تلفزيونياً عن الفرق الباطنية. أنا لديّ رعب من الفرق الباطنية، لكن الطريقة التي قدموا بها ذلك البرنامج كانت مثيرة للشفقة. إنهم يعتقدون بأننا أطفالاً صغاراً غير قادرين على التفكير ذاتياً.

- لنعد إلى وضعك ككاتب، ألا تعتقد بأنك مسؤول عما يحدث؟ لأن الملايين من الناس تقرأ كتبك ليس على نحو سلبي بل إيجابي.

- إن استطرادنا في هذا الحوار هو مهم جداً لقرائي لفهمي على نحو أفضل ككاتب، لأن المرء يكتب ما يشعر به وما يجربه. وبشأن حدود مسؤوليتي، أنا أشعر بالمسؤولية وتحديداً لأنني أرى التأثيرات التي تمتلكها كتبي ولأنني واعٍ لكوني قد كنت مخطئاً مرات عدة في حياتي.

أعرف أنني كاتب مشهور ومترجم إلى كل العالم ومحبوب كثيراً ربما، لكنني أيضاً عرضة للقرصنة والمقت والكراهية. إلا أنني حاضر وحيّ. أعتقد أن السؤال الأول الذي يجب أن أسأله لنفسي ككاتب هو إن كنت صادقاً مع نفسي أم لا. وحتى هذه اللحظة أشعر أنني كنت كذلك، وبما أنني أجوب العالم أيضاً متحدثاً مرة بعد أخرى في مناطق مختلفة عن الكتاب نفسه، فإنني أجد نفسي مضطراً للإفصاح لهم عن ذاتي. وخاصة وأن علي أن أقدم الكتب نفسها في أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة مما يبقيني في وضعية المفصح عن ذاته للآخرين.

- وهل يزعجك أن ينظر إليك القراء كقطب أو معلم علاوة على كونك كاتباً؟

- تلك مشكلة. يزعجني أحياناً ذلك الحد بين الكاتب والمعلم

وأتساءل إن كنت مستعداً لذلك التحدي. فهو قنبلة موقوتة. وقد تدبرت أمر التخلص منها الآن، مقتصراً على وضعي ككاتب. إنني أتصرف كمحرض لما ينبغي علي أن أقوله في كتبي.

ـ هذا بالضبط ما قاله فيديريكو فيلليني عندما سألوه عن رأيه عن أمر حدث أو قد يحدث، إذ حمى نفسه بالقول «لقد قلت كل ما أود قوله في أفلامي».

ـ هذا رائع. الحقيقة أنني حاولت حتى الآن أن أدافع عن نفسي بحيث لا أخرج عن دوري ككاتب. فمنذ خمس سنوات مضت كان بوسعي أن أقضي كل وقتي في إلقاء محاضرات وندوات وما شابه من أبحاث تدر علي الكثير من المال. في البرازيل وحدها بعت ستة ملايين كتاب وهذا يعني بضع ملايين من القراء. لو أن كل واحد منهم دفع دولاراً واحداً ليأتي لمحاضرة واحدة لي لكنت جعلت من نفسي جامع أموال، لكنني لم أفعل ذلك.

ـ كيف تتعامل مع النقد الذي يوجهه البعض لطريقتك في الكتابة؟

ـ النقاد لهم عملهم وهم دائماً يساعدون الكتّاب. أنا لم أشعر مرة بالأذى الشخصي بسبب مراجعة نقدية لأنني مدرك بأنني قد قررت الكتابة ببساطة ومباشرة بحيث يستطيع كل امرئ فهمي، لهذا قول البعض بأنني بالغ التبسيط في كتاباتي. أنا لا أعتقد بأن هناك طريقة واحدة صحيحة للكتابة. لكل من الكتّاب شخصيته وخصوصياته وكلٌ يكتب لقرائه الخاصين.

لكنني لا أواجه نقادي إطلاقاً. وعندما نلتقي أكون ودياً معهم ليس لأنني خارج أطر النقد، وليس إحساساً بالترفع بسبب بيعي ملايين الكتب، بل لأن لدي الوعي التام بفعل الأشياء على الطريقة التي أقوم بها، فأنا أشعر بالحب والميل إلى الناس البسطاء المخلصين والواقعيين. إنني أتماهى معهم.

ـ لكنني، على أية حال، رأيتك غاضباً جداً مع بعض الناشرين.

ـ سأشرح لك السبب. في البداية لم يكن لدي أية خبرة، وكنت أوقع عقودي بكل لغة على حدة. وحصل أن وصلت كتبي إلى الهند من بلدٍ آخر وبسعر خمسة عشر دولاراً. في حين أن متوسط ثمن الكتاب في الهند هو حوالى الثلاثة دولارات. والهند هي بلد الخمسمئة مليون إنسان. كيف لهم أن يرسلوا إلى هناك كتباً بهذه الأسعار من إنكلترا أو من إيرلندا؟ لذا واجهتهم بالأمر. طلبت أن تنشر كتبي في كل بلد بحيث تسعّر بما يتوافق مع المكان وليس ككتب ترفٍ مستوردة. والشيء ذاته حدث لي في أمريكا اللاتينية وأفريقيا. اعترضت لأن ناشر كتبي البرتغالي أرسل هذه الكتب إلى أفريقيا بالأسعار الأوروبية. قلت له: «ماريو، أنت اشتراكي ولا تؤمن بالله. أما أنا فأؤمن به. لكن قلبك الاشتراكي يجب أن يفهم بأننا لا نستطيع أن نبيع الكتب في أفريقيا بمثل هذه الأسعار المرتفعة. يجب أن تُطبع هذه الكتب هناك». والآن لدينا كتب، في أنغولا، على سبيل المثال بطبعات محلية.

ـ أنت تبقي مكتبتك دائماً خارج الأنظار. لماذا؟

ـ كما سبق وأخبرتك، لا أحب أن أكون مستعرضاً لما أقرؤه أو لما قد قرأته. في العام 1973 كان لدي شقة مليئة بالكتب. وفي أحد الأيام عدت إلى البيت لأجد الرفوف كلها قد سقطت. وفكرت بأنني لو كنت موجوداً هناك في تلك اللحظة، لكنت ربما مُتُّ مدفوناً تحت الكتب. فكرت أيضاً ببورخيس عندما تسأل في مكتبته «أيّ من هذه الكتب لن أقرأها ثانية؟» سألت نفسي السؤال ذاته. «لماذا أحتفظ بكل هذه الكتب التي أعرف أنني لن أقرأها ثانية؟ وعلى من أحاول أن أؤثرَ بذلك؟». وقررت عندها بأن مكتبتي لن تتجاوز الأربعمئة كتاب، وهو رقم يعتبر كبيراً فيما لو أردت إعادة قراءتها. وأنا لا أستبقي هذه الكتب هنا في البيت، بل أحتفظ بها في خزائن في مكانٍ آخر.

ـ هل تشعر بأنك متخطٍ أو خارج على المألوف في كتبك؟

- لكي يكون المرء كاتباً فإنه يحتاج إلى بعض الفنتازيا، بعض التجاوزات. يحتاج إلى خرق قواعد المعرفة التقليدية. أنا أحاول دائماً بين الصرامة والحنو، وبذا يتوافر الحد الأدنى من الحكمة بحيث لا يرتكب المرء ترّهاتٍ محددة. لكن مالا نستطيع أن نفعله هو أن نقتل الطفل الذي بداخل كل منا. أنا أعتقد بأن كتبي تُقرأُ أفضل من قِبل الطفل الذي يحمله قارئي بداخله. لهذا أكتب القصص التي أحبها. ولهذا لا أكتب أبحاثاً فلسفية أو نظريات عظيمة ومملة، فإن أراد شخص ما أن يعرف رؤيتي للحياة والأشياء، فإنني أتحدث عندئذ كما أتحدث إليك الآن في هذا الكتاب. أما إذا أردت التحدث عن حدود الجنون والواقع، فإنني سأكتب عندئذ رواية ذات حبكة أحبها وفي سياق قصة تشمل كل ذلك. لكن القصة ستخاطب طفلاً، والطفل هو الآمر الذي يتحدث إلى الدماغ والآخرين.

- قد يعترض أحدهم قائلاً بأن البحث عن الطفل في داخلنا نابع من الخوف من التعامل مع الجانب الناضج فينا.

- وما هو هذا الجانب الناضج؟ ما هو النضج أصلاً؟ أليس هو بداية الانحدار؟ إن الثمرة عندما تنضج، إما أن نأكلها أو تتعفن. أنخاف من الطفل الذي بداخلنا؟ هذا سخف. من الذي يستطيع القول بأنه أصبح ناضجاً، راشداً، ولا حاجة به للإيمان بالله، وهو قدوةٌ لنا جميعاً؟ إن المجنون وحده يستطيع أن يزعم ذلك. لكن الحقيقة هي أننا جميعاً في حالة ارتقاءٍ دائم. ننضج ونولد من جديد في كل لحظة.

- إنهم مثل أولئك الذين يقولون بأنهم لا يخشون أي شيء.

- تماماً. إحدى الشخصيات في واحد من كتبي تقول «ما هي الشجاعة؟» إن الشجاعة هي الخوف الذي يدفعك إلى الصلاة. أنا أؤمن بذلك بشدة، لأنك لا يمكن أن تكون شجاعاً دون أن تدفعك حالة خوفٍ إلى ذلك. هذه هي المفارقة العظيمة. فلولا الخوف لكنت ألقيت

بنفسي من النافذة، أو لعرضت نفسي إلى الدهس بسيارة في الطريق. إن الرجل الذي لديه قيم هو رجل لديه مخاوف لا يدع نفسه يُروّع بها.

ـ من الذين كانوا قدوة لك في شبابك؟

ـ بشكل أساسي كان هنالك موسيقيٌ وكاتب: جون لينون وخورخي لويس بورخيس. تصور أنني لكي أحاول مقابلة الكاتب الأرجنتيني العظيم شخصياً فقد أخذت مرة الباص من هنا من ريو دي جانيرو إلى الأرجنتين، كنت لهذه الدرجة متعصباً له. ورتبت أمر الحصول على عنوانه وذهبت برفقة فتاة. وصلنا إلى العنوان الذي أُعطيته وهناك أخبروني بأنه يقيم في فندق في الشارع المقابل لمنزله، اقتربت منه كان جالساً وكنت قد قطعت ثمانٍ وأربعين ساعة في السفر دون نوم لأتحدث إليه، ولكنني وقد ووجهت بحضوره أصبحت أصماً. قلت لنفسي «إنني في حضرة مثلي الأعلى والمُثل لا تتكلم». لم أقل له أية كلمة. لم تستطع الفتاة التي معي أن تفهم الموقف فشرحت لها إنني في أعماقي أردت فقط أن أرى بطلي وهاقد فعلت. الكلمات لم تكن ضرورية.

ـ إنه رباط قوي جداً استمر طيلة حياتك.

ـ وبشكل مطلق. إن لبورخيس تأثير عظيم على أعمالي، إنني أهتم بنثره وشعره وأنا فخور أنني ولدت في الرابع والعشرين من آب، مثله، حاملاً الدلالة نفسها. رغم أن ولادتي جاءت متأخرة عنه بسنوات عديدة، كما هو واضح.

ـ أتحب نثره أكثر من شعره؟

ـ أحب كل ما كتبه. لقد قرأت قصائده آلاف المرات وأحفظ العديد منها عن ظهر قلب.

ـ يصعب تصديق هذا بعض الشيء. هل لنا أن نختبرك؟

ـ مباشرة. هل تريد مني أن أتلو عليك واحدة من سوناتاته.

ـ فلنسمعها.

ـ اصغِ إلى هذه على سبيل المثال:

لن أكون سعيداً الآن وهذا قد لا يهم.

فهناك أشياء عديدة أخرى في العالم.

فأية لحظة عشوائية

تكون صاخبة متنوعة كالبحر.

الحياة قصيرة

ورغم ما تبدو عليه من طول،

فإن هنالك سراً غامضاً يكمن لنا بالانتظار

الموت، ذلك البحر الآخر، ذلك السهم الآخر

الذي يحررنا من الشمس، والقمر، والحب.

السعادة التي منحتني إياها مرة

واسترجعها فيما بعد، ستزول.

والذي كان كل شيء لا بد حائل إلى لا شيء.

أنا فقط أحتفظ بطعم حزني الخاص

وحثيثٍ واهٍ يشدني إلى الطرف الجنوني

إلى ناصية معينة، إلى باب محدد هناك.

(تلا كويلهو القصيدة دون أدنى خطأ ودون تردد وبإسبانية بليغة. القصيدة هي سوناتا تدعى «1964(II)»، وهي موجودة هنا في ترجمة السير رايد. لقد اجتاز كويلهو الاختبار بامتياز).

ـ أين تود أن ترى كتبك مصنفة في دور المبيعات؟

ـ بعضها في قسم الآداب والبعض الآخر في قسم الفلسفة لكن

ليس في الأقسام المختصة أو المقتصرة على فئة. أقول هذا دون خجل ودون تواضع بل بفخر.

ـ وكيف ترى نفسك كقارئ؟

ـ إن لي ارتباطاً مع الكتب يكاد يكون سحرياً، وهنا أيضاً لي ترهاتي، فأنا فقط أقرأ الكتب التي أشتريها أولاً بأول، وليس تلك التي تهدى إلي. أنا أتلقى حوالى العشرين كتاباً في اليوم وأنا لا أفتحها حتى لمجرد التصفح.

ـ لكن يمكن أن تفقد بذلك شيئاً رائعاً لمجرد أنه جاءك كهدية.

ـ إذا كان شيئاً جيداً حقاً فسأعرف ذلك عنه ثم أذهب إلى دور البيع لأشتريه. أنا لا أعتقد بأن على الكتّاب أن يوزعوا كتبهم كهدايا. مصانع الأحذية لا ترسل لي أزواجاً من الأحذية فلماذا على الناس أن يرسلوا الكتب؟

ـ لا تقل لي بأنه لا يوجد لديك استثناءات في هذا الخصوص. في بعض المناسبات وزعت أنت كتباً لك وفي مناسبات أخرى قرأت كتباً كانت قد أُرسلت لك. لقد أريتني رسالة مثلاً من وزير القوات المسلحة البرازيلي يشكرك فيها لإرسالك له نسخة من «دليل المحارب، فارس النور» والتي أحبَها كثيراً.

ـ بالطبع توجد استثناءات. وفي الحالة التي تذكرتها كان الوزير نفسه هو من طلب مني النسخة، ولو لم يفعل لما كنت أرسلتها له.

ـ ثم ألم تقرأ كتابي «حوارات مع جو ساراماكو، الحب الممكن» الذي أرسلته لك؟

ـ نعم قرأته، وليس مرة واحدة فقط. لكن هذا شيء آخر. فقد كنت قادماً إلى هنا لتشتغل على كتابي معي كالكتاب الذي قدمته عن ساراماكو، وكان لدي فضول هائل لأعرف كيف يبدو حقيقة كاتب ناجح ومشهور مثل ساراماكو، ومن الطبيعي أن أكون قد أردت

قراءته. الأمر ذاته ينطبق على كتابك «إله من أجل البابا» فأنا لم أعلم حتى بوجوده في مكتبات البيع. أخبروني عنه في مدريد، لذا طلبت منك نسخة، لأنني مهتم جداً بمعرفة سيكولوجية البابا جون بول الثاني. لكن بشكل عام عندما أريد كتاباً حتى لو كان الأمر خارج أطر الاحترام للكاتب، فإنني أريد شراءه ولا أريد أن يهدى لي.

ـ لكن المؤسسة أحياناً تشتري كتباً تحمل اسمك لتهديها.

ـ هذا صحيح. فالمؤسسة اشترت اثني عشر ألف نسخة من كتبي لترسلها إلى مكتبات في السجون والمستشفيات وما شابه ذلك. سألني الناشر إن كنت أريدها بسعر التكلفة، فقلت بل أريدها بالسعر الكامل كما لو أنها قد بيعت من قبل مكتبة مبيعات.

(دخلت إحدى بنات أخته في الحوار. واعترف كويلهو بأنه أهداها مرة نسخة من أحد كتبه وسألها «هل قرأتها؟»، فأجابت الفتاة بأنها لم تفعل. وتظاهر الخال بالغضب قائلاً «ماذا تقولين؟ عندك خال تُقرأ كتبه في كل أنحاء العالم وأنت لا تقرئين كتبه؟ لو أنك قد اشتريت الكتاب من نقودك الخاصة أراهن بأنك كنت ستقرئينه». لكن شريكتي في الحوار مع كويلهو وإمعاناً منها في مناكفته بمودة أعطته كتاب قصائد لها وقالت: «أنا أقدم لك هذا الكتاب، تستطيع أن تلقي به في صندوق النفايات». ابتسم كويلهو ثم احتضنها وقال «عليك أن توقعي عليه من أجلي»).

ـ كم من شخصيتك موجود في كتبك؟

ـ حقيقة أنني كل الشخصيات التي في كتبي. الشخص الوحيد الذي ليس أنا هو الخيميائي.

ـ ولم ذلك؟

ـ لأن الخيميائي يعرف كل شيء مسبقاً بينما أنا أعرف أنني لا أعرف كل شيء، هناك الكثير مما لا أعرفه. بالطبع في كتاب الخيميائي، أنا الراعي وأنا تاجر الكريستال بل وحتى فاطمة. في

الكتب الأخرى أنا دائماً الشخصية الرئيسية أنا أيضاً برايدا. كما أنني موجود بكليتي في كتابين هما «فتيات فالكيري» و«حاج كومبوستيلا». الحقيقة أن معظم كتبي، رغم أنها سر أدبي، إلا أنها ليست من صنع الخيال. إنها تجارب فعلية خبرتها. الشيء ذاته ينطبق على رواية «فيرونيكا تقرر الموت». إنها ليست أكثر من تجربة مصاغة قصصياً عن القضية المرعبة لإدخالي المصح ثلاث مرات.

ـ هل تشعر بأنك كاتب رحّالة؟

ـ كل الكتّاب بحاجة لأن يكونوا في حالة حراك، على الأقل داخلياً. أنا لا أعتقد بأن بروست قد تنقل بجسده كثيراً لكنه بالمثل كان كاتباً واسعاً شمل الآفاق. كل الكتابات الكلاسيكية في الأدب هي قصص عن رحلات عظيمة من الكتاب المقدس إلى الكوميديا الإلهية ومن دون كيخوتِ إلى الإلياذة. إنها دائماً قصة البحث عن إيثاكا، إنها مجاز الولادة والموت، تلك الرحلة العظيمة التي علينا جميعاً أن نقوم بها سواءً شئنا أم أبينا.

10

القراء

«أن قرائي متواطئون معي بالدرجة الأولى».

«أكتب للطفل الذي بداخلنا».

لباولو كويلهو ملايين القراء في كل قارة وفي كل لغة. إن من الصعب توصيف انتشاره بين القراء إذا أخذنا تنوع قرائه بعين الاعتبار. ورغم تلقيه آلاف الرسائل والملاحظات من القراء، فإن ذلك لا يكفي للمعرفة الحقيقية بما يحبه هؤلاء القراء فعلاً. ما يمكن معرفته هو كيف يرى كويلهو نفسه مقارنة بهؤلاء الملايين من القراء الذي يشعر باتجاههم بأنه صديق أكثر منه معلم، وفوق كل شيء يعتبرها علاقة تواطؤ. فهو قادر على استخلاص عينة صغيرة من مشاعر قرائه تجاهه من خلال جولاته حول العالم. وما يشعر به هو تلك الدرجة من الحماس التي يثيرها حضوره وليس مجرد كتبه فقط. إن مخزونه من الحكايا يشمل مشاهد مؤثرة، سحرية ومدهشة.

س ـ دعنا نتحدث عن السمات العامة لقرائك.

ج ـ ما أود أن أخبرك به أولاً هو أن علاقتي مع تلك الكتلة الهائلة من القراء المجهولين هي علاقة قوية جداً، إنها ليست علاقة المعلم بالتلميذ وليست العلاقة التقليدية بين الكاتب وقرائه.

ـ أي نوع من العلاقة هي إذن؟

ـ إنها علاقة صداقة، رغم أننا لا نعرف بعضنا بعضاً كما لو أنني أشترك معهم بشيء بالغ الخصوصية. لكنه شيء لن يمتلك مثله كل شخص وهو الشيء الأمثل عند كل واحد منا.

ـ دعنا نر آخر رسالة تلقيتها.

ـ انظر إنها غريبة جداً، إنها من شاب أرسل لي صورة يظهر فيها كلانا وكما ترى كنا في حفلة ما لتوقيع كتاب في بريطانيا. إنها رسالة أنثوية جداً ومزينة بالرسوم. يقول المرسل أنه يدرس البرتغالية ويحلم بالملائكة. لقد أرسل لي الصورة لكي أوقعها له. أنا لا أذكر متى أخذنا الصورة لكنه يخبرني هنا أين التقينا وكيف كان إحساسه. هو أيضاً يتحدث عن «الخيميائي».

إنني أتلقى آلاف الرسائل أمثال هذه، وأحياناً يبلغ طولها ثماني أو عشر صفحات. لكن كما سبق أن أخبرتك، ومع استثناءات قليلة فإن من يكتبون لي هم قراء بسطاء لأن الناس المهمين لا يميلون إلى ذلك.

ـ أتظن بأن عدد من يقرأك من الرجال أكثر من النساء؟

ـ في البداية كانت الأكثرية من النساء، الآن تغيرت النزعة. عندما بدأت بتقديم أعمال للقراء كان تسعون بالمئة من الحضور نساء وعشرة بالمئة فقط من الذكور. الآن أصبحت النسبة حوالى الستين بالمئة من الإناث وأربعين بالمئة من الذكور. لم يعد الذكور خائفين من إظهار مشاعرهم، وهم يقفون في النسق للحصول على نسخهم الموقعة من الكتاب، تماماً كما تفعل الإناث. وأتخيل بأن هذه النسبة يجب أن تكون ذاتها عند القراء أيضاً. لكن الحقيقة أنني لا أعرف بالضبط.

ـ هل تعرضت لمفاجاءات بعلاقتك مع القراء أحياناً؟

ـ نعم. مرات عديدة. أحياناً أقابل أناساً لا أستطيع تخيلهم من قرائي. ثم أفكر بأن قرائي ينتمون إلى كون متعدد الألوان. وما أتبينه هو أن علاقتي بهم جميعاً هي وثيقة جداً ولا يهم إن كتبت ما هو جيد أو ما هو سيء، فالعلاقة هي علاقة أخوة ومؤآزرة. إنهم متواطئون معي أكثر مما هم قرائي.

حين أفكر بقرائي أحياناً، كيف يتركون بيوتهم يستقلون

الباص، يذهبون إلى مكتبات البيع، وربما يكون عليهم أن ينتظروا أحياناً لشراء واحد من كتبي بسبب الإقبال، فإن ذلك يهز مشاعري بشكل حقيقي أحياناً.

ـ لماذا برأيك لك هذا النجاح اللافت مع القراء؟

ـ اعتقد أن الناس عندما يقرؤون واحداً من كتبي يقول كل منهم أنني أنا من كتب هذا الكتاب، إنه يتحدث عن أشياء أعرفها لكنني نسيتها. وهذا ما نعنيه باللاشعور الجمعي. أظن أن كتبي ترتبط بعملية إبداعية غامضة فيها الكثير من الأنثوية.

ـ ما هو الجانب الأنثوي؟

ـ إنه ذلك الجزء كما تحدثنا من قبل الذي لا يقيم جداراً بين المقدس والدنيوي، والذي يعرف كيف يستخدم الحدس والبعد السحري للوجود ويطبق المفارقات على الحياة اليومية.

ـ هل تعتقد بأنك تمثل للأجيال الشابة اليوم ما كان عليه كاستيندا في 1968؟

ـ في كتابي الأول «حاج كومبوستيلا» ذكرت كاستيندا في التقديم للكتاب وماهيت بين بيتروس ودون جوان، لكنني لم أشعر بأنني استمرار له. ذلك بالتحديد لأنني من حجة سانتياغو تعلمت أعظم درس في الحياة وهو أن الاستثنائي لن يكون الولادة الحقة للنخبة المختارة بل لجميع الناس وحتى أكثرهم بساطة. إن اليقين الأول عندي هو أننا جميعاً نشكل تجلياً لألوهية الرب، في حالة كاستيندا الأمر على العكس، النخبة فقط هي القادرة على اختراق الغامض، لكن مع ذلك مايزال أحد المُثل التي تُحتذى عندي. لقد غير حياتي وعندما توفي في نيسان 1968 كرست له روايتي التي كنت أكتبها في «الكلوبو».

ـ عن رحلة الحج إلى سانتياغو على ما أرى كانت هامة جداً لمستقبل حياتك.

- انظر إنها غريبة جداً، إنها من شاب أرسل لي صورة يظهر فيها كلانا وكما ترى كنا في حفلة ما لتوقيع كتاب في بريطانيا. إنها رسالة أنثوية جداً ومزينة بالرسوم. يقول المرسل أنه يدرس البرتغالية ويحلم بالملائكة. لقد أرسل لي الصورة لكي أوقعها له. أنا لا أذكر متى أخذنا الصورة لكنه يخبرني هنا أين التقينا وكيف كان إحساسه. هو أيضاً يتحدث عن «الخيميائي».

إنني أتلقى آلاف الرسائل أمثال هذه، وأحياناً يبلغ طولها ثماني أو عشر صفحات. لكن كما سبق أن أخبرتك، ومع استثناءات قليلة فإن من يكتبون لي هم قراء بسطاء لأن الناس المهمين لا يميلون إلى ذلك.

- أتظن بأن عدد من يقرأك من الرجال أكثر من النساء؟

- في البداية كانت الأكثرية من النساء، الآن تغيرت النزعة. عندما بدأت بتقديم أعمال للقراء كان تسعون بالمئة من الحضور نساء وعشرة بالمئة فقط من الذكور. الآن أصبحت النسبة حوالى الستين بالمئة من الإناث وأربعين بالمئة من الذكور. لم يعد الذكور خائفين من إظهار مشاعرهم، وهم يقفون في النسق للحصول على نسخهم الموقعة من الكتاب، تماماً كما تفعل الإناث. وأتخيل بأن هذه النسبة يجب أن تكون ذاتها عند القراء أيضاً. لكن الحقيقة أنني لا أعرف بالضبط.

- هل تعرضت لمفاجاءات بعلاقتك مع القراء أحياناً؟

- نعم. مرات عديدة. أحياناً أقابل أناساً لا أستطيع تخيلهم من قرائي. ثم أفكر بأن قرائي ينتمون إلى كون متعدد الألوان. وما أتبينه هو أن علاقتي بهم جميعاً هي وثيقة جداً ولا يهم إن كتبت ما هو جيد أو ما هو سيء، فالعلاقة هي علاقة أخوة ومؤآزرة. إنهم متواطئون معي أكثر مما هم قرائي.

حين أفكر بقرائي أحياناً، كيف يتركون بيوتهم يستقلون

الباص، يذهبون إلى مكتبات البيع، وربما يكون عليهم أن ينتظروا أحياناً لشراء واحد من كتبي بسبب الإقبال، فإن ذلك يهز مشاعري بشكل حقيقي أحياناً.

ـ لماذا برأيك لك هذا النجاح اللافت مع القراء؟

ـ اعتقد أن الناس عندما يقرؤون واحداً من كتبي يقول كل منهم أنني أنا من كتب هذا الكتاب، إنه يتحدث عن أشياء أعرفها لكنني نسيتها. وهذا ما نعنيه باللاشعور الجمعي. أظن أن كتبي ترتبط بعملية إبداعية غامضة فيها الكثير من الأنثوية.

ـ ما هو الجانب الأنثوي؟

ـ إنه ذلك الجزء كما تحدثنا من قبل الذي لا يقيم جداراً بين المقدس والدنيوي، والذي يعرف كيف يستخدم الحدس والبعد السحري للوجود ويطبق المفارقات على الحياة اليومية.

ـ هل تعتقد بأنك تمثل للأجيال الشابة اليوم ما كان عليه كاستيندا في 1968؟

ـ في كتابي الأول «حاج كومبوستيلا» ذكرت كاستيندا في التقديم للكتاب وماهيت بين بيتروس ودون جوان، لكنني لم أشعر بأنني استمرار له. ذلك بالتحديد لأنني من حجة سانتياغو تعلمت أعظم درس في الحياة وهو أن الاستثنائي لن يكون الولادة الحقة للنخبة المختارة بل لجميع الناس وحتى أكثرهم بساطة. إن اليقين الأول عندي هو أننا جميعاً نشكل تجلياً لألوهية الرب، في حالة كاستيندا الأمر على العكس، النخبة فقط هي القادرة على اختراق الغامض، لكن مع ذلك مايزال أحد المُثل التي تُحتذى عندي. لقد غير حياتي وعندما توفي في نيسان 1968 كرست له روايتي التي كنت أكتبها في «الكلوبو».

ـ عن رحلة الحج إلى سانتياغو على ما أرى كانت هامة جداً لمستقبل حياتك.

ـ أجل، لقد كانت تجربة جذرية بالنسبة لي. عندما انطلقت بها كنت أفكر أيضاً بأن تحقيق الصيرورة والمقدرة على اختراق أسرار الروح هي أمور مقتصرة على النخبة المختارة، لكن في منتصف الطريق عانيت أزمة عميقة.

ـ هنالك من يشكون بأنك قمت بالرحلة فعلياً، وطوال تلك الأيام العديدة.

ـ أعرف ذلك. لكنهم لم يقرؤوا كتابي عن تلك التجربة، لو قرؤوه لما قالوا ذلك. كان من المستحيل علي أن أكتب عنها بالطريقة التي كتبت ومع كل أنواع التفاصيل يوماً بيوم لو لم أكن قد مررت بها بنفسي. وكان من المستحيل بشكل خاص على تلك الرحلة أن تحفز هذا التحول الكامل في حياتي لو لم آخذها على النحو الجدي.

ـ مكثت في مدريد بعد الرحلة.

ـ لبضعة أشهر. وكلما كان هناك صراع ثيران كنت أذهب للمشاهدة. كانت أشهراً سعيدة بالنسبة لي لأنني لم أكن أعمل أي شيء ولم تعد لدي فكرة النخبة، لم أعد أعتقد بأن الألم مقدس ولا أن الحكمة معقدة ولا أن الذوق السليم مسألة حنكة. والأهم أنه لم تعد لدي تلك الفكرة الغبية بأن الأشياء كلما كانت أكثر صعوبة كانت أكثر أهمية.

ـ لنقل أن رحلة الحج إلى سانتياغو قد خلطت كل الأوراق لديك.

ـ وأنا أريد من قرائي أن يعرفوا فقط كم كان ذلك صحيحاً. تلك التجربة جعلتني على اتصال مع عامة الناس الذين تبينت أنهم يذخرون بالحكمة وهذا شكل شرخاً في كل الأفكار المسبقة عندي. لن أنسى على سبيل المثال لقائي مع شاب صغير في بار يقع في قرية صغيرة أحد الأيام. كان الفتى جاهلاً، بالتأكيد لم يكن يعرف من هو بروست لكنه أخبرني بأشياء رائعة عن الحياة تركتني

مذهولاً. فتى آخر لم يتفوه بكلمة لكنه قام بِحركة وجدانية مفيدة ماكنت لأقوم بمثلها طوال حياتي رغم كل التدين والمعرفة والبحث.

ـ وعدت من الرحلة وقد تغيرت.

ـ كان تغيراً جذرياً، مئة وثمانين درجة. وكان ذلك في اللحظة التي أخذت على عاتقي واجب الكتابة عن هذه الأمور، من أجل أولئك العامة من الناس الذين نزعم بأنهم جهلة، في حين أنهم يمتلكون حكمة خفية فائقة. اعتبرت نفسي كاتباً وما كنت قد قررت أن أكتب سابقاً. الدرس العظيم من تلك الحَجّة جاء ليُفهمني بأن الجمال كان في البساطة. لهذا قلت لك بأن منزلي كما تلاحظ هو تبسيط بقدر الإمكان، يكاد يكون فارغاً. هناك فقط في آخر غرفة المعيشة توجد زهرة. وهي جميلة لأن لا شيء آخر هناك، فالبساطة هي أعظم الجماليات.

ـ بمناسبة الحديث عن العامة، هل كنت تعلم بأن علماء اللاهوت الكاثوليك لم يعترفوا بوقائع ظهور السيدة العذراء، لسبب غريب جداً وهو أن العذراء إذا كان لديها ما تقوله إلى البشرية فما كانت لتستخدم لذلك فتيات جاهلات بسيطات مثل سيرس لورديس وفاطمة؟

ـ كما لو أن المسيح كان رجل الحكمة العظيم في زمنه. لم يكن كذلك ولم يحط نفسه بالحكماء بل بصيادي السمك الجهلة ليساعدوه في نشر رسالة الحقيقة. هناك رواية من الخيال العلمي تسمى السحابة السوداء وهي تحكي عن غيمة جاءت وبما لديها من معرفة اكتشفت الكون والمجرات. كانت السحابة كلية المعرفة وكانت في طريقها لتلتهم الأرض أيضاً. نجح الإنسان في التواصل مع السحابة ليخبرها بأن هناك حياة ذكية على الأرض وبأن على السحابة أن تذهب إلى مكان آخر. وطلب منها الإنسان قائلاً: «قبل أن تمضي، اتركي كل معرفتك للأرض وبمهارتك اختاري الإنسان الأكثر ذكاءً، وانقلي له المعرفة»، واتصلت السحابة مع الإنسان الحكيم الذي

عانى أثناء ذلك التواصل من نزيف دماغي هائل. لكن حين كان في المستشفى وقبل أن يموت، دخل شخص بسيط لينظف الغرفة وقال بأن السحابة ارتكبت خطأً في الاختيار، وأنها كان ينبغي أن تختاره هو.

ـ لماذا؟

ـ الأمر بسيط جداً، لأن الرجل الحكيم كان قد شيّد عالمه في عقله. وحين جاءت المعرفة من السحابة سببت إشكالات عديدة أدت إلى دماره. في حين أن الرجل الآخر ببساطته وذكائه الطري الخالي من التحيز والإدعاء كان باستطاعته تلقي المعرفة دون تناقضات وبرضا تام. إن «السحابة السوداء» وفقاً للناقد فرد هويل هي من روائع الخيال العلمي، وهذا يتفق تماماً مع ما كنت أخبرك به عن القراء الذين أكتب لهم. أنا أكتب للطفل الذي بداخلنا جميعاً فهناك تصور مبهم خاطئ عن الأطفال والبراءة، كما لو أن من شأن البراءة أن تجعل الناس سُذجاً. لا، فهناك براءة الحماس وبراءة الدهشة وبراءة المغامرة. وهذه يحسها الأطفال بالشكل الأمثل. وهذا ماعناه السيد المسيح عندما قال في الأناجيل بأنه سوف يعلم الحكمة للأطفال ويمنعها عن الحكماء والمتسلطين. وهذا بالغ الأهمية في فلسفة كتبي.

ـ قلت في لقاءاتك مع قرائك حول العالم بأن أشياء غامضة، بل حتى سحرية تحدث.

ـ هذا صحيح والأمر الجيد هو أن لديَّ شاهد حي في ذلك وإلا لما صدقني أحد. سأحكي لك قصتين من هذه القصص. مرة كنت ألقي محاضرة في إحدى دور بيع الكتب في ميامي تدعى «بوكس أند بوكس»، وكان الموضوع هو كتاب «على ضفة نهر بييدرا جلست وبكيت» حيث الشخصية الرئيسية هي امرأة اسمها بيلار. وأثناء المحاضرة قلت «إن جوستاف فلوبير قال مرة: أنا مدام بوفاري.

وأنا أود أن أضيف: أنا بيلار». وكما هي العادة دائماً في محاضراتي في أمريكا، أقرأ بضعة فقرات من الكتاب أتلقى بعدها الأسئلة من الجمهور. وبينما كنت أقرأ، سمعنا ضجة كبيرة، كما لو أن شيئاً سقط، لكنني تابعت القراءة دون توقف. وحين انتهيت من القراءة قلت بصوت مرتفع دعونا الآن نرى ما الذي حدث. وكان كتاباً قد سقط عن الرف. التقطت الكتاب ولم أستطع التصديق: كان الكتاب هو «مدام بوفاري» لجوستاف فلوبير. أخذت ذلك الكتاب ومايزال معي هنا. ذهل الناس للذي حدث. إن أشياء كثيرة كهذه تحدث معي باستمرار، الغريب أن من بين آلاف الكتب هناك على الرفوف، يسقط فقط الكتاب ذاته الذي ذكرته في المحاضرة. تستطيع أن تسأل ميخائيل كابلان صاحب دار البيع ليؤكد لك ذلك، فقد كان أكثر الجميع دهشة.

ـ وما القصة الأخرى التي أردت أن تحكيها؟

ـ تلك أيضاً حدثت في ميامي، وهي المدينة التي لا أحبها إطلاقاً. كنت أقوم بجولة في الولايات المتحدة ومن هناك كان علي أن أذهب إلى اليابان. ولم أكن قد اعتدت بعد على هذه الجولات الدولية، فكنت أقوم بها كما ينظمها لي الناشرون. أما الآن فأنا من يخطط لها. أسافر لمدة شهر ثم أرتاح لمدة شهر إن استطعت وإن لم أستطع تصبح الرحلة منهكة. في العادة لا يذهب معي المحرر طوال فترة الرحلة بل يرسلون شخصاً لا علاقة له بالمحرر.

ـ ومن الذي كان معك في ميامي؟

ـ ممثلة هاربرز في ميامي. كنت سأقوم بقراءة من كتاب في أحد دور البيع، وكنا في الطريق إلى هناك، وكانت الساعة تقارب الثامنة مساء. قالت لي المرافقة: «انتظرني، سأقبّل صديقي قبلة الوداع وأعود في الحال». وجلست وحيداً أنتظر. الولايات المتحدة بلد صعب. كنت متعباً من كثرة السفر، شعرت بالحنق والحزن

والوحدة والمرارة هناك. كنت أجلس هناك وسط مدينة ميامي حين قلت لنفسي: «ماذا أفعل أنا هنا؟ لست بحاجة لأن أفعل كل هذا فكتبي تحقق مبيعات جيدة دون الترويج لها. إنني أفتقد البرازيل وأحن إليها». ثم أشعلت سيجارة وفكرت «هذه الساقطة تتركني وحيداً هنا وتغادر لتقبّل صديقها».

ـ أتخيل أن شيئاً ما، كما في العادة، قد حصل لك في تلك اللحظة.

ـ حدث أن ثلاثة أشخاص مروا بقربي ومعهم فتاة في الثانية عشرة. استدارت الفتاة إلى المرأة التي معها وقالت: «هل قرأت الخيميائي؟»، جمدت وأنا في مكاني. المرأة التي لا بد كانت أم الفتاة قالت شيئاً لم أسمعه والفتاة أصرت مكملة «يجب أن تقرئي ذلك الكتاب فهو جيد حقاً». ولم يعد في وسعي البقاء جالساً فنهضت وقلت: «أنا مؤلف كتاب الخيميائي». نظرت إلي أم الفتاة وقالت هيا دعونا نخرج من هذا المكان إنه رجل مجنون. عندئذ ذهبت لأعلم الناشر هاتفياً طالباً منه أن يستدعي لي الفتاة التي ذهبت لتقبّل صديقها ولتخبرهم بأني لست مجنوناً وأنني فعلاً مؤلف الكتاب.

تدبرنا أمر اللحاق بهم رغم أنهم ركضوا. وأخبرتهم الفتاة قائلة: «إنني أمريكية وهذا السيد ليس مجنوناً بل هو فعلاً مؤلف الخيميائي». قالت الفتاة الصغيرة عندها بسرور: «أنا صدقتك لكنهم لم يصدقوك». فقالت لها مرافقتي: «إن هذا درس عظيم لك اتبعي حدسك. الأمهات لسن دائماً على حق».

دعوت الثلاثة إلى ندوة القراءة وقدمت الفتاة الصغيرة إلى الجمهور بعد سرد القصة برمتها، وطلبت أن يصفق الجميع احتفاء بحضورهم.

هذا ما نعني به حين نتحدث عن العلامات ففي لحظة كان مستوى الطاقة عندي في الحضيض. كنت خاوياً عديم الحماس ثم

جاءتني تلك الطفلة برسالة من السماء. إن ملاكاً من السماء جعل منها أداة لإثارة الفرح في نفسي وإقناعي بأهمية لقائي شخصياً مع قرائي.

- كيف ترد على أولئك القائلين بأنك لا تستطيع أن تكون كاتباً جيداً لمجرد أن أناساً بسطاء كهؤلاء يتحمسون لكتبك؟

- أقول بأن هذه فاشية ثقافية. بعض أولئك النخبويين أفواههم محشوة بالديمقراطية لكنهم في أعماقهم مقتنعون بأن الناس بلهاء.

- أنت مؤلف محبوب ومكروه في آن. فماذا يعني لك الحب؟

- إنه نوع من السحر، طاقة نووية تستطيع أن تساعدك في أن تحقق ذاتك أو تدمرها. الحب بالنسبة لي هو في الوقت نفسه القوة الأكثر إنتاجا والأكثر تدميراً في العالم.

من الصعب أن نجد نقاداً حقيقيين يقومون بتحليل أعمال كويلهو وخاصة أولئك الذين يدركون أن باولو كويلهو هو أكثر من مجرد كاتب. فهو أيضاً ظاهرة اجتماعية ثقافية تستحق الدراسة. قراؤه الإسبان يسألونني أحياناً عما يقولون في البرازيل عنه وعن كتبه وعن الظاهرة التي يمثلها. ولهذا حين جاء وقت نشر هذا الكتاب، كنت أبحث عن مُراجع لا يتجاوز السقف في مديحه، ولا ينحدر إلى الإسفاف في تقريظه كما فعل ذلك الناقد الذي عندما سئل عن رأيه في أعمال كويلهو فأجاب: «أنا لم أقرأها، ولا أحبها».

عثرت أخيراً على مادة نقدية تحلل بنزاهة ظاهرة كويلهو بكل أبعادها. المقالة بعنوان «لماذا باولو كويلهو؟» للكاتب والصحافي المعروف كارلوس هايتور كوني وقد نشرت في مجلة الجمهورية عدد أيار من عام 1999 يقول:

«خلال معرض الكتاب في باريس، شهدت شخصياً ظاهرة

عصرنا في الأدب والنشر. لقد أحرز باولو كويلهو مرتبة في التقدير العالمي، وجماهيرية لم تُعرف سابقاً في الحياة الثقافية البرازيلية.

ثمة الكثيرون ممن يشيحون ببصرهم عنه، ليس فقط بسبب نجاحه، بل لأنهم يعتبرون أدبه ثانوياً تجارياً وبالتحديد أدنى من الأدب.

«أنا لا أعتبر الأمر كذلك. لست صديقاً شخصياً للكاتب. فنحن لبقان بل حتى ودودان لبعضنا البعض لكننا لا نتبادل إطلاقا ما يزيد على خمسين كلمة حين نلتقي. لكن منذ مدة طويلة لدي تفسير لنجاحه، وهذا هو تفسيري.

«إن القرن الذي أوشكت نهايته قد بدأ باثنتين من اليوتوبيات التي بدت معنية بحل كل مشاكل الجسد والعقل. هما ماركس وفرويد. والذي أنجز كل منهما في مجاله العلمي كما يدّعي قوانين أثّرت بملايين البشر نظراً لكونها معنية إما بالعدالة الاجتماعية، أو بالعدالة تجاه أنفسهم، عن طريق التحليل النفسي.

«ويحدث أن هذين الطوطمين العملاقين القويين يتداعيان مع نهاية القرن. فماركس لم يستطع الصمود بعد فشل الأنظمة القائمة باسمه، رغم أن الاشتراكية نفسها ظلت حلماً ممكناً تأمله البشرية. أما فرويد فقد تم تحدّيه في فترة حياته، فأتباعه المتفرقون قد أعلنوا انفصالهم وتمردهم المفتوح. وبقيت أعماله الأصلية بمثابة أدب، لكن بقيمة علمية تتناقص باستمرار.

«ومع انهيار هاتين اليوتوبيتين نشأ فراغ في الروح الإنسانية عند نهاية القرن. وكما يحدث غالباً، فإن الدعوة إلى التبصر الروحي، وحتى إلى السحر تصبح أمراً لا مفر منه. ومن هنا يأتي معلمنا ببساطته مماثلاً القديسين الكبار من مختلف الأديان مصرحاً بالكلمات التي يريد كل شخص سماعها، لأنها، في لحظة ما، تكون ماثلة في روح كل منا.

«لقد وجد كويلهو هذه الكلمات في الكتب المقدسة والدنيوية،

في أساطير الشرق وملاحم الغرب. لقد أطلق توليفة من مزيج سلس مأخوذ من الكتب المقدسة وكتب السحر في العصور الوسطى ومن كتب الشعر الساحر القليل الانتشار في الشرق. كما اتبع بساطة من لا يريد أن يفرض أي شيء على القارئ، تاركاً ما يفكر ويشعر به يتدفق تلقائياً.

«الكثيرون حاولوا ويحاولون الشيء ذاته، لكنهم لم يلقوا النجاح الذي لاقاه كويلهو. أما أنا من جهتي، وفي حياتي المهنية والشخصية، فإنني أنزع إلى تشاؤم بغيض وإلى رؤية سلبية فظة للتجربة الإنسانية، لأجد نفسي على الطرف النقيض من كويلهو، لكنني تأثرت بالتجربة وشعرت بالحاجة لأن أهنّئ كل أولئك الذين يحاولون بطريقتهم الخاصة، مثل كويلهو، أن يطوروا البشرية ويجعلوا الحياة أقل عرضة للانكسار».

كارلوس هايتور كوني صحفي وكاتب ومؤلف لما يزيد عن عشرين كتاباً ومن بينها روايتان «ذكرى بالكاد» و«بيت الشاعر المأساوي»، ثم هناك رأي نِليدا بينون الرئيسة السابقة لأكاديمية الآداب البرازيلية.

أما الأقسى على باولو كويلهو فهم عادة النقاد الأدبيون، الذين ذهب بعضهم إلى حد اتهام كويلهو بأنه لا يعرف كيف يكتب. لذا شئنا مقابلة أحد أعظم كتاب البرازيل نِليدا بينون التي تُرجمت أعمالها إلى كل اللغات الرئيسية لمعرفة رأيها بكويلهو. كانت نِليدا حتى العام الماضي رئيسة لأكاديمية الآداب، ومكانتها الفكرية لا يمكن تجاهلها. ورداً على سؤالي حول كويلهو الذي شاركت معه في معرض الحرية للكتاب في العام 1998 تجيب:

«أنا لا أقيم تحيزات جمالية في الأدب. كويلهو وأنا جزء من المشهد ذاته، رغم أننا نقوم بأدوار مختلفة. إنه كاتب يشرّف بلدي بما يكتبه وبما يجلبه لنا من سمعة حسنة في الخارج، إنه شخص

جدير وأقرّ بأنه يلقى قبولاً عظيماً عندي. لقد تقابلنا في محطة وقود حيث كنا نملأ عربتينا. وعندما رآني حياني باحترام وحياء. قلت له: «باولو، دعنا نتناول الغداء سوية». وهكذا تم اللقاء. وسوف أفشي لك سراً: إن لدينا خطة لتأليف كتاب مشترك بل لقد خططنا للعنوان، لكنك ستعذرني لعدم الإفصاح عنه الآن».

11

باولا، آنا وماريا

«إنني أنظر إلى الحياة مستخدماً مجاز الرحلة كقافلة: لا أعرف لا من أين تأتي ولا إلى حيث تمضي».

لطالما حلم الكثيرون من قراء كويلهو بالجلوس معه في بيته في ريو دي جانيرو متوجهين له بآلاف الأسئلة عن كتبه، متداولين الآراء معه.

وتحقق هذا الحلم لثلاث من طالبات الجامعة الإسبانية هن الأختان باولا وآنا غوميز اللتان تدرس إحداهما العمارة والأخرى علم النفس، وماريا تشامورو صديقتهما التي تدرس لكي تصبح مدرّسة.

التقيت بهم على الطائرة التي أقلتني من مدريد إلى ريو دي جانيرو حيث كنت في طريقي لأعداد هذا الكتاب مع كويلهو، والغريب في الأمر أن الثلاث كن يقرأن كتباً للكاتب البرازيلي وهن على متن الطائرة والكتب هي «برايدا»، «الجبل الخامس»، «على ضفة نهر بييدرا جلست وبكيت». قلن لي كم أنهن يحببن أن تتاح لهن فرصة اللقاء والتحدث إلى هذا المؤلف الذي يعجبن به فائق الإعجاب. وهذا ما أتى عليه هذا الفصل الأخير من الكتاب، عندما تقابلت ثلاثتهن مع كويلهو في بيته في الريو. كان لقاءً دام حتى سويعات الصباح الباكر، وضم إضافة إلى الفتيات الثلاث زوجة الكاتب كريستينا ومنفذ الإعلانات ماورو ساليز الصديق الوفي لكويلهو، وهو شاعر ورجل فكر مرموق على مستوى البرازيل كلها. أكد لنا الكاتب فيما بعد أنه لم يسبق أن وجه له شباب بمقتبل العمر أسئلة بهذا العمق والمباشرة كما فعلت الفتيات الثلاث.

باولا طالبة العمارة أعجبت بالتغيرات التي أجراها الكاتب على شقته، وكيف رتب الأقسام الأكثر أهمية في حياته الشخصية مثل غرفة النوم ومكان الكتابة في القسم الأكثر جمالاً من المنزل المواجه للشاطئ تاركاً الجانب الخلفي من المنزل الذي بلا إطلالة كغرفة للاستقبال، أما آنا وماريا طالبتا علم النفس والتربية على التوالي، فقد هزهن أن تتمكنا من محاورة كويلهو دون تكلف، ودون أن يثنيهما فارق السن، رغم أنهما كانتا مدركتين للهوة الواسعة في الثقافة والتجربة التي تفصلهما عن الكاتب. وقد اعترفتا بأنهما قد نضجتا على المستوى الشخصي بفعل هذا الحوار.

لقد قررن ثلاثتهن أن يبقين على تواصل مع الكاتب، لأن اللقاء، على حد قولهن «لم يكن مجرد لقاء فكري بل لقاء حاسم وعميق».

باولا غوميز: ـ كنا نفكر عما سنسألك وخرجنا بنوعين من الأسئلة توجهها كل منا. بعض الأسئلة تتعلق بالشباب عموماً، وبعضها الآخر أسئلة شخصية.

ـ قبل أن تبدأن أود أن أوضح شيئاً: لا أريد منكن أن تتوقعن أن تجدن لدي جواباً على كل شيء فنحن سنجري حواراً بين أصدقاء، لأننا بالتحدث نتعلم جميعا من بعضنا البعض، أليس كذلك؟

ب. غ ـ نحن أحيانا نرى الشباب في إسبانيا ـ ولست أعلم عن الوضع في البرازيل ـ يائسين تماماً، وليس ذلك للأسباب التي نقرؤها في الصحف أو نسمعها في المذياع، بل الأمر أكثر عمقاً، كما لو أنهم لم يعرفوا الوجهة التي يتجهون إليها. بالطبع هذا لا ينطبق على جميع الشباب، لأنني أنا نفسي لا أعاني من ذلك، فإلام ترد السبب في هذا وأنت العارف جيداً بمشاكل الشباب؟

ـ إذا كنت يا باولا لا تشعرين باليأس، فما حقيقة شعورك إذاً؟

ب. غ ـ لدي شعور فيه الكثير مما يتعلق بكتبك، وهو شيء أكتشفه رويداً رويداً. أعتقد بأنك وصلت إلى مرحلة اكتشافك لذاتك،

وملاحظة الإمكانات الكامنة فيها، بحيث أن القليل من الاحتكاك مع العالم الخارجي بدأ يجعلك تميز أن هذا المزيج من المصداقية والحرية يجعلني سعيدة، ويتيح لي أن أعطي حياتي مغزى. والسؤال إذاً هو، إذا كان ما أعتقد بما يخص كتبك صحيحاً فلم عندما أتناول أحد كتبك أشعر بأنه رسالة قد كتبتها لي.

ـ كل ذلك كما أظن مرتبط بالبحث عن الوعي. لقد تحدثت كثيراً عن هذا الأمر مع جان وروزيانا، عن كيف يتسنى لي أن أصبح كاتباً. إن المدخل إلى أعمالي إذا بالغنا في التبسيط، هو ما أدعوه بالمسيرة الذاتية كما في الخيميائي مثلاً. ورغم أنها تبدو غامضة لنا، فهي سبب وجودنا. أحياناً قد لا تكون واضحة فنمضي مشدودين بعكس أقدارنا، وعندها نشعر بالضعف والجبن. لكن في النهاية فإن هذه الصيرورة الذاتية ماتزال كامنة فينا ونعرف من خلالها لما نحن هنا. لذا، فالمسعى الروحي بالنسبة لي هو مسعى للوعي العام.

ب. غ ـ وعي المرء لذاته.

ـ نعم بالضبط، إن عالمك يشرق وأنت تحتسين كأساً من النبيذ لأنك وأنت تشربين، تسمعين صوت الأرياف من حيث أتى الخمر، والعالم الأُسري للرجل الذي جمع العنب، وماذا كان يحيط بهم... إنه وعي شامل لكل شيء. هذا ما تقدمه لي الحياة. وأنت تركزين على ذلك، ليس بالطريقة القربانية، بل بمرح وحماس.

ب. غ ـ لتشعر بأنك أقرب إلى ذاتك.

ـ بالطبع، لهذا أفكر بأن كتاباً قد خطّ عبر كل هذه السنين رغم أنه غير ظاهر بشكل ملموس، هو ما أدعوه بـ «الدليل» والذي يمكن أن يكون كتاباً يشمل جميع الأسس التي نسير عليها جيلاً بعد جيل. حتى أننا لا نعرف أحيانا لماذا علينا أن نتبع هذه الأسس، لكن الأسس موجودة ونحن مستمرون في اعتمادها. فإذا كانت الصفحة

العشرون من الكتاب تقول «على المرء أن يواظب على الجامعة في هذه المرحلة وأن يحصل على شهادة. وأن على المرء أن يتزوج بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر...». فإن لم نفعل ذلك فسنواجه صراعات جديدة.

آ. غ - أنت تشير إلى النظام الاجتماعي المفروض علينا.

- النظام الاجتماعي الذي نعرفه الآن مفروض على الأجيال، لكن طالما أنه كتاب غير واضح أو مرئي فإن بالإمكان أن نواجهه بما هو جلي. يمر الشباب جميعا بهذه المرحلة، ويكون الأمر بصراعهم الحدسي ضد ما هو قائم ولا يرضيهم، أو بقبولهم به. ومن لحظة قبولهم به يبدؤون حياة ليست حياتهم بل حياة آبائهم، حياة أسرهم ومجتمعاتهم. ورغم أنني شخص متفائل فأنا أعتقد أننا عندما نصل إلى التحرر الكامل من الوهم تكون تلك لحظة التغيير، لأنك تصل إلى نهاية قصوى ثم تقف لتواجه بقوة متجددة.

آ. غ - أنت مسرف في هيغليتك فلسفياً.

- نعم. وأنا أعتقد بأن ما نراه في جيل الشباب على ما يبدو هو أنهم قد عرفوا ذلك بالدليل المسبق وهم يحاولون تغييره الآن. نحن في هذه المرحلة حالياً، لأن الدليل ما زال ينتصر أحياناً. حاول الجيل السابق الالتفاف على الدليل باتباع الرياضة والألعاب وعالم اليوبي (الحِرف الشبابية). أما هذا الجيل فيبدو مختلفاً، ألاحظ بعض الدلائل، ولست متأكداً تماماً، لكنني أعتقد مثلاً، أن المسعى الروحي هو واحد من الأعراض التي تدل أن تغيراً سليماً سيحدث. أنا أؤمن بشدة بالقوة التطهيرية للدين. أعتقد أننا قد وصلنا للحظة شد الزناد على قوة الثورة العقلانية.

ب. غ - بخصوص ما تقوله عن الدليل، فإن ما ساعدني في اتخاذ تلك الخطوة، خطوة التخلص منه، هو السفر.

ـ وأنا كذلك. إن السفر بلا شك هو ما ساعدني في إجراء تلك القفزة عندما كنت في مثل سنك.

ماريا تشامورو ـ إنني أتساءل إن كنت من المؤمنين بالبشرية. فكتابك «الجبل الخامس» على سبيل المثال هو نص توراتي تصل في نهايته إلى تطوير حبكة تقدم من خلالها أفكارك، وتبدو بذلك كمن يقيم توازناً بين ما هو بشري وما هو روحي. لا أدري إن كان ذلك مرده إلى أسلوبك، أم لأنك تريد الوصول إلى كل شخص. أنت لا تريد التطرف. فأنت تريد أن تقول بأن ما يحدث لك في الحياة يمكن أن يقع فقط بالبقاء قريباً من الله، أم أنك فقط تسرد قصة قصيرة يمكن لكل شخص أن يفهمها، كأنك تقول إن الله هو الإنسانية ذاتها؟

ـ في الأساس فإن ما ترينه في «الجبل الخامس» هو ليس الله بل صمت الله. إنها اللحظة التي لا يتكلم بها الله، لحظة يقول الله للإنسان «سوف أساعدك لكن فقط بعد أن تكون قد اتخذت بنفسك القرارات التي عليك اتخاذها».

م. ت ـ بالطبع إن ما تقوله هو أن الأشياء العديدة التي حدثت لك في حياتك تعود أكثر ما تعود إلى الإيمان منها إلى الحظ، لأنك ما أن تبدأ بالإيمان حتى تبدأ بالرؤية. فبدون الإيمان تظل عيناك مغلقتين وذلك حين تقوم بخطوة وتندفع في خيار لم تكن قد اخترته بنفسك، وحينها تبدأ العلامات وتبدأ حياتك تتخذ معنى لها.

ب. غ ـ لكنه إيمان بشيء لا تعرفه.

ـ لا، ولن تعرفه إطلاقاً.

ب. غ ـ إنه ببساطة شيء مجدٍ. أنا نفسي توصلت إلى اللحظة ـ ولم يكن السفر بحد ذاته بل الرحلة كانت المحفز لأشياء عدة ـ وذلك عندما كنت قادرة على إيجاد شيء يحررني ويجعلني سعيدة.

ـ إن فكرة الرحلة موجودة في العديد من كتبي كما تعرفين. لماذا؟ لأنني وقبل كل شيء، أنتمي إلى جيل السفر، جيل الهيبيين

الذين عاشوا على الطرقات متواصلين مع ثقافات أخرى. والرحلة تمتلك أهمية رمزية بالغة في حياة هؤلاء. ففي البدء عندما يسافر المرء لن يعود كما كان إذ عليه أن يكون منفتحاً للآخرين، فإن صادفت جان إيرياس في مقهى وبدأت معه الحديث فستفكرين في نفسك: هذا الرجل يحاول إغوائي بحديثه وما شابه ذلك، أما إن كنت في حالة سفر فستكونين منفتحة تماماً لأنك تدركين بأن خبرات الرحلة ليست في النُصب أو المتاحف أو الكنائس التي تزورينها. أنا قلما أزور هذه الأماكن في أسفاري، أزورها فقط حين أشعر برغبة فعلية بذلك. لقد لخص هنري ميلر الأمر جيداً حين قال: الشيء الذي يقوله لك الآخرون هو أن نوتردام كنيسة رائعة عليك أن تزورها فتذهب إلى نوتردام. أجل تجدها رائعة لكنك تلاحظ بأنك قد ذهبت بتوجيه من الآخرين. على العموم لو أنك استدرت حول ناصية الشارع فوجدت نفسك تحدق في كنيسة نوتردام فسيكون الأمر كما لو أنك اكتشفتها بنفسك. إن روائع الرحلات هي في الغالب كنائس صغيرة ليست موجودة على كتاب دليل الرحلة، أو هي في أماكن صغيرة معزولة، أو في أي شيء تصادفه في طريقك. إن كتب الإرشاد السياحي تثير فيَّ الرعب أحياناً.

آ. غ ـ كما حدث لنا في فيينا حيث وجدنا الأكثر غرابة الأماكن المهمشة رغم أنني كنت قد زرت فيينا آلاف المرات لكن دائماً برفقة مرشدين. قلنا في هذه المرة «دعونا نضل الطريق» فوجدنا بذلك أماكن صغيرة مدهشة ولا يمكن توقعها ومشاهد رائعة، شاهدنا مثلاً رجلاً مسناً لا بد أنه كان في التسعينات من عمره يمشي مقوس الظهر في شارع مقفر، سمعنا وقع خطواته وكانت تجسيداً لإنسانية متعبة متروكة لقدرها.

ـ نعم، هذا هو الأمر، أن تسلم نفسك واثقاً للمجهول لأنك في حالة ترحال، فأنت تعلم بأن ما يربطك بالمدينة والأشياء هو تجربتك الشخصية أولاً ومن ثم الناس. فأنت تستمتع ببلد ما لأن أُناس هذا

البلد ظرفاء وطيبون أو أنك ستتقصى أجمل شيء هناك، وعليك عندها كما تعلم أن تنفتح على الناس فتنطلق غير متحصن بمحيطك، فأنت مجرد كائن بشري في الوضع الإنساني الأساسي الذي هو الوحدة، رغم أنك مع الآخر إلا أنك وحيد شأنك شأنه.

أنا هنا لدي أصدقائي وأنا أراهم وأذهب إلى الشاطئ أتمشى، إلا أن ثمة ميلاً لرؤية الناس نفسهم طوال الوقت والتحدث عن الأشياء نفسها، لكن لو كنت في تايوان، قد أقول أنها مدينة مرعبة، لكن في النهاية سافرنا لرؤيتها. ما أن تخرج حتى تتحدث إلى أول شخص يعبر طريقك وتجادل سائق التاكسي وتتواصل مع الآخر...

آ. غ ـ هذا صحيح. ولهذا يقولون بأن السفر هو أفضل جامعة في الحيلة. قد تقرأ أطناناً من الكتب عن مدينة ما، لكن ما لم تذهب إليها فعلياً فلن تتبين أن كل ما قرأته عنها لم يكن نافعاً فعلاً.

ـ بالضبط، شيئان آخران هما أولاً أنك تخرج من بيئتك فلا تعود محاطاً بالمألوف. تصبح مستقلاً وتائهاً في آن فتحتاج إلى مساعدة الآخرين وهذا أيضاً جزء من الحالة الإنسانية. أن تسمح لأحد أن يتولى زمام أمرك كما في الخيميائي مثلاً. رغم كونك في رحلة فإن تلك الرحلة تعتمد على الناس الذين يساعدونك في إيجاد وجهتك رغم أن هذه الوجهة تكون قد حُددت مسبقاً.

أنت أيضاً تقيم علاقة مع العالم المادي والعالم الميتافيزيقي دون أن تفهم العلاقة على نحو دقيق. أنت في السفر أيضاً لا تفهم قيمة المال، هذا الشيء المكرس والهام في حياتك، فهو شيء مجازي، لأنك عندما تسافر لم تعد تعرف ما هو الغالي وما هو الرخيص. فقد يصدمك أحياناً أن شيئاً بالغ الثمن وهو في الحقيقة رخيص جداً. والعكس صحيح أحياناً، فأنت دائماً في حالة استكشاف لذلك.

والشيء الآخر هو أن عليك أن تبسّط حياتك إلى الحد الأقصى

لأنك لن تحمل معك أثقالاً غير ضرورية، لذا فإنك تحاول جعل متاعك خفيفاً قدر الإمكان. فأنا مثلاً أتنقل دائماً من مطار إلى آخر مصطحباً حقيبة صغيرة. أعرف أن الامتعة ثقيلة وأدرك أن باستطاعتي أن أعيش بقية عمري مكتفياً بمحتويات هذه الحقيبة الصغيرة.

آ. غ ـ روزينا جاءت إلى مدريد لقضاء ثلاثة أشهر وقد صُدمت عندما رأيتها فقط مع حقيبتها الوحيدة المحمولة.

ـ شيء آخر تكتشفه هو أن ما تحتاجه لثلاثة أشهر هو ذاته ما تحتاجه لثلاثة أيام، لذا باستطاعتك أن تسافر مصطحباً الحقيبة ذاتها. إن رموز الرحلة كلها تبدأ بالغوص عميقاً في بنيتك النفسية، ولهذا فإن كل الأديان بشكل أو بآخر فيها رحلة حجيج وتحرير لنفس الإنسان من شكليات ونوافل تبدو هامة في ظاهرها.

آ. غ ـ مسألة أخرى تتعلق بالسفر هي أن عليك أن تبذل جهداً لفهم اللغات التي لا نعرفها.

ـ هذا مشابه لحالة الأمتعة، فعندما تسافر تُجبَر على تبسيط حياتك كثيراً إذ بعد بضعة أيام لن يكون لديك المفردات التي تتحدث بها للناس. لكن تبسيط لغتك يضطرك للبدء في تبسيط كل شيء بما في ذلك نفسك. عندما كنت في العشرين من عمري سافرت متنقلاً عبر الولايات المتحدة كلها، وكنت بالكاد أعرف كلمة انجليزية آنذاك، لكنني في نهاية الرحلة أحسست أنني أكثر صفاء وبساطة. لأنني لم أكن أمتلك الكلمات لأناقش المشاكل الفلسفية الوجودية العويصة، وكان علي أن أقلص لغتي إلى الحد الأدنى من الأساسيات. وذلك يتطلب الكثير من الانضباط.

م. ت ـ والرحلة دافعة للحواس لأن العلامات يمكن أن تكون ـ بل هي فعلاً ـ حيث تقيم. والذي يحدث هو أن السفر أو حالة توتر

من هذا النوع تجعلك ترى ما لم تره من قبل، رغم أنه قد يكون موجوداً نصب عينيك.

آ. غ ـ كنت أريد أن أثير موضوعاً هو أن في السيرة الفردية لكل شخص يلاحظ المرء بأنه ينمو لكن هذا النمو يكون مؤلماً في الغالب. فعندما كنت صغيرة كانت ساقاي تؤلماني وكانت المشكلة أنهما تكبران، وهذا يحدث لي الآن فعندما أقرأ كتبك أشعر بألم.

ـ كيف هذا؟ كيف لي أن أؤلمك؟

آ. غ ـ حسناً، إنني أجد في كتبك مواجهة دائمة مع ذاتي. وأرى من ناحية أخرى بأنني أكبرُ، لكن، من ناحية أخرى، فإن الأشياء التي تتغير تسبب الألم، لأنها ليست مسألة إضافة أشياء فقط من شأنها أن تغنيني بل يتعلق الأمر أيضاً بتطهير الروح مما هو زائد.

ـ هذا تعريف ضد الموضوع. إن كونان دويل في كتابه الأول يعطي مثالاً بالغاً: فعندما يلتقي الدكتور واتسن بشارلوك هولمز يتجادلان حول مسألة يعرفها الجميع، كأن نقول الأرض كروية. ينظر شارلوك هولمز بدهشة ويقول «الأرض كروية؟»، «بالطبع» يجيب واتسن «لكن ألا تعلم ذلك؟»، «لا، فأنا لم أفكر بهذا من قبل وسأنساه بأسرع ما أستطيع لأن ذهني لا يستطيع استيعاب ذلك، فلم يتبق فيه إلا حيز ضيق»، لذا فأنا الآن أعرف أن الأرض كروية. لكن طالما أن هذا لن يسعفني كثيراً في حياتي وفي عملي، فسأنساه سريعاً وأثبت أشياء أكثر ارتباطاً بعملي. بالطبع ليس الأمر مجرد إضافة أشياء إلى معرفتنا بل هو استبعاد أشياء أيضاً. إنها مسألة استبعاد الأشياء التي هناك نظراً لعملية غير واعية، هي هذا الدليل الذي كنا نتحدث عنه.

ب. غ ـ في معرض الحديث عن الشباب، فقد كنا نقول للتو بأن هناك أناساً يجدون من الصعب جداً قراءة الكتب التي تثير هذه الموضوعات، لأن ذلك يجعلهم يضعون حياتهم وكينونتهم موضع

تساؤل، وهذا خوف إنساني كبير. أي إن تقدمي يسبب لي الألم، فمن المؤلم أن تسأل من أكون. لدي أصدقاء يقولون هذا. كنا نتحدث عن هذا الأمر مرة على الغداء. أنا شخصياً أفضل أن أجد نفسي على حق، وأستمر في البحث، على أن أقول لا أريد أن أنظر في أمر إيجاد شيء لا أحب النظر فيه. لكن لدي أصدقاء يخشون قراءة الكتب التي تجبرهم على النظر داخل ذواتهم. لهذا السبب أردت أن أسألك إن كنت تعتقد بأن كل إنسان يمتلك المقدرة على تخطي الدليل، ولماذا؟

- دعيني أخبرك شيئاً حدث لي في رحلة الحج إلى روما، والمعروفة أيضاً بالطريقة النسوية. حين بدأت المسير، بعد أسبوع أو ربما عشرة أيام، بدأت برؤية الجانب الأسوأ في نفسي، الجانب الأكثر رعباً. رأيت نفسي إنساناً مادياً حاقداً ينطوي على أسوأ المشاعر. فذهبت للتحدث إلى مرشدتي في الرحلة، وأخبرتها قائلاً: «هاأنذا أسير في وجهة مقدسة، مقدماً أفضل ما في نفسي، وبدلاً من التحول إلى الأفضل، أجد نفسي متحولاً إلى شخصٍ خسيس، ضيق الأفق». ردت المرشدة قائلةً: «لا، لا، أبداً. إن هذا ما تشعر به الآن ولكن فيما بعد سيأتي النور، أنت ترى ما أنت عليه الآن، فأنت لم تتغير بعد لدرجة الشعور بذاتك. لقد بدأت ترى بوضوح عالمك أكثر ضآلة وهذا من شأنه دائماً أن يجعل الأشياء أكثر وضوحاً».

نحن حين نشعل الأضواء نرى العناكب والشر فنطفئها، لأننا لا نود رؤية الصراصير، ونمضي عبر عملية النمو المؤلمة هذه لأن الشيء الأول الذي نراه ليس هو الأفضل بل الجانب الأكثر قتامة في أنفسنا، وبعده يأتي النور.

م. ت - أنا لاحظت أن على المرء أن يحب ذاته حتى مع وجود هذه الأشياء الصغيرة التي نظنها سيئة، لأنك حين تقول لنفسك «إنني بالغ السوء» فإنك تبدأ برؤية كم أنت تافه وضيق الأفق.

لهذا يزعجني قول الناس وهم يرون طفلاً صغيراً في حادثة

يلقي كأساً على الأرض «انظر، إنه فاتن، كم هذا مسلٍ» في حين لو رميت كأساً على الأرض لقالوا عنك «يا له من أبله!».

الحقيقة هي أننا لا نحب أنفسنا، وحين يقول المرء عن ذاته «إنني بالغ السوء» فلأنه لا يحب ذاته. أرى أن على المرء أن يحب ذاته حتى في لحظة السوء. لذا فأنا أعتقد أن الأمر ليس متعلقاً فقط بالتغيير بل بتمييز المرء لنفسه كصغير وهش، وعليه أن يحب ذاته على أي حال تكون وعلى الناس أن يتقبلوه كما هو عليه.

ـ سأخبرك شيئاً آخر، فأنا لا أرى الأمر بهذه الطريقة تماماً. الأمر كما أراه هو أنها الحركة الدائمة فقط التي تجعل التغيير يحدث دائماً. إن ما يشلنا على أية حال هو الإحساس بالذنب. يرى المرء الأشياء ويقف مشلولاً لشعوره بالذنب ولعدم إحساسه بأنه جدير. أنا نفسي أول شيء فعلته كان القول: «أي ابن ساقطة أنا!» لذا ليس لكِ أن تظني بأنك هنا مع رجل حكيم يمتلك إجابات لكل شيء بل مع مجرد رجل عادي. وأنا بذلك أحمي نفسي بإبعادك عن خلق تصور زائف عني، وبذا تقبليني منذ البداية كما أنا وبدون تلك الأحاسيس الغبية بالذنب.

م. ت ـ لكن البداية هي أن تحب ذاتك ومن ثم لا تخاف من الإفصاح عنها كما هي، لأن هناك العديد من الأشياء المثيرة للأسى كقولك «هذا لم يحدث، وذاك لم يقل، وما كان ينبغي قول ذلك، وما إلى ذلك».

ـ بالتأكيد.

آ. غ ـ أعتقد أن الأساس في إحداث هذا الخرق هو القبول بأن لك حقوقاً، وأنك ككائن حي تمتلك إمكانية الرؤية لأبعد من الدليل المرسوم.

ـ وبأنه لا توجد خطيئة. ولهذا فأنا ككاثوليكي على سبيل المثال أفكر كثيراً بالمعجزة الأولى ليسوع المسيح. إنها لم تكن معجزة

سياسية صحيحة، لم تكن المعجزة الأولى شفاء الأعمى ولا جعل الكسيح يمشي. لقد كانت في تحويل الماء إلى خمر، وهذا شيء دنيوي شهواني فقط لمجرد أن الخمر قد نفد. لم تكن المعجزة ضرورة لإنقاذ البشرية، كلا. بل في حفل الزفاف في قانا نفد الخمر وسأل المسيح نفسه: «ماذا عساني أن أفعل؟»، ودون تردد قال: «لدي المقدرة على تحويل الماء إلى خمر، وسأفعل ذلك. ليس ذلك فقط بل حوله إلى نبيذ فاخر. إنه في هذا الرمز بالنسبة لي يقصد القول: انظروا، رغم أنني سأمضي عبر لحظات من الألم العظيم، إلا أن الدرب هي درب المسرة وليست درب الألم. المحتوم قائم وهو بانتظارنا كما هو الحال في «الجبل الخامس» لا يمكننا تفاديه، لكننا لا نبحث عنه أيضاً.

آ. غ ـ أعتقد أن هذه واحدة من الأخطاء التي ترتكبها بعض الأديان، تحوّل التضحية إلى هدف بحد ذاته. أنا أقول دائماً أن المسيح في الأناجيل كان يزيل الألم في كل مرة يصادفه. كان بوسعه أن يقول: هذا ملائم لكم فاستبقوه وطهروا أنفسكم به. كلا، فلم يستطع تحمل رؤية أحد يتألم. لقد شفى الناس من كل الأمراض، وخاصة في أوساط الفقراء الذين يعانون أكثر.

ـ أنا أوافقك الرأي في هذا. إن كل الآلام التي كان علي مواجهتها في حياتي كانت آلاماً لم أستطع تجنبها لكنني لم أبحث عنها لتكون قرباناً. إن كلمة قربان مصدرها «الطقس المقدس» وفيها الكثير مما يتعلق بالتنازلات التي نجريها تجاه أي أمر نقوم به. يحدث أحياناً أن تحتاج إلى التخلي عن أمر ما لتتمكن من اختيار أمر آخر، أما التضحية بمعنى التخلي عن شيء لمجرد التخلي فهي أمر لا معنى له.

م. ت ـ أنا لا أعتقد أن الأمر يُعرض هكذا على النحو الصحيح. فالأمر بالأساس ليس التضحية بل الشعور بأنك محبوب وهذا يغير

كل شيء. أعتقد بأن المبشرين لهذا السبب يقولون لا يهم. إنهم لا يأبهون للتضحية أو الألم لأنهم يشعرون بأنهم محبوبون.

آ. غ ـ لكن هذه لم تعد تضحية. الحب يشتمل على التضحية لأنها تحتم التخلي عن شيء ما، وذلك أن عليك القبول بشيء آخر لكن التعويض الذي تجلبه لا يمكنك من أن تسميها تضحية. إن القس الذي يطعم هنا في ريو دي جانيرو أربعمئة متسول في اليوم هو سعيد بالطبع، ومن الواضح أنه لا يحيا حياة ممتعة ببحثه عن الطعام لأربعمئة متسول والعيش معهم. لكنني لا أشك إطلاقاً بأنه يشعر بسعادة حقة، لأن ما هو تضحية بالنسبة لأي منا ليس تضحية بالنسبة له، فهو لو كان يفعل ذلك كتضحية لكان مازوخياً يعذب نفسه.

م. ت ـ ولن يكون ذلك دليل صحة نفسية.

آ. غ ـ ولن يكون سعيداً.

م. ت ـ أنا مثلاً حين أكون مشوشة وأنا أتعلم شيئاً ما ويقال لي: «هيا، كرري، وسترين كيف ستنجحين في ذلك» فإنني أكرر بسرور إلى أن أتقن الأمر تماماً، أما حين يقال لي: «كم أنت غبية!» فإنني أترك الأمر، لأنهم يدفعونني مسبقاً للأداء بشكل سيء.

ب. غ ـ أود العودة إلى مفهوم الرحلة كمسألة تجعلك أكثر حرية. أنا أتبين مشكلة هنا لأنك حين تكون مسافراً يسهل عليك أن تكون حراً، فتبحث عن ماهيتك الخاصة وتجد نفسك، وهذا كله يغني المرء كثيراً، إنه يشبه الشعور بأنك محبوب. لقد قرأت كتاباً عن الحب بعنوان «أنا أحبك»، وأدركت أن الرحلة هي عشق يحررك فجأة من أشياء عديدة، لكن المشكلة تحدث حين تعود من رحلتك إلى واقع حياتك اليومية. إن العناء الأكبر بالنسبة لي والذي لم يزل يشدني إلى الدليل المرسوم، لأنني مازلت أشعر أنني وسط هذا التناقض هو أن علي أن أعيش بين أناس لم يكتشفوا ما اكتشفت،

فمن ناحية أحب لهم أن يكتشفوا ما اكتشفت، لكنني أتساءل من ناحية ثانية إن كان ينبغي عليهم ذلك.

ـ نعم، لأن هناك مشكلة كبرى، إنني أراها هنا على الشاطئ. في الصباحات يكون مقفراً تماماً، تأتي أمّ مع طفلتها وتجلس. يصل بعض الأولاد ويبدؤون اللعب بكرتهم ثم تأتي بعض الفتيات الجريئات بلباس البحر البكيني المنحسر وهن يأملن العثور على أصدقاء شباب. تصل بعدهن أم أخرى فلا تجلس بقرب الفتيات الأغرار لأنها تشعر بأنها قبيحة قليلاً كما أنها لن تجلس بقرب الأولاد الذين يلعبون بالكرة لأنها لن تشارك في اللعب. لذا فإن من الطبيعي أن تجلس بقرب الأم الأخرى. يبدأ الأولاد باللعب والفتيات بالاستعراض ويأتي الشباب العابثون ليجلسوا قرب الفتيات. فيبدأ الشاطئ بذلك ترتيب عالمه، لاحظت كيف شيئاً فشيئاً تتشكل الانقسامات. فصيل من الأمهات مع أطفالهن وفصيل الشباب والشابات الجميلات والباحثين عن فرص للسعادة. إنها مجموعات تتشكل عفوياً لكن الأمر يتطلب وقتاً لتستقر الأشياء في موقعها الطبيعي. نحن لا نستطيع تغيير ذلك فالأمهات أمهات مع أولادهن والرياضيون يودون اللعب وهم سعداء بذلك فتلك هي طريقتهم في عبادة الله. إن ما يجري هو عملية تحديد هويات.

لهذا أتحدث كثيراً عن فارس النور حيث ترين فجأة من نظرات البعض بأنهم يريدون الأشياء نفسها التي تبحثين عنها، هذا بالرغم من نواقصنا ومشاكلنا الكثيرة ولحظات ضعفنا، نحن مع ذلك نشعر بأننا جديرون ونمتلك القدرة على التغيير فنسير به.

المسألة ليست عملية إقناع للناس يا باولا، بل هي في إيجاد من هم منطلقون بمشاعرهم، متوحدون ويفكرون في الأشياء نفسها مثلك، هل هذا واضح؟ هل أحسنت التعبير عن الأمر؟

ب. غ ـ المشكلة أنهم قلة، أو أنني، على الأقل لم ألتقِ بالعديد منهم.

- هناك الكثيرون، ومن المضحك كيف يكون كاتباً أو كتاباً هو المحفز إلى حد بعيد لظهور هؤلاء. فأنتِ إن قرأتِ هنري ميلر فستلاحظين أن ثمة شيئاً مشتركاً مع ذلك الشخص، والحال نفسه إذا قرأت بورخيس. وهكذا فإن كتاباً أو فيلماً أو عملاً فنياً بشكل عام يمكن أن يقدم تأثيراً محفزاً عظيماً، لأن هذه الأعمال تجعلك ترين بأنك لست وحيدة، وبأن هناك من يفكر مثلك.

آ. غ - مثلاً إذا رأيت فتاة على الطائرة تقرأ كتاباً محدداً، تعرف بأنك تستطيع التحدث إليها.

ب. غ - مرة، كنت في القطار مسافرة إلى زاراكوزا لرؤية عائلتي. كنت مسافرة مع أبي وجدتي، وجلست بقرب فتاة شابة كان معها كتاب «برايدا». وفي اليوم السابق كنت في معرض مدريد للكتاب، وكنت أحاول اتخاذ قرار في أن أشتري كتاب «الجبل الخامس» أو «برايدا»، وفي النهاية لا أعرف لماذا استقر رأيي على شراء «الجبل الخامس». وعندما جلست في القطار نظرت إلى الفتاة التي لم أكن قد رأيتها من قبل في حياتي. ونظرت إلى كتابها وفكرت «يا للمصادفة! البارحة فقط كنت أنظر إلى الكتاب نفسه في المعرض». وبالتالي لم أستطع أن أضبط نفسي. فأخبرتها، فقالت: وأنا نفسي كنت أتساءل فيما إذا كنت سأشتري «الجبل الخامس» أو «برايدا». «الجبل الخامس» قلت بدهشة! انظري ها هو معي الآن في الحقيبة. وتبين أن الفتاة كانت ابنة صديق عمتي التي تعيش في زاراكوزا. وبدأت أبحث حولي عن كاميرتي، لأن تلك كانت بداية صداقة.

- أعرف تماماً ما ترمين إليه، ولطالما كان عندي إحساس بأن ثمة من يرصد كل ما يجري.

ب. غ - أحياناً أفتح الإنجيل على أية صفحة دون تحديد وأبدأ بالقراءة ويبدو الأمر كأنه يتحدث إلي مباشرة، فأنكر كيف يمكن أن يحدث هذا.

- إنه نفس ما أخبرتك به عن سائق التاكسي. وهذا ما قلته أيضاً، الأمر كما لو أن ملاكاً يستخدم أفواه الآخرين للتحدث إلينا.

آ. غ - لكن الكتب هامة جداً في هذا الشأن، لأنك إذا رأيت شخصاً ومعه كتاب تحبه يمكنك التحدث مباشرة إلى هذا الشخص. ولو كان شخصاً يقرأ كتاباً لا تعرف عنه شيئاً لما تجرأت على التحدث إليه، لكن إذا كان كتاباً تعرفه جيداً، فإنك تدرك مباشرة أنك وهذا الشخص على موجة إرسال واحدة.

- هل أنتِ من زاراكوزا يا باولا؟

ب. ج - عائلتي كلها آراغونية لكنني أنا وآنا ولدنا في مدريد.

آ. غ - وأنت يا ماريا؟

م. ت - أنا من مدريد أيضاً.

ب. غ - أنا أدرس الهندسة المعمارية لكنني مهتمة بالفن. الفن الحديث ينطوي كما يبدو على الكثير من المشاعر المركزة، وإن أنت سنحت لك فرصة التعرف على رسام، فسترين أن اللوحة تنطق بالكثير عن مشاعر الناس في أيامنا هذه. ما هو رأيك بالفن الحديث؟

- أنا أعتقد أن الفن هو دائماً ترجمة جيل. إنه ترجمة لمشاعر جيل تجاه معاصريه.

ب. غ - وهذا ما أعتقده أنا أيضاً.

- بالطبع. تأتي لحظة يكون عليك أن تفصلي بين ما هو فن وما هو موضة. أعتقد بأن هناك طرقاً عديدة لسرد قصة، والفن المعماري هو واحد من الطرق الأكثر إدهاشاً، لأن التاريخ العظيم للإنسانية ينقله لنا من هندسة العمارة. هناك العديد من النظريات ومن الكتب عن العمران، حيث نجد انعكاساً للمعرفة كلها. وذلك يبدأ بالأهرامات، مروراً بالكنائس القوطية، حيث يمكنك أن تري بوضوح

أنهم لم يكونوا فقط يحاولون إشادة بناء ما بل هناك حياة تلك الأزمنة وتاريخها ومعتقداتها ومحاولة نقل ما يعرفونه إلى الأجيال التالية، ليس مما هو عابر وعرضي بل من الأفضل مما في ذواتهم. الفن الحديث لديه مبالغاته وأحياناً يكون فيها القليل مما لا علاقة له بالفن ذاته الذي هو إمكانية ملامسة القلب وليس التركيز على مواضع إثارة. هناك ميل على إطلاق اسم الفن على ما ليس فناً، فالفن هو ليس أكثر من نقل كل ما تعلمناه أثناء الرحلة إلى قافلة الحياة.

آ. غ ـ أساساً الفن هو رحلة.

ـ باستخدام مجاز الرحلة، أنا أنظر إلى الحياة كقافلة: أنا لا أعرف من أين انطلقت ولا إلى أين سننتهي. خلال ترحالنا يولد الأطفال في القافلة ويصغون إلى حكايا الأحداث، ثم يصبح الأطفال أجداداً يخبرون عن الجزء المتعلق بهم من الرحلة ويموتون. التاريخ ينقل من جيل إلى جيل، من القلب إلى القلب مباشرة تجربة ذلك الجيل. والفن عموماً هو طريقنا في نقل «جوهر» الأشياء هذا. وأنا هنا أستخدم كلمة من الخيمياء، لأنني لا أستطيع أن أشرح لك الوضع. عندما تلتقي ثلاث فتيات من مدريد وصحافي من ألبابييس وشاعر، مع شاعر عظيم آخر وأنا جميعنا نجتمع سوية. لا نستطيع شرح هذه الحالة.

على العموم لدينا شعر نقوله، لدينا الرسم والنحت والفن المعماري وكل ما قد نستخدمه لترجمة مشاعرنا. يوماً ما سيمر أحفادك ويرون ما قد أبدعت من ذاتك كمعمارية ربما لن يعرفوا القصة بمجملها، تماماً كما أننا الآن لا نعرف من جنى هذه العناقيد، لكنهم سيتمتعون بما قمت به كما نتمتع نحن الآن بالعنب. هذا هو الجوهر.

آ. غ ـ في كتابي حوارات مع الفيلسوف فرناندو سافتير يقول: إننا نشيد ونترك كل هذه الآثار والفن والغناء وكل هذه الأشياء لأننا

نعرف أننا سنموت يوماً ما، ولهذا السبب فإن الحيوانات التي لا تعرف أنها ستموت لا تترك آثاراً. وهكذا تولد الحضارة.

ـ ربما إن توقنا إلى الخلود هو ما يدفعنا إلى إنجاب الأطفال وبناء الأشياء، رغم أنني أعتقد أن في الأمر ما هو أبعد من ذلك ولولا ذلك لما كنا بحاجة إلى الفنانين علاوة على الأولاد. لأنك من لحظة إنجابك للأولاد تعرف بأنك تترك خلفك شيئاً ملموساً. أنا أعتقد بأننا نترك وراءنا آثاراً لنشارك بها في الحياة، لأننا نحب الحياة وليس لأننا قادمون إلى النهاية. لأن في داخلنا حباً نريد المشاركة فيه مع الآخرين. إن هذا يكبر ليملأنا وحين يملأنا فإن أول شيء يلهمنا به هو ضرورة الإفصاح عنه.

آ. غ ـ نحن أيضاً نحب الإفصاح عنه لأننا نحن الكتّاب مهمتنا القيام بهذا الدور: سرد حياتنا.

ـ لنحولها إلى تجارب، فتتلقينها وتنقلينها وتشاركين فيها كما سبق أن قلت في «رحلة الحج»، الانشداه هو حب أعظم من الحب ويجب مشاركته مع الآخرين.

آ. غ ـ الآن وقد ذكرت الموضوع، كيف تميز بين الانشداه والنشوة؟ لأنك في كتاب «حاج كومبوستيلا» تميز بين ثلاثة أنواع من الحب.

ـ النشوة هي حالة حب بين شخصين، والشغف هو حب التعلم أما الانشداه أو الدهشة فهو الحب الذي يمضي أبعد من حقيقة كونك تحب أو تكره. إنه الحب الذي تحدث عنه يسوع حين قال: «أحبوا أعداءكم».

نحن نتحدث كثيراً عن العدو، الخصم، وقد سبق أن قلت لجان أن باستطاعتي أن أحب أعدائي وأن أقتلهم رمزياً بدون رحمة. هذه حقيقتي الشخصية، وطريقتي في النظر إلى الحياة. فأنا أرى أن الخصومة فكرة مركزية في الخلق. الحياة كصراع، الصراع

الفاضل. هي فكرة شديدة الحضور في «حاج كومبوستيلا». هي ليست مسألة جيد أو سيء، بل هو نزال، مواجهة مستمرة بين القوى فإن أنا قمت بحركة فسأحدث تأثراً في، لنقل، خمسين ذرة أو جزيء والتي بدورها تؤثر بآخرين فيتردد صداها في أقصى جوانب الكون. إن كل حركة أقوم بها، أي شيء أعمله، أي فكرة أطرحها هي نتاج صراع بين شيء وآخر. وهذا أمر قائم في أساس الوجود، في اللحظة التي نعرّفها بالانفجار الكبير. انفجار بداية الصراع.

عندما كنت صغيراً، لا أعرف كم من العمر كنت ربما في الثامنة عشرة قرأت كتاباً ترك أثراً عظيماً في نفسي. كان يسمى «المهابهاراتا» كتاب مقدس، أحد الروائع الكلاسيكية. يشكل هذا الكتاب جزءاً من ملحمة، ملحمة الهند وتاريخها. وقد اقتبسوا عنه فيلماً مضجراً فيما بعد. هذا الكتاب هو بمثابة «دون كيخوتِ» بالنسبة لكم.

في مرحلة من الكتّاب تكون هناك حرب أهلية على وشك الاندلاع لأن الملك عهد بمملكته إلى ابن أخيه بدلاً من ابنه. يحتج الابن ويقول بأنه سيقاتل من أجل مُلكه، ويوافق ابن الأخ قائلاً لتكن المعركة. كانت الحرب الأهلية ستقع وكان الملك الذي كان ضريراً على قمة جبل يشرف على أرض المعركة والجيشان يواجه أحدهما الآخر، جيش ابنه وجيش ابن أخيه، والمعركة على وشك الوقوع بمواكبها ومحاربيها والأقواس والسهام وما إلى ذلك. يصل الله في تلك اللحظة ليشهد المعركة. وهنا استجمع جنرال من أحد الجيشين شجاعته وغادر الجيش ذاهباً إلى وسط الميدان ليلقي بقوسه وسهامه ويلتفت إلى الرب قائلاً: «كم هذا مريع! إن مجزرة على وشك أن تقع هنا، ونحن سوف نقتل بعضنا بعضاً ونموت. فهذه حرب أهلية وثمة أناس طيبون في كِلا المعسكرين. إن هذا الخلاف قد قسّمنا فمولاي في طرف ومولاتي في الطرف الآخر، ونحن نحضّ على المجزرة. لذا فأنا لن أحارب بل سأضحي بنفسي هنا». ويجيب

الرب: «لكن ما الذي تظن أنك فاعله؟ أنت في بداية المعركة وليس هذا وقت التردد. فإن كانت الحياة قد وضعتك في هذا الموقع من الصراع فلتحارب. اذهب وأبدأ القتال وسنناقش كل هذه المسائل فيما بعد. أما في هذه اللحظة فالمعركة أمامك».

في الواقع إن الله يقول له: «إن المعركة التي تراها أمامك هي جزء من حركة العالم. وذلك يشكل بدوره جزءاً من هذا الصراع القديم بين كل قوى الكون.

آ. غ ـ وبمعنى آخر فأنت تغيّر العالم بمعركة.

ـ إذا مضيت بالأمور إلى غاياتها فإن كل شيء صراع، ولكن ليس بمعنى المعركة كصدام بشع بل حركة صراع فاصل بين الأشياء التي تدفع بك باتجاه ما كنت تتحدث عنه الآن. ذلك أن الرحلة تنتهي وتعود أنت إلى البيت متسائلاً والآن ماذا بعد؟ هذا يعني ولادة صراع جديد، لكنه صراع إيجابي لأنه ما يجعلك تستمر.

آ. غ ـ هل تعني بأنك لا تستطيع التوقف عن القيام بخيارات.

ـ تستطيع أن تختار أحد أمرين أساسيين، التأمل هو المواجهة الفاضلة لك، وعليك أن تختار. فإن كنت قساً أو لاهوتياً أو بوذياً أو ما شابه، فإنك تدخل ديراً أو معبداً وتكرس نفسك للتأمل الدائم أما إن كنت شخصاً عادياً يحتاج إلى الحركة فستكون جزويتياً مدبراً للمكائد وأقرب إلى روحانية مقاتلة. لكن عليك الاختيار بين يوغا الحركة ويوغا السكون. لا يمكنك التوقف إذ ليس هنالك خير أو شر كما قال الرب، بل هناك حركة. فإننا نرى الأشياء غالباً كخير أو شر.

آ. غ ـ ولكن ليس من السهل دائماً التمييز بين قوى الخير والشر.

ـ عندما تكون في حالة صدام فإنك بالطبع تتخيل قوى الشر لتحددها وتقاتل ضدها. هنالك مشهد في رواية «على ضفة نهر

بييدرا جلست وبكيت»، وهو أمر حصل لي. كنت في «أوليت» وكنت أريد الدخول إلى الكنيسة، كان بصحبتي مرافق إسباني رائع من زاراكوزا. وصلت وكان الباب مفتوحاً، أردت الدخول فقال رجل كان يقف جانب الباب «لا يمكنك الدخول» قلت: «ماذا تقصد بأنني لا أستطيع الدخول؟»، «لا. لأنه وقت الظهيرة والباب مغلق». «رجاءً» حاولت أن أشرح له: «فأنا لست من إسبانيا وليس لي في هذه البلد إلا بضعة أيام، لذا دعني أدخل من فضلك ولو لخمس دقائق». «لا، لا، أبداً لا يمكن لأن الساعة هي الثانية عشرة، نفتح ثانية في الثالثة بعد الظهر». سألته ثانية متوسلاً أن يسمح لي بالدخول لدقيقتين فقط لأداء الصلاة ورد بالرفض: «لا. لا» «ولماذا لا؟» قلت: «سأدخل الآن وأنت تراقبني». لأنه لم يكن هناك أي معنى لذلك الرفض، فقد كان واقفاً هناك لا يفعل أي شيء وكان سيظل هناك طوال بعد الظهر.

كان ذلك الرجل رمزاً للحظة التي عليك أن تقول فيها «لا» لشيء مناقض للقانون أوالسلطة أو أي حالة منع. إنها اللحظة التي تظهر فيها شخصية الخصم، وهي اللحظة التي يقتلها فيها المحارب رمزياً. المحارب، المسافر هنا، يقتِل أو يُقتل ففي حالتي كان يمكن أن يكون الرجل أكثر قوة مني ويقتلني. مررت آنذاك بحالة من الإذلال المريع لكنني أحب المواجهة.

آ. غ ـ إنها حالة مشابهة لحالة يسوع المسيح وهو يؤنب الفريسي اليهودي المرائي حين خرج الحواريون عن طقس السبت المقدس، لأن هذا التقديس خُلق من أجل الإنسان وليس الإنسان من خُلق من أجل هذا التقديس.

ـ بالضبط. هناك قوتان تتواجهان في هذه الحالة. وأنت القوة، القوة التي لا تنتهي لأنك ماضٍ إلى هدفك دون حساب للنتائج. فقد مضيت إلى ما هو أبعد. مضيت إلى قفزة في المجهول الذي كنا نتحدث عنه مدفوعاً بالإيمان، فأنا لم أكن أؤذي ذلك الرجل، ما كنت أمنعه من الذهاب لتناول غدائه أو المغادرة، بينما كان هو يمنعني

من دخول الكنيسة لأنه يعتقد أن ذلك مخالف للقوانين. أنا لم أقبل بالأمر، فتجاهلت القانون وأعدمت الرجل مجازياً.

آ. غ ـ ألا تعتقد أن الأمر أيضاً مرتبط بشكل ما بالمشهد في الإنجيل حيث يخرج المسيح على طاعة والديه؟

ـ بالطبع. فكثيراً ما واجه يسوع مريم ويوسف.

آ. غ ـ وهذا أمر يصدم البعض من الكاثوليكيين.

ـ وحين ذهبت أمه لرؤيته وطلبت منهم أن يخبروه بأن أمه هناك أجاب: أمي؟ من هي أمي؟

ب. غ ـ كنت أعتقد أن ذلك كان يبدو رفضاً للأم والأخوة والأخوات، لكنني أفهمه الآن على أنه توسيع لأفق الرؤية أكثر منه رفضاً.

آ. غ ـ لا، بل هو يعني القول: «إن علي أن أتبع مساراً، ولا يمكنكم اعتراض طريقي».

ب. غ ـ لكنه توسيع للمنظور. أعتقد أنه، ربما بمفهوم زمننا، لو أنا قلت ذلك لأمي لشعرت بالاستياء. لكن لو أخذت الأمر من منظور أوسع، فلن تستطيع أن ترى الأمر على هذا المنحى من السوء.

آ. غ ـ إذاً لم تكوني تقولينها من منطلق الخوف أن تؤذي مشاعر أمك، أو أن أمك تمنعك من اتباع طريقك الخاص فهذا اختيار، وهو ما يقوله باولو. عليك هنا أن تتخذي خيارك. عليك أن تقرري اتباع طريقك، حتى لو كان من شأن ذلك أن يجعل أمك تتألم. وليس معنى ذلك أنك لا تحبينها. بل هو صراع بين الحب الذي تكنينه لها، والذي لا تنكريه إطلاقاً، وبين حبك لذاتك الذي يجعلك تتبعين مسارك الخاص. أمام هذا الصراع عليك أنت أن تتخذي القرار.

ـ إن هذا الصراع مع العائلة أمر أساسي. لقد تحدثت كثيراً في كتبي عن الخلافات التي وقعت لي مع أهلي، وكانت حدية جداً. مع ذلك، علي أن أشكرهم لأنهم جابهوني، ربوني وعارضوني، ومن خلال كل ذلك انبثق ذلك الصراع الفاضل.

ب. غ ـ أنت تتحدث عن حيثيات كل لحظة. هناك مسار، لكن هناك أيضاً أشياء عديدة تعيشها. إنها ليست فقط مسألة المضي في المسار بغض النظر عما يحدث، لأن عليك في كل لحظة أن تقرر إن كنت مثلاً ستدخل الكنيسة أو لا، أو إن كان عليك أن تواجه مهما بلغت التضحيات؟

ـ لا، ليست المواجهة كلية. في هذه الحالة تستطيعين فقط أن تستمري بها ليوم واحد ثم تنفد طاقتك. لهذا تجدين في كتاب «الجبل الخامس» حالة توازن دائمة بين الصرامة واللين. فهناك أوقات عليك فيها أن تقولي لا، وأحياناً أخرى يجب أن تسلمي قيادك للآخرين وبالكاد تتبينين إلى أين يمضون بك. هذا أمر لا علاقة له بقدرتك على اتخاذ القرار، وليس هو تخلٍ عن اتخاذ القرارات. فأنا أقرر فيما إذا كنت سأسلم زمام قيادي للآخرين أم أنني سأواجه، لكنني أقرر ألا أقف دون قرار على مفترق طرق.

آ. غ ـ وهذا أمر له قدسيته في جميع الأديان.

ـ نعم، بدءاً من عطارد، الذي كان إله المفترقات. هنا، في البرازيل، إذا خرجت في ليل الجمعة، رأيت أن الناس مازالوا يضعون الطعام على مفارق الطرق، لأن الآلهة، وفي جميع الأديان تنظر إلى هذه الأماكن.

م. ت ـ مرة كنا في المنزل نتحدث عن الكون والهيولى، وتوصلنا إلى أن هناك كوناً فقط، وليست الهيولى إلا جزءاً من هذا الكون. وهذا له مغزاه، فقد كنا نتحدث عن الريو كمثال. أن هناك تناقضاً هائلاً بين الجزء الغني من المدينة وبين الأطراف. وهذا

بدوره مثال على أن الهيولى الأولى هي الكون ذاته بعد التشكل. حتى مفترق الطرق فهو كون أيضاً، إذ أن هناك تلك اللحظات الحرجة التي تتحدث عنها. إن علينا اختيار طريق أو آخر، لكن حتى التوقف لمرة في المنتصف فهو يشكل قفزة، وربما تكون باتجاه ما لا تعرفه بعد. قد يكون للأفضل أو للأسوأ، لكن لحظة كهذه هي هامة أيضاً. وهناك أمر آخر هو إدراكك، مهما كانت درجة تحكمك بحياتك، بأن ثمة شيئاً ناقصاً دائماً. وقد يكون مرد ذلك لكونك فارغاً دائم الفشل، وأن ما قمت بتغييره في تلك اللحظة الحرجة لم يكن ما يجب أن يتغير.

ـ إن هذه مشكلة يا ماريا. يسأل الكثيرون قائلين «لو أن كذا وكذا قد حدث في حياتك...؟» جوابي هو أن قاموسي لا يحتوي على هذه المفردة الشرطية «لو أن». إنه يحتوي على ما لا أدري من آلاف الكلمات، لكن الـ «لو» غير موجودة. فـ «لو» تفتح عمل الشيطان، تدمر كل شيء. لأنني في اللحظة التي أختار بها طريقي، أو أتخذ قراراً، أقوم بذلك وقد يتبين فيما بعد أن القرار كان خاطئاً أو صائباً، لكنه قراري. فإن توقفت لأقول: «آه لو أنني فقط فعلت كذا وكذا؟» فإنني عند ذلك أدمر كل شيء.

م. ت ـ لكن في رأيي أن المشكلة هي أننا نستطيع أن نقرر اتخاذ طريقنا، ولكننا لا نعرف إطلاقاً إذا كان ذلك القرار صائباً أو سيئاً. لذلك فقد يكون الشك أمر مستحسن. لأنك في اللحظة الحرجة لا تعرف إن كان القرار صائباً أم خاطئاً.

ـ آسف يا ماريا. ولكنك هنا تتحدثين عن مسألة إيمان، والشك لا علاقة له بالإيمان. الشك هو لحظة اتخاذ القرار، وأنت تثقين بما أنت قادمة عليه. أليس كذلك؟ ستظل الشكوك تراودك طوال حياتك. أنا نفسي لطالما راودتني الشكوك. وهي تكبر وتتكاثر على مدى الأيام، لكنها لا تمنعني من اتخاذ قرار. فالشك لا يتعلق بما إذا كنت مخطئاً أم لا. إن النظر في الأمر يتم لاحقاً. إن ما لاحظته خلال

حياتي كلها هو أن إمكانية التصحيح موجودة، وإن هناك دائماً فرصة ثانية.

م. س ـ الحمد لله أن فرصة التصحيح موجودة دائماً.

ـ الحمد لله.

م. ت ـ لكن ما نتحدث عنه هو ما بعد تلك القفزة التي نتخذ فيها القرار، والتي يعود لها الفضل في الشكوك، أو الوقت الذي يسبق التغيير حيث يعيد المرء اتخاذ زمام المبادرة في حياته. تلك هي أوقات الشك والأزمات والمفترقات. ربما كان عجز المرء عن القيام بما يواجهه هو ما يدفعه للبحث والترحال فيفتعل، أو يحفز صراعاً يقوده إلى إيجاد مخرج. لذلك تُعتبر تلك الأزمة مباركة.

ـ الأزمات دائماً مباركة، لأنها اللحظات التي على المرء فيها أن يتخذ قراراً.

ب. غ ـ لي صديقة إيطالية ستأتي إلى الريو. كانت معي في إنكلترا عندما كنت مسافرة، وقالت لي: «لطالما كانت تستبد بي فكرة الكمال، وغالباً ما دفعتُ الناس خطأً إلى الاعتقاد بأنني كاملة. اسمعي يا باولا، إن ثقافتي كلاسيكية فأنا من روما، وأنت تعرفين ماذا تعني كلمة «الكمال» أليس كذلك؟» فقلت: «لا، لا أعرف». استطردت قائلة: «الكمال يعني أن تكوني مكتملة من كل الجوانب. ولا يمكن للمرء أن يكون مكتملاً دون الجزء الشرير منه، لكن عليه أن يُبقي هذا الجزء تحت السيطرة. هذا هو الكمال الذي يحررك ويجعلك تقبلين إنسانيتك». وهذا ما كانت تقوله ماريا عن وحدة الهيولى والكون.

ـ حتى يسوع، عندما خاطبه أحدهم قائلاً: «أنت الخير» غضب وأجاب: «الله وحده هو الخير».

م. س ـ الصينيون يرون في كلمة «أزمة» معنى الفرصة.

ب. غ ـ قبل مجيئي إلى الريو قال لي صديقي الشيء ذاته. إنه لا

يستخدم كلمة «أزمة» بل «مشكلة». قال لي: «باولا. إن الصينيين يفهمون كلمة «مشكلة» على أنها فرصة».

م. س ـ تحدث باولو عن رحلات الحج، عن الطريق كبحث عن الهوية. والسؤال هو: هل أن الرحلة مهمة تنتهي عند مرحلة معينة، أم أنها حالة دائمة؟ هل هي حدث أم مسار؟

ـ سؤال جيد يا ماورو.

م. س ـ لأن وراء هذا السؤال يكون المبرر، أو عدمه بالنسبة للمسافر.

ـ بالضبط. وكثيراً حاولت أن أجيب على السؤال الشهير «من أنا؟» ولن أحاول ثانية. فهذا لم يعد سؤالاً بل جواب. أنا موجود. وطالما أنني موجود فيجب أن أكون موجوداً. ولا أستطيع أن أجيب على السؤال بـ «يجب أن أكون». إنه الجواب نفسه الذي أجاب به موسى الله عندما سأله: «من أنت؟» فأجاب: «أنا من أنا». أنا أعتقد بأننا موجودون وكفى. وها نحن. ومنذ لحظة وجودنا تبدأ رحلة الحج. لقد اعتدت أن أضع أهدافاً نصب عيني، ومازلت أعتقد بأهمية أن يكون لدى المرء فكرة يعمل عليها، وينظم حياته قليلاً. لكن لا بد من الفهم بأن الرحلة هي المتعة الكبرى.

م. س ـ أي أن الهدف هو المسار ذاته. إنه لإحباط كبير للعديد من الناس، ممن يقومون برحلة الحجيج هذه، أو بأي مسعىً آخر سواءً في العالم الخارجي أو داخل النفس، ألّا يعثروا على النهاية، لأنهم لا يدركون المعنى الحقيقي للبداية. علينا أن ندرك تماماً بأننا نحن هنا، على سبيل المثال، كل بطريقته، في صدد البحث عن أسبابه. وأعتقد أننا جميعاً ندرك معنى هذه الصيرورة، لكن إن كان فينا من لم يدرك معناها، فسيغادرنا بكثير من التشوش حتى ولو أبدى إعجاباً كبيراً بالآراء المطروحة.

ـ نعم. هناك قصيدة للشاعر اليوناني العظيم كافافي تدعى

«إيثاكا». إنها قصيدة رائعة، لأن إيثاكا هي المدينة التي على يوليسيس أن يعود إليها بعد الحرب. تبدأ القصيدة بالمطلع التالي:

إذ تنطلق مبحراً إلى إيثاكا، عليك أن تصلي لتطول الطريق.

وفي نهاية القصيدة يقول:

حتى وإن وجدت إيثاكا بائسة، فهي في النهاية لم تخدعك

فبالغنى الذي حصّلته بالتجربة، ستكون قد أدركت معنى إيثاكا

التي تنشدها.

أنا أعتقد أن كافافي محق تماماً. فعندما رأيت كاتدرائية سانتياغو لأول مرة كانت صدمة لي. قلت لنفسي «أهذا هو الموقع الذي كنت أموت شوقاً للوصول إليه في بداية رحلة حجي؟ لكن الآن وقد انتهت الرحلة علي أن اتخذ القرار». حتى اللحظة تلك كان الأمر واضحاً في ذهني بأن علي أن أقوم بتلك الرحلة، وعندما وصلت إلى هناك فكرت «ما الذي أقوم به، ماذا أفعل هنا في هذه الكاتدرائية؟ ما الذي أفعله في كل ما فعلت؟»». إن معنى الرحلة موجود في الأبيات الشعرية للشاعر الإسباني ماكادو حيث يقول: «يا عابر السبيل ما من درب، نحن من نخط الدرب بخطانا».

م. س ـ أذكر في جنازة جاكلين كيندي أوناسيس أن زوجها الذي رافقها في سنوات عمرها الأخيرة، والذي كان متوقعا منه أن يلقي كلمة في المناسبة المهيبة، اكتفى بأن قرأ إيثاكا التي اقتبسها باولو الآن.

ـ حقاً، ما كنت أعلم ذلك.

م. س ـ كنا نتحدث من قبل عن المفترقات، عن «النعم» و«اللا» عن التقدم والتراجع. لدي بعض الملاحظات، ربما أن الشعور الأكثر خطراً في المسار هو الإحساس بـ «ربما»، أو الإحساس بـ «يمكن أن» الذي يترك مجالاً للتفكير عند المفترقات. إنها الكلمة التي تتشكل

والتي تعترض المسار وتنطوي على التفكير في التقدم أو الإحجام كشكلين مختلفين للفعل. لقد قلت يا باولو بأن هذا لا علاقة له بالشك، لكن هناك العديد ممن يعتقدون بأن «ربما» هي شكل من أشكال الفصل. فأنت حين تحقق التميز المطلوب بين الشك واليقين، يصبح الشك حالة صحية وتصبح الـ «ربما» حالة صحية أيضاً. إنها ما يحرر الفعل.

آ. غ ـ إن الحالة الدرامية الأسوأ عند الإنسان هي أن يكون عليه أن يختار، لأن الحقيقة أنك تود أن تعيش الحالة بوجهيها في آن معاً. لكن عليك أن تختار.

ـ لكن ذلك فخ، لأنك في الحقيقة عندما تختار تعيش الحالة كلها في الوقت نفسه، الحالة بكل وجوهها وكل شيء فيها. ففي اللحظة التي تمارس فيها قدرتك على اتخاذ قرار تكون السبل كلها متاحة لك وتتركز في اتجاه اختيارك.

آ. غ ـ لكن حين تمضي في هذا الاتجاه، ألن تكون قد تخليت عن تجريب ما كان يمكن أن يحدث لك في الاتجاه الآخر؟

ـ لا، هذا ليس مجازاً إنه واقع. تحدثنا عن حرف الألف الواحد. جميع الطرق هي الطريق نفسه، لكن عليك أن تختاري وتجربي على امتداد الطريق الذي اخترته جميع الطرق التي لم تختاريها. هذا هو المجاز، لأنه ليس عليك أن تتخلي عن أي شيء. إن الطريق التي اخترتها تشمل كل الطرق.

إذا عدنا إلى السيد المسيح نراه يقول: «بيت أبي يشتمل على نزل عديدة». الطرق جميعها تفضي إلى الإله الواحد ولنضع الأمر بصورة شخصية، لدينا طريقنا. إنها خيارنا، لكن يمكن إيجاد مئة وربما مائتي طريق. القدماء يقولون: «هناك ثمان أو تسع طرق للموت». فإن أنت اخترت طريقك فهو مسارك الشخصي، صيرورتك وسيرتك. ما لا يجب أن تفعليه هو أن تعيشي بطريقة والدك أو

زوجك لأنهما لا يكونان مسارك الخاص، وإن سرت بهما حتى نهاية حياتك ستجدين بأنك لن تعيشي تجربتك الخاصة. فالطرق الأخرى لا تشمل طريقك الخاص، لكن طريقك الخاص يشمل كل الطرق.

والآن دعونا نأكل شيئا مع قليل من المشروب ثم نتابع حوارنا بعد ذلك.

(كان السرور بادياً بوضوح على الكاتب من المستوى الذي وصله الحوار مع الطالبات الإسبانيات الثلاث، والذي انتهى إلى مشاركة كل الحاضرين فيه. اقترح كويلهو أن نأخذ قسطاً من الراحة لنتناول بعض المربى مع رقائق جبنة تاباس، ونتذوق خمراً إيطالياً فاخراً كان قد أهدي له).

آ. غ ـ كنت أريد أن أسألك. ألم تخشى أن تخبر جان بالعديد من القصص البالغة الخصوصية في حياتك، لأن هذا من شأنه أن يجعلك مكشوفاً تماماً.

ـ لا، لا لست أخشى أن أكشف نفسي بل على العكس أعتقد أن ذلك أحد التزامات الكاتب. إن من السهل جداً أن يخبئ الكاتب نفسه وراء كتاب ويخلق لنفسه صورة عليه عندها أن يحيا وفقاً لها وتظل تتابعه. أنا مررت بتجربة كهذه في عملي بالموسيقى: لقد فرض علينا دور المشاهير، عشت الدور وبعد سنتين انتهى إلى مأساة. لقد عاهدت نفسي على أن لا أكون ذاتاً متفردة. أنا كذلك الآن، ولكنني أريد أن أكون ذاتاً واقعية وليس الذات التي يبنوها عني.

آ. غ ـ سيكون عليك أن تهيئ نفسك، لأن هذا يمكن أن يشكل صدمة للعديد من قرائك.

ـ آمل ذلك... آمل ذلك. لقد قالها يسوع بوضوح «إن الحقيقة تجعلك حراً». وأنا أعتقد أن الطريقة الوحيدة لجعل المرء حراً هي من خلال الحقيقة. إن هذا من شأنه أن يشحنني بالمقدرة على متابعة

الكتابة. ربما أن ما أقوم به مع جان بإخباره كامل قصة حياتي دون إخفاء أي شيء لدرجة أنني آمل بعد الانتهاء من هذا الكتاب بألا يكون علي أن أتحدث عن حياتي ثانية لعشرين سنة قادمة. أقول ربما لن يكون هذا صحيحاً سياسياً الآن، لكنه على المدى الطويل سيجلب لي احترام الجميع وسيجعلني أكثر حرية، وسيفهم قرائي أن هذه حقيقتي وسيقبلونني كما أنا رغم كوني دائماً في تطور وحركة.

ب. غ ـ ما الذي تبحث عنه وأنت تكتب؟

ـ نفسي، لأنني باولو كويلهو المتعدد، وفي كل لحظة من حياتي أجري تحولات داخلية بحيث مازلت عاجزاً عن فهم نفسي بشكل كامل. فأنا أكتب أيضاً لأعرف من أكون في هذه اللحظة المحددة. وعندما أتغير، بعدها يكون علي أن أكتب كتاباً آخر. وبهذا أستطيع أن أشارك بتغيراتي ومظاهري وألواني المتعددة. فطالما أنني نزيه وصادق ـ وهذا أمر ليس بالسهل إطلاقاً بل يتطلب تمرساً في الانضباط أيضا ـ فإن لدي هذه الحالة من التماهي مع كتبي، وطالما أن هذه الحالة موجودة فإنني أستطيع بالتأكيد أن أبثّ لأبعد مما تستطيعه الكلمات، طاقة التماهي هذه.

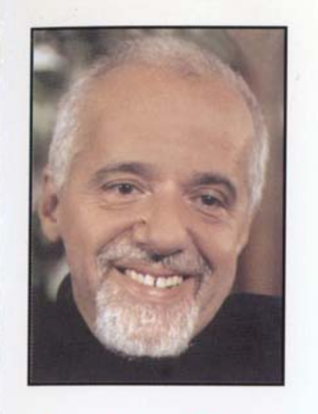
ربما كانت الطريقة الوحيدة لشرح سبب نجاحي العالمي تكمن في أن ما أبثّه هو شيء يتجاوز مجرد الكلمات في كتبي. لكن هذا يصعب شرحه.

ـ إذا لم يكن لديكم شيء آخر، فأنا سأقوم الآن بإجراء مقابلة مع جان إيرياس، لأنني تواق جداً لأن أمضي إلى العمق في بعض الأشياء التي كتبها عن البابا جون بول الثاني وعن الفاتيكان.

استمرت حواراتي مع كويلهو لعدة أيام تلت، لكنني أردت أن أنهي الكتاب هنا عند هذه المساجلة ـ الحوار بينه وبين قراء له جاؤوا على نحو غير متوقع ـ إلى نموذج عن العدد الكبير من جيل

الشباب في كل أنحاء العالم من المهتمين بأعمال الكاتب البرازيلي وممن يحولون كتبه في الغالب ـ وكما حدث سابقاً مع كاستيندا ـ إلى مادة للتأمل والتفكير في تقصي مصائرهم الشخصية.

الفهرس



باولو كويلهو

اعترافات مُسافر حَاج

ولد باولو كويلهو في البرازيل وأصبح واحداً من أكثر الكتاب المقروئين في العالم اليوم. وقبل أن يصبح كاتباً محترفاً يحقق أفضل المبيعات، كان كاتباً ومخرجاً مسرحياً، ومؤلف أغانٍ هيبية وشعبية لأكثر مغنّي البوب شهرةً في البرازيل.

نال شهرةً واسعة على روايته «الخيميائي»، إذ باع منها ملايين النسخ في العالم كله، وترجمت إلى جميع لغات العالم.

«اعترافات مسافرٍ حاج» هذه لباولو كويلهو، تقدم للقراء فرصة التعرف عن كثب لأول مرة على حياته الروحية والدراماتيكية. لقد كان باولو كويلهو دائماً غير مهادنٍ، كان الباحث دائماً عن مسارات جديدة، والمُجرِّب لكل ما يصادفه في مساره من غثٍ وثمين. وبعد استغراقه في مسارات ضالّة، تحول إلى الكتابة وأصبح واحداً من أكثر الكتّاب نجاحاً في العالم.

إنه التصوير الحميم لشخصية باولو كويلهو عبر الاعترافات التي يبوح بها لجان إيرياس الكاتب والصحافي المرموق. فيتحدث عن تجاربه في الاحتجاز في مصحٍّ عقلي وهو في ريعان شبابه لمجرد كونه فناناً، والاعتقال والتعذيب من قِبل أجهزة الأمن العسكري، واحتكاكه مع جماعات السحر الأسود والمخدرات، ورأيه في طبيعة الكتابة والمسعى الروحي.

جان إيرياس هو كاتب وصحافي مشهور يعمل في جريدة «ألباييس» الإسبانية، وقد نال جائزة الثقافة الإيطالية على كتاباته، وأجرى الكثير من الحوارات المهمة مع كبار الكتاب العالميين.